١- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية

٢- تاريخ اللغة العربية

جرجي زيدان



تقدمة

من أسرة دار الحداثة
الى السيد : صالح صالح المحمد
بيروت في ...

١ - الفلسفة اللغويّة
والألفاظ العربيّة
٢ - تاريخ اللغة العربيّة

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان . بيروت ص . ب ١٤/٥٦٣٦

جرجي زيدان

١- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية

٢- تاريخ اللغة العربية

دار الحداثة

طريق المطار ـ شارع مدرسة القتال
بناية حلمي عويدات ـ تلفون
٨٣٣٩٨٩ ـ ص.ب. ١٤/٥٦٣٦

الطبعة الأولى
١٩٨٧

الفَلسفَة اللغويّة والألفَاظ العربيّة

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور مراد كامل

علم اللغة أو الفلسفة اللغوية ـ كما اسماه جرجي زيدان ـ علم حديث نوعاً . لقد ظهر علم اللغة الحديث في مطلع القرن التاسع عشر ، وكان مظهره في صورة نحو تاريخي مقارن . ووضحت في هذا القرن خصائص جوهرية للغات الرئيسية التي كانت تستخدمها الحضارات القديمة في العالم القديم ، وتحدد ما بينها من صلة وقرابة . وبالرغم من ذلك فقد ظل علم اللغة على حاله فترة طويلة . وحوالي سنة ١٨٧٠ تأثر علم اللغة بنظريات « داروين » والعلوم الطبيعية ، وأدخل علماء اللغة ـ نذكر منهم « شليشر » ـ على علم اللغة ، مناهج جديدة قائمة على أن طبيعة التغيرات اللغوية هي نفس طبيعة التغيرات المشاهدة في العالم الطبيعي ، بل ذهب بعض العلماء إلى أن اللغات تتغير بفعل قوانين عمياء . وأخذ العلماء في الكشف عن القوانين التي تخضع لها لغة الانسان في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها ، وقواعد تصريفها ، وما إلى ذلك .

وكان لزاماً أن يصل العلماء في تتبعهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها إلى تعبير الانسان الأول ، ومنشئها ، والأسس التي قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوضعية ، وذهبوا إلى أن الظواهر

اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد أو المجتمعات أو تبعاً للأهواء والمصادفات . . وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة . فقد يكون في استطاعة الفرد أو في استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب ، ولكن بمجرد أن يلقي بهذا اللفظ أو بذاك التركيب إلى التداول اللغوي وتتناقله الألسنة يفلت من إرادة مخترعه ويخضع في سيره وتطوره وحياته لقوانين ثابتة لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلاً . وبالتالي ، فليس في قدرة الأفراد أو الجماعات أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يحولوا دون تطورها على الطريقة التي ترسمها قوانين علم اللغة .

ونتج عن المناهج الجديدة التفريق الواضح بين فقه اللغة ـ أي دراسة الوثائق المكتوبة ولغتها ـ وبين علم اللغة الذي يبحث في دراسة اللغة من حيث هي لغة ، مكتوبة أو غير مكتوبة .

هذه هي النتيجة التي وصل إليها العلماء في أواخر القرن الماضي ، والتي دفعت بجرجي زيدان حين استوعبها وألمّ بما كتبه العلماء على اختلاف ألسنتهم بهذا العلم ، أن يقدمها إلى أبناء العربية مطبقاً عليها العربية . . فجاء كتابه في طبعته الأولى سنة ١٨٨٦ ، ثم في طبعته الثانية سنة ١٩٠٤ وفيها تحسينات واضافات ، وفي الثالثة سنة ١٩٢٣ دون تغيير ، رسالة علمية رائعة . وظلت مدة طويلة المرجع الأول في هذا العلم باللغة العربية .

وقد ذكر في مقدمة الطبعة الثانية ، أن موضوع الكتاب البحث التحليلي في : كيف نشأت اللغة العربية وتكونت ، باعتبار أنها اكتسابية خاضعة لناموس الارتقاء العام .

ثم ختم بحثه بكلمة تدل على أصالة في العلم وخلق عالم كريم ، قال : « إن البحث في علم اللغة لا يزال جديداً عندنا يحتاج إلى تمحيص وانتقاد ، فنتقدم إلى أرباب الأقلام أن ينتقدوه ، ونستلفت انتباه أئمة اللغة إلى النظر فيه والتوسع في موضوعه للانتفاع بنتائج أبحاثهم وثمار قرائحهم » .

وفي أوائل هذا القرن ظهرت بشائر ما يذهب إليه علماء اللغة من المعاصرين من أن اللغة بناء . واستطاع « موريس جرامون » و « انطوان مييه » و « جوزيف ڤندريس » أن يثبتوا أن التغيرات الصوتية وغيرها من التغيرات اللغوية لا يمكن القول بأنها مماثلة للتغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي ، كما ذهب إليه علماء اللغة خلال القرن التاسع عشر ، ولكنها تدل على تفاعل بين الدوافع النفسية الفسيولوجية وبين نظام اللغة الذي يطرأ عليه التغيرات . والتغيرات تحدث في الأفراد في اللاشعور أو على هامش الشعور . وقد أرجع « ڤان جينيكن » هذه الحقائق معتمدا على نتائج بحث « بيير جانيه » في التلقائية النفسية . ووضح « مييه » الصفة الاجتماعية للنظام اللغوي ، وبيّن أنها تطابق تعريف « دوركيم » للظاهرة الاجتماعية . فعملية التغير تحدث في الفرد ، ثم تعمم في الجماعة . . أما علة التغير ، فتقع خارج الفرد وتنتمي إلى المحيط الاجتماعي .

وتوصل « جول جييرون » إلى منهج جديد في علم الجغرافية اللغوية ، وبيّن بكل وضوح أن التصور الداروبني للغات واللهجات على أنها كائنات يمكن حصر عددها ، وأنها تتطور تطور النبات والحيوان ، تصور لا أساس له اطلاقاً . فالتطور اللغوي أشد تعقداً من هذا ، وذلك بسبب التفاعل الدائم بين الاتجاهات الخارجية والداخلية . وأدت الآراء الجديدة إلى الاعتقاد بأن الحقيقة الهامة عن اللغة هي أنها تكوّن نظاماً في عناصره المختلفة يعتمد بعضها على بعض ، وبأن هذا النظام لازم لفهم كل من

التغير اللغوي ، واللغة في ذاتها ، والدور الذي تقوم به اللغة في المجتمع . والواقع أن ما يبدو لعقل المتكلم العادي ليس إلا النظام اللغوي ، أما فكرة التغير اللغوي فأمر لا يطرأ له على بال . وأظهر « فرديناند دوسوسور » أهمية الفصل بين هاتين النظريتين : بين اللغة من حيث هي نظام مستقر ، وبين اللغة من حيث هي تغير لغوي ؛ ثم وضح المناهج الخاصة في دراسة كل من النظريتين ، ونبه على ضرورة الفصل بين اللغة باعتبارهالغة وبين الكلام ، أي بين النظام اللغوي الذي تشترك فيه جماعة من الجماعات وبين الاستعمال الفعلي الذي يقوم به المتكلم باللغة لهذا النظام . وذهب أيضاً إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وقال : إن اللغة نظام من العلامات التي تتكون من مسموع ومن تصور يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً . وتتصف هذه العلامات بأنها تحكمية ، أي لا باعث طبيعي عليها ، ولكنها تكتسب قيمتها عن طريق التقابل . وهو لا ينظر إلى اللغة على أنها جوهر بل على اعتبار أنها صورة .

وأدت مناهج العلم الطبيعي إلى دراسة نطق الكلام دراسة دقيقة . . لا عن طريق الأذن فحسب ، ولكن باستخدام آلات خاصة ، وبذلك نشأ علم الأصوات التجريبي . وحاول كثير من العلماء عن هذا الطريق أن يصفوا ويحللوا أكبر عدد ممكن من درجات النطق على اختلافها ودقتها ، تلك التي يجدونها في اللغات واللهجات ، وذلك دون اعتبار لوظيفتها ، وكان « دوسوسور » قد أوضح قبلاً أن أية لغة لا تحتوي إلا على عدد محدود من نماذج الأصوات أو الوحدات الصوتية . وتوصل « تروبتسكوى » بعده إلى تعريف دقيق للوحدة الصوتية على أنها أصغر وحدة للصوت تتخذ للتمييز بين المعاني ، وحاول أن يحدد طبيعة النظم المختلفة للوحدات الصوتية والعلاقات المتبادلة بينها ، وأهمية صفاتها لفهم التغير اللغوي . وبذلك ميز بين علم الأصوات اللغوية ، أي علم

الوحدات الصوتية ، وبين علم نطق الكلام . وكون « هيلمسلف » نظرية دلالية في اللغة على أساس أن اللغة صورة أكثر من كونها مادة . وهو يرمي إلى تعريف اللغة بما ينتفي فيه التناقض ، ويكون بسيطاً وشاملاً . ويرى للوصول إلى غايته أن يستخدم منهجاً يستطيع به تحليل أي نص أو كلمات متتابعة ملفوظة طبقاً لهذه المبادىء ، على أن تكون نتيجة التحليل تكوين النظام الكامن وراء النص ، ووراء أي نص في اللغة المدروسة . ويهدف « هيلمسلف » بهذه العملية الاستدلالية إلى أن يجد منهجاً يمكن تطبيقه على اللغة عموماً . ووضع النقط الرئيسية للتحليل يحدد بها العلاقات القائمة بين العناصر ، ومدى اعتماد بعضها على بعض ، وذلك بتقسيم النص إلى مجموعات يأخذ في تضييق دائرتها حتى يصل إلى الوحدات الصغرى فيها . واللغة عنده مجموعة من العلاقات لا تهم الابانة عنها . . فالقيم اللغوية لا تتأثر بالابانة عن اللغة في الكلام أو الكتابة أو في الاشارات التلغرافية أو في اشارات الصم والبكم ، وإنما هي مسألة حسابية .

ولقي « هيلمسلف » معارضة من اللغويين المعنيين بالتغير التاريخي ، ومن علماء الأصوات اللغوية ، ومن أصحاب نظرية البناء ، فعلماء الأصوات اللغوية وأصحاب النظرية القائلة بأن اللغة بناء خالفوه فيما ذهب إليه بأن الجوهر لا أهمية له في اللغة . وعلى المبادىء الرئيسية التي تقوم عليها نظريات علماء الأصوات اللغوية وجماعة هيلمسلف ، تقوم أبحاث كثير من علماء اللغة في العصر الحاضر . . وقامت مدرسة اللغويين الأمريكية وعلى رأسها « بلومفيلد » و « ادوارد سابير » . وقد ميز « بلومفيلد » بين دراسة اللغة من الناحية التاريخية وبين دراستها من حيث هي مستقرة ، وكون نظرية بنائية في اللغة قائمة على معرفة واسعة بالحقائق اللغوية . و « بلومفيلد » من أصحاب نظرية السلوك الذين ينكرون كل

عمليـة ذهنية ويـذهبون إلى أنـه لا يمكن مـلاحـظة شيء من هـذا القبيـل ملاحظة موضوعية ، ويتجاهلون نتائج البحوث النفسية والطبية الهامة التي ثبتت أمام الاختبار ، وهم يتخلصون من المعنى على قـدر الامكان . وهـو يـرى أن معنى أية صـورة من الصور اللغـوية هـو الحـالـة التي ينـطق بهـا المتكلم بهـذه الصورة ، والأثـر الـذي يحـدثـه في السـامـع . وهكـذا بـدأ « بلومفيلد » من الصور اللغويـة لا من معاني الصـور ، وكوّن عـلى أساس مقـاييس صوريـة خالصـة ، نظامـاً كامـلاً من الـوحـدات الصـوتيـة ومن تحوَلاتها ، ومن الصلات العامة والصور النحوية والصرف وأنواع الجمل . وتتبيـن فائـدة هذا المنهـج عند دراسـة لغة تختلف عن لغـة البـاحث ، وفي دراسة البناء اللغوي . ولكنه لا يصلح حين يطبق على التطور التـاريخي . فـالتغير اللغـوي يبـدأ في فـرد ، أو في طـائفـة قليلة العـدد ، ثم يعمم في الجماعة . وهذه التغيرات تتضمن عملية نفسية فسيولوجيـة هي عادة ذات طبيعة بسيطة ، وأن هذه العملية هي التي تقـدم الأساس الـلازم لتصنيف التغيـرات في الوحـدات الصوتيـة . أما التصنيف الـذي يقوم عـلى أساس مقاييس خارجية تماماً ، فلا يعدو أن يكون تسجيلاً أجوف للحقائق ، وهو لا ينطوي على أي تفسير .

أمـا « ادوارد سابـير » فلم يكن سلوكياً ، بـل دلـل عـلى أن البـاحث اللغوي يجب أن يعول في بحثه على ما يسمى بالـوعي اللغوي ، وبـيّن أن بعض العناصر الهامة للنمـوذج الاجتماعي للسلوك عنـاصر لا شعـورية ، وأن الذي يظهر لعقل المتكلم العادي بشكل لا شعوري متفاوت من حيث الدرجة ، هو الوحدات الصوتية والنظام الذي تكونه أكثر من الاختلافات في نطق الوحدات الصوتية ، أي الاختلافات التي ليس لها أهمية وظيفية . واقترح « سابير » تصنيفاً بنائياً عاماً ممتازاً للنظم اللغـوية والتي يمكن النـظر إليهـا من حيث درجة تـركيب الكلمات ودرجـة استكمالهـا لهيئتهـا ، ومن

حيث الارتباط الآلي الذي تتحد فيه عناصر الكلمات . ثم أكد « سابير » الصفة الاجتماعية للغة دون أن يهون من أهمية العامل الفردي الذي أورد عليه تعليقات قيمة . . فعنده أن اللغة هي في الأرجح أعظم قوة من القوى التي تجعل من الفرد كائناً اجتماعياً لا يمكنه بدون اللغة الاتصال الاجتماعي الدال ، فضلاً عن أن وجود لغة مشتركة هو رمز قوي للتضامن الاجتماعي بين من يستخدمون اللغة ، ولا تقتصر الدلالة النفسية لهذه الحقيقة على ربط لغات خاصة بقوميات ، أو بهيئات سياسية ، أو بجماعات محلية أصغر ، بل تتعدى ذلك . وظل « سابير » متشككاً في مدى اعتماد النموذج الاجتماعي على اللغة واعتماد اللغة على النموذج الاجتماعي . ولم يدخل في حسابه الأقسام الكبرى للصور اللغوية والتي تعرف بأقسام الكلام ، لأن البحث الحديث أظهر أن كثيراً من اللغات لا تميز بين نفس أقسام الكلام التي تميز بينها اللغات الأوروبية مثلاً ، أو أنها تحددها بشكل آخر . وربما لو كانت لدينا مادة كافية ، لأمكن اثبات نوع من التضايف العام بين النظام اللغوي وبين درجة التأليف الاجتماعي .

* * *

يقول « ادوارد سابير » : « يأتي يوم تبدو فيه محاولة التمكن من حضارة بدائية دون الاستعانة بلغة بيئتها محاولة غير جدية ، مثل جهود المؤرخ العاجز عن أن يفهم الوثائق الأصلية للمدنية التي يصفها » والواقع أن الشعور يزداد يوماً بعد يوم عند دارس المدنية بأهمية اللغة لفهم الحضارة حق الفهم . والنظام اللغوي تعبير عن طريقة جماعة من الجماعات في ادراك نفسها وما يحيط بها ، وإن لم يكن هذا التعبير كاملاً . ومن العسير أن نفهم مدنية من المدنيات كل الفهم ما لم نعرف وسيلتها اللغوية في التعبير . ولا يمكن دراسة الانسان ما لم ندرس كيفية تعبيره .

عمليـة ذهنية ويـذهبون إلى أنـه لا يمكن مـلاحـظة شيء من هـذا القبيـل ملاحظة موضوعية ، ويتجاهلون نتائج البحوث النفسية والطبية الهامة التي ثبتت أمام الاختبار ، وهم يتخلصون من المعنى على قـدر الامكان . وهـو يـرى أن معنى أية صـورة من الصور اللغـوية هـو الحـالـة التي ينـطق بهـا المتكلم بهـذه الصورة ، والأثـر الـذي يحـدثـه في السـامـع . وهكـذا بـدأ « بلومفيلد » من الصور اللغويـة لا من معاني الصـور ، وكوّن عـلى أساس مقـاييس صوريـة خالصـة ، نظامـاً كامـلاً من الـوحـدات الصـوتيـة ومن تحوّلاتها ، ومن الصلات العامة والصور النحوية والصرف وأنواع الجمل . وتتبـين فائـدة هذا المنهـج عند دراسـة لغة تختلف عن لغـة الباحث ، وفي دراسة البناء اللغوي . ولكنه لا يصلح حين يطبق على التطور التـاريخي . فـالتغير اللغـوي يبـدأ في فـرد ، أو في طـائفـة قليلة العـدد ، ثم يعمم في الجماعة . وهذه التغيرات تتضمن عملية نفسية فسيولوجيـة هي عادة ذات طبيعة بسيطة ، وأن هذه العملية هي التي تقـدم الأساس الـلازم لتصنيف التغيـرات في الوحـدات الصوتيـة . أما التصنيف الـذي يقوم عـلى أساس مقاييس خارجية تماماً ، فلا يعدو أن يكون تسجيلاً أجوف للحقائق ، وهو لا ينطوي على أي تفسير .

أمـا « ادوارد سابـير » فلم يكن سلوكياً ، بـل دلـل عـلى أن البـاحث اللغوي يجب أن يعول في بحثه على ما يسمى بالـوعي اللغوي ، وبـيّن أن بعض العناصر الهامة للنمـوذج الاجتماعي للسلوك عنـاصر لا شعـورية ، وأن الذي يظهر لعقل المتكلم العادي بشكل لا شعوري متفاوت من حيث الدرجة ، هو الوحدات الصوتية والنظام الذي تكونه أكثر من الاختلافات في نطق الوحدات الصوتية ، أي الاختلافات التي ليس لها أهمية وظيفية . واقترح « سابير » تصنيفاً بنائياً عاماً ممتازاً للنظم اللغـوية والتي يمكن النـظر إليهـا من حيث درجة تـركيب الكلمات ودرجـة استكمالها لهيئتهـا ، ومن

حيث الارتباط الآلي الذي تتحد فيه عناصر الكلمات . ثم أكد « سابير » الصفة الاجتماعية للغة دون أن يهون من أهمية العامل الفردي الذي أورد عليه تعليقات قيمة . . فعنده أن اللغة هي في الأرجح أعظم قوة من القوى التي تجعل من الفرد كائناً اجتماعياً لا يمكنه بدون اللغة الاتصال الاجتماعي الدال ، فضلاً عن أن وجود لغة مشتركة هو رمز قوي للتضامن الاجتماعي بين من يستخدمون اللغة ، ولا تقتصر الدلالة النفسية لهذه الحقيقة على ربط لغات خاصة بقوميات ، أو بهيئات سياسية ، أو بجماعات محلية أصغر ، بل تتعدى ذلك . وظل « سابير » متشككاً في مدى اعتماد النموذج الاجتماعي على اللغة واعتماد اللغة على النموذج الاجتماعي . ولم يدخل في حسابه الأقسام الكبرى للصور اللغوية والتي تعرف بأقسام الكلام ، لأن البحث الحديث أظهر أن كثيراً من اللغات لا تميز بين نفس أقسام الكلام التي تميز بينها اللغات الأوروبية مثلاً ، أو أنها تحددها بشكل آخر . وربما لو كانت لدينا مادة كافية ، لأمكن اثبات نوع من التضايف العام بين النظام اللغوي وبين درجة التأليف الاجتماعي .

❊ ❊ ❊

يقول « ادوارد سابير » : « يأتي يوم تبدو فيه محاولة التمكن من حضارة بدائية دون الاستعانة بلغة بيئتها محاولة غير جدية ، مثل جهود المؤرخ العاجز عن أن يفهم الوثائق الأصلية للمدنية التي يصفها » والواقع أن الشعور يزداد يوماً بعد يوم عند دارس المدنية بأهمية اللغة لفهم الحضارة حق الفهم . والنظام اللغوي تعبير عن طريقة جماعة من الجماعات في ادراك نفسها وما يحيط بها ، وإن لم يكن هذا التعبير كاملاً . ومن العسير أن نفهم مدنية من المدنيات كل الفهم ما لم نعرف وسيلتها اللغوية في التعبير . ولا يمكن دراسة الانسان ما لم ندرس كيفية تعبيره .

ولو تم التعاون بين العلماء للنهوض بعلم اللغة الذي يعتبر من أضبط الدراسات الانسانية ، لوصلوا إلى نتائج هامة في جميع ميادين الفكر الانساني نقول ذلك لأنه بالرغم من الجهود التي يقوم بها علماء اللغة في العالم ، فعلم اللغة لا يزال في أوله ومسائله لا تزال تشغل الأذهان ، تحل حيناً وتتعثر أحياناً . ففي سنة ١٩٤٨ في مؤتمر اللغويين الدولي السادس في باريس ، طرح الأعضاء للمناقشة موضوع الصلات بين علم المفردات وعلم البنية وبخاصة بين علم التنظيم وعلم البنية ، ولم يصل الأعضاء فيها إلى رأي . وتقوم مسألة « هل يقتضي التغيير التام للحالة الاجتماعية لطائفة من الناس تغييراً في بناء لغتهم ؟ » ويكون هذا ، موضوع نقاش في روسيا ، التي تغير مجتمعها في القرن العشرين تغيراً كاملاً واحتفظت اللغة الروسية ببنائها القديم ، ويذهب « ستالين » سنة ١٩٥٠ ، إلى أن اللغة في جملتها لا يمكن أن تعتبر بناء ظاهراً يحدده أساس اقتصادي واجتماعي .



ومن هذا ترى أن علم اللغة لا يزال في حاجة إلى ما دعا إليه جرجي زيدان في أوائل هذا القرن من تضافر جهود العلماء .

وإني لسعيد أن تتاح لي الفرصة لمراجعة هذا الأثر الجليل ، لأني مدين للمؤلف بفضل الأستاذية . . فكان هذا الكتاب أول ما قرأت في علم اللغة ، ولا أزال أنهل من نبعه .

مراد كامل

مقدّمة الطبعة الأولى

بسم الله مفرق اللغات

هذه دراسة أرفعها إلى أهل النظر والتحقيق لينظروا فيها ، فإن أعجبهم مثالها تقدمت إليهم أن يزيدونا من مثلها مما تعم به الفائدة وتشحذ له الأذهان ، فإني عالم أن الموضوع رحب لا تستوعبه إلا المجلدات الضخمة ، وأعلم أيضاً أن في السويداء رجالاً لهم من العلم وسعة الاطلاع في اللغة وغيرها مما يؤهلهم لبسط الكلام في هذا الموضوع بأكثر مما بسطت والاسهام فيه بأكثر مما اسهمت . وربما كان ما استوقفهم إلى الآن عن البحث من الناحية التي بحثت فيها الخوف في أن لا يجدوا من القراء من يقدر لهم موضوع أبحاثهم حق قدره ، ويقبل عليه بما هو أهل له من الأمعان والتروي . .

وربما كان لخوفهم هذا مسوغ يقضي عليهم معه بالتوقف إذا نظروا إلى عائدته المادية ازاء ما يضحون من الوقت أثناء الكتابة والتأليف ، إلا أن أمثال هؤلاء الأفاضل قد لا يعبأون بما يعود عليهم من الفوائد المالية ، وذلك حباً في العلم وتنويراً للأذهان ، ويجتزئون من كل ذلك بما يكون من الفائدة الأدبية لعموم أفراد الهيئة التي هم بينها ، وهم في الغالب يدركون كلا الغايتين ولا تفوتهم إحدى الفائدتين إذا مر عليهم من الزمن ما تتنبه لهم في أثنائه أذهان القراء من مواطنيهم أو غيرهم . وعليه أعود

فأتقدم إليهم أن يزيدونا في هذا الموضوع ، زادهم الحق علماً وخيراً . وأن يؤاخذوني بما وقع مني من الخطأ فيصلحوه وينتقدوني حيث يجدون محلاً للنقد حباً ببيان الحقيقة ، وأكون لهم من الشاكرين . ولا يزعم بي أن أقول ما أقول إيهاماً وتمويهاً فمعاذ الله إلا أن أشكر لأهل فضل وعلم همُّهم كشف الحقائق واجلاؤ ها حق الجلاء من أين أتت . وأحسب لهم عليَّ في ذلك منة يكاد لا يستطاع ايفاؤ ها لأني عالم بقصور باعي وامكان تطرق الخطأ والخلل إلى ما كتبت أو ذهبت إليه كنت لا أرى محل ذلك الآن .

* * *

هذا ولا أنكر أني كتبت ما كتبت على غاية من السرعة ، فلم يتسع لي الوقت الكافي لمزيد النظر والتأمل في مراجعة ما كتبت وتصفيته من شوائب الغفلة والنقصان ، فربما غفلت في مواضع عن ذكر ما كان يهم أو يجب ذكره ، وذكرت في أخرى ما كان جديراً أن لا يذكر أو لا دخل له بالموضوع . وأكثر من ذلك أني تارك الكتاب وهو لم ينجز عن آخره ، ووكلت إلى أحد الخلان مراقبة إنجاز الطبع الأخير والتجليد والتوزيع . وكل ذلك لما تدعوني إليه الدواعي من مزيد السرعة (لأني على شفا رحلة بعيدة الشقة) وفي جميع هذا ما يوجب لي بعض العذر لدى أهل الفضل المحققين الذين رغبت إليهم في المؤاخذة والانتقاد تجلية للحقيقة وتمحيصاً لها . .

وهنا أسأل فضل القراء أن يرمقوا سطيراتي هذه بعين القبول ويوجهوا إليها وجه المقبل ـ لا أقول ذلك حباً في رواج الكتاب هادفاً للربح إنما حباً مني في اطلاعهم على هذه الملاحظات ، فينظروا لمأخذي الذي أخذت به في اللغة فأعلم إن كنت أصبت أم أخطأت ، أو كان كلا الاصابة والخطأ معاً ، مع بيان مواقع كل منهما . وأتوسل إلى الحق أن ترجح مواقع

الاصابة علـى مواقـع الخطأ ، وأن يفيـد الكتاب بعض الافـادة . . أفله في تـوجيه الأنـظار إلى هذه المبـاحث من الناحيـة التي أخذت بهـا وهو حسبي وإليه أنيب . .

١٥ يوليو سنة ١٨٨٦

مقدّمة الطبعة الثانية
سنة ١٩٠٤

لم يخطر لنا يوم نشرنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٨٦ ، إنه سيأتي يوم نعيد طبعه فيه ، لأن موضوعه فلسفي جديد لا يرتاح إليه إلا فئة قليلة من خاصة الأدباء وذوي الاطلاع ممن يلتذون بالأبحاث العقلية الفلسفية ، وهم قليلون في كل زمان ومكان وخصوصاً في بلادنا لقرب عهدها من العلم والأدب . . فكيف بالأبحاث الفلسفية اللغوية وهي جديدة حتى في لغات الافرنج . فنفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب يدل على تكاثر الخاصة من أهل هذا اللسان . أما أدباء الألسنة الأخرى فأنهم أحلوا هذا الكتاب محل القبول منذ أول ظهوره ، وكنا قد بعثنا منه أمثلة إلى بعض جمعيات المستشرقين في أوروبا فجاءتنا كتبهم وملؤها التنشيط والاستحسان وانتخبتنا « الجمعية الاسيوية الايطالية » يومئذ (سنة ١٨٨٧) عضواً عاملاً فيها من أجل هذا الكتاب ـ إذ لم يكن لنا مؤلف سواه ـ وعنيت مجلة « مكتب » العلمية التي تصدر في الاستانة بنقله إلى اللغة التركية ونشرته تباعاً في أعدادها لسنة ١٨٩٣ وما بعدها على أن تنشره بعد ذلك في كتاب .

وموضوع هذا الكتاب البحث التحليلي في كيف نشأت اللغة العربية وتكونت ، باعتبار أنها اكتسابية خاضعة لناموس الارتقاء العام . ومدار البحث على خمس قضايا ونتيجة وهي :

القضية الأولى : إن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هي تنوعات لفظ واحد . .

القضية الثانية : إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها (كحروف الجر والعطف وأحرف الزيادة ونحوها) إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها .

القضية الثالثة : إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية .

القضية الرابعة : إن جميع الألفاظ المطلقة كالضمائر وأسماء الاشارة ونحوها قابلة الرد بالاستقراء إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ.

القضية الخامسة : إن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ ، وضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية .

النتيجة : إن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول قليلة احادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً .

* * *

والكلام في ذلك كله مؤيد بالنواميس الطبيعية ، ومسند إلى عوامل لا تزال عاملة في لغتنا إلى هذا اليوم .

وقد أدخلنا في هذه الطبعة تحسينات ذات بال خطرت لنا بعد ظهور الطبعة الأولى . وأضفنا إليها فصولاً كاملة في أصل الكتابة والطريقة الطبيعية لاختراعها ، وأصل الخطوط المعروفة الآن في أقطار العالم المتمدن ، وفصلاً في كيف تعلم الانسان العد ، وكيف توصل إلى اختراع الأرقام ، وأصل الأرقام الهندية ، وكيف تنوقلت في العالم .

والبحث في فلسفة اللغة لا يزال جديداً عندنا يحتاج إلى تمحيص وانتقاد ، فنتقدم إلى أرباب الأقلام أن ينتقدوه ، ونستلفت انتباه أئمة اللغة إلى النظر فيه والتوسع في موضوعه للانتفاع بنتائج أبحاثهم وثمار قرائحهم .

وسنشفع هذا الكتاب بكتاب آخر في تاريخ اللغة العربية باعتبار أنها كائن حي نامٍ خاضع لناموس الارتقاء العام ، نقصر الكلام فيه على ما لحق اللغة من التنوع والنمو والارتقاء في ألفاظها وتراكيبها بعد أن تم تكونها وصارت ذات قواعد وروابط . ينطوي تحت ذلك النظر في ما دخل هذه اللغة من الألفاظ الأعجمية والتراكيب الغريبة على اختلاف العصور من الجاهلي فالأسلامي إلى هذا اليوم ، ونأتي بأمثلة مما دخلها أو تولد فيها من الألفاظ الإدارية والعلمية والفلسفية والطبية والدينية واللغوية على اختلاف أدوارها . .

والله المستعان أن يجعل أقوالنا أقرب إلى جانب الاصابة وهو حسبنا .

اللغـــــة

اللغة أصوات يعبر بها[1] كل قوم عن اغراضهم ، وقد تعددت أنواع الأصـوات وطرق التعبـير بتعدد الأمم واختـلاف أصواتهـا . . فنشأت عن ذلك لغات تفوق الآلاف عداً[2] ، متفاوتة بياناً ومتباينة دلالة ولفظاً ، فإن من الأصوات ما هو عادي عند هذه الأمة وشاق التلفظ به عند تلك ، ممـا يلاحظه كل منا عند من حاول دراسـة اللغة العـربية من أبنـاء المغرب . . فقد قل بينهم من استطاع بعد العناية الشديدة لفظ الحاء أو العين أو الغـين أو الضاد وما شاكلها ، وكثيراً ما يعاني أحدنـا في لفظ ج غ أو خ اليونـانيين أو ف أو ب الرومانيين . ومن القبائل المستوطنـة في أواسط افريقيـا من لا وجـود للمقـاطـع الشفـويـة « ف ب م و . . . » في لغتهم . وبعض هنـود

---

(١) ليست اللغة مجرد أصوات يعبر بها فحسب ، بل تمتاز بطائفـة من المراكـز المخية التي تشـرف على مختلف مظاهر اللغة منها (مركز اصدار الألفاظ ، مركز حفظ الكلمات المسمـوعة ، مـركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية وغيرها)

(٢) قدر « اميبه وكوهين » عدد اللغات الحية في العالم - في كتاب لغات العالم (طبعة ثانية ١٩٥٢) - بما يتراوح بـين ٢٥٠٠ لغة و ٣٥٠٠ لغـة . وهذا يتفق مـع رأي « جراي » في كتـابة أصـول اللغة (طبعة ثانية ١٩٥٠) ومن بين هذه اللغات ما يقتصر التحدث بها على عدد قليل من الناس نسبياً في حين ان لغات اخرى يتحدث بها ملايين من الناس.
وعد « تيسنير » (سنة ١٩٢٨) ٢٩ لغة يتكلم كلا منها أكثر من عشرة ملايين ، منهـا ٢٥ لغة لها أهمية من حيث انتشارها ونتاجها المدون .

كولومبيا يستحيل عليهم التلفظ بهذه المقاطع « ب ف ج د ب و » وأكثر أهالي استراليا لا يستعملون المقاطع الصفيرية « س ز ش ث ص ظ » والنيوزيلانديون في غنى عن جميع هذه الحروف « ب س د ف ح ج ل ق ض و ي » واللغة المصرية القديمة « الهيروغليفية » خالية من هذه المقاطع « ب ج د ز ظ ض »[١] .

وجملة القول أن لهذه الاختلافات آثار تشير إلى ما هي عليه اللغة من التعرض للمؤثرات الخارجية التي طالما غيَّرت ولم تزل تُغيِّر في سائر أحوالنا عملاً بناموس الارتقاء العام . وهذا التباين اللفظي يُشاهد بين أفراد الأمة الواحدة المتكلمين بلغة واحدة لعلة طبيعية في أعضاء النطق .

فيظهر مما تقدم أن الأحرف « ت م ن هـ» مما يسهل لفظه على كل ناطق بدليل وجودها في جميع اللغات على اختلاف أنواعها (إلا الهاء في اليونانية) . على أن النظر في طريقة التلفظ بها يبين كونها طبيعية ، فإن الهاء لا تكلف في لفظها مطلقاً لأنها تحدث بواسطة الزفير الاعتيادي والفم مفتوح . والتاء بإيقاف الزفير بالصاق اللسان بما وراء القواطع . أما الميم فبإخراج الصوت من الأنف والفم مجوف والشفتان مطبقتان . والنون تلفظ كالميم بالصاق اللسان بسقف الحلق وفتح الفم .

أما التفاوت الحاصل في دلالة هذه الأصوات ومركباتها ، فقد نشأ عنه تكاثر اللغات وتعدد اللهجات فحسبوا منها آلافاً ولم ينتهوا إلى جميعها ، غير أن فيلولوجي هذا العصر قسموها باعتبار درجات تهذيبها إلى « مرتقية » و« غير مرتقية » . وهذه الأخيرة تتضمن أدنى اللغات بياناً وأبسطها ألفاظاً ، منها اللغات الزنجية التي يتفاهم بها قاطنو جنوبي افريقيا . والأمريكية التي يتكلم بها هنود أمريكا . والشمالية الشرقية

---

(١) الباء موجودة ، والجيم موجودة بنطقها المصري فقط ، والدال موجودة .

الاسيوية وهي لغات القاطنين في جزيرة سغالين وشبه جزيرة كمشتكا وما جاورهما . والصينية وهي لغات الصين ومن أهم صفاتها أن ألفاظها احادية المقطع لا فرق فيها بين الأسم والفعل والحرف . فاللفظة الواحدة تكون فعلاً أو اسماً أو نعتاً باضافة ألفاظ أخرى ذات معان مستقلة إليها . والحامية ومنها المصرية القديمة والحبشية القديمة والبربرية[1] . وقد عد بعض اللغويين المصرية من اللغات الشرقية[2] لأنها تقرب منها في بعض أحوالها ، وقال آخرون : لا بل هي أمها ، وقد دعيت بالحامية لاعتقادهم أن المتكلمين بها من نسل حام بن نوح .

أما المرتقية فتمتاز بسعة نطاقها واحتوائها على أكثر ما يحتاج إليه الانسان من أنواع التعبير ، ومنها لغات العالم المتمدن ، وتُقسم باعتبار قابليتها للتصريف والاشتقاق إلى « متصرفة » و « غير متصرفة »[3] . وهذه

---

(١) اللغات الحامية تنقسم إلى أربع مجموعات كبرى :
١ ـ المصرية القديمة ـ القبطية ب ـ الليبية ج ـ البربرية د ـ الكوشية أما اللغة الحبشية القديمة (الجعز) فهي من اللغات السامية .

(٢) يقصد المؤلف باللغات الشرقية ، اللغات السامية .
واللغة المصرية القديمة من المجموعة الحامية . وقد ظن بعض العلماء أنها تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية لبعض صفات مشتركة بينها وبين اللغات السامية . ومما لا شك فيه أن هناك صفات مشتركة بين مجموعتي اللغات السامية واللغات الحامية ، ولهذا يعدمها علماء اللغة حين يقسمون لغات العالم مجموعة واحدة يطلقون عليها : الحامية ـ السامية .

(٣) حاول علماء اللغة أن يرجعوا اللغات إلى مجموعات ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . . ذهب بعضهم ـ ومنهم « شليجل » ـ إلى تقسيم اللغات من ناحية التطور والارتقاء إلى ثلاث مجموعات ـ تختلف درجة رقي كل منها ، وتمثل كل منها مرحلة خاصة من المراحل التي مرت بها اللغة وهي في سبيل تطورها : اللغات غير المتصرفة أو العازلة ، واللغات اللصقية أو الوصلية ، واللغات المتصرفة أو التحليلية .
فاللغات غير المتصرفة أو العازلة تمتاز من ناحية علم البنية بأن كلماتها غير قابلة للتصرف لا عن طريق تفسير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل . وكل كلمة فيها تقوم على مقطع واحد وتلازم شكلاً واحداً ، وهي قائمة بذاتها تدل على معنى ثابت لا يتغير . وتمتاز من ناحية علم التنظيم وبعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة ، تدل على وظيفة كل جزء منها وعلاقته بما =

= عداه من الاجزاء ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقتها ببعضها من ترتيبها أو من سياق الكلام . وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و « بالعازلة » لأنها تعزل اجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تظهر بما يربطها من علاقات .

أما اللغات اللصقية أو الوصلية فتمتاز من ناحيتي علم البنية وعلم التنظيم بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة يشار إليهما بحروف تلصق به . وتوضع هذه الحروف أحياناً قبل الأصل فتسمى « سابقة » وأحياناً بعدة فتسمى « لاحقة ». وبعض هذه الحروف السابقة أو اللاحقة ليس لها دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان في الأصل كلمات ذات دلالة ، ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا لتساعد على تغيير المعنى الأصلي الذي تدخل عليه أو للاشارة إلى علاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض . وسميت هذه اللغات « باللصقية » أو « الوصلية » للطريقة التي تتبعها حيال الأصل ، إذ تلصق به حروفاً زائدة عن حروفه الأصلية لتوضيح المعنى المقصود منه أو للاشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة .

أما اللغات المتصرفة ، فتمتاز من ناحية علم البنية بأن معاني كلماتها تتغير تبعاً لتغير البيئة ، وتمتاز من ناحية علم التنظيم بأن أجزاء الجملة تصل بينها روابط قائمة بذاتها تدل على مختلف العلاقات .

وسميت «بالمتصرفية» لتغير أبنيتها بتغير المباني. و « بالتحليلية » لتحليلها أجزاء الجملة وربطها بروابط تدل على العلاقات . هذا ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الانسانية في مبدأ نشأتها كانت غير متصرفة ، ثم ارتقت إلى لصقية ، ولم تصل إلى حالة المتصرفة إلا في آخر مرحلة قطعتها في هذا السبيل . غير أن بعض اللغات قد وقفت في نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى أو لم تتجاور المرحلة الثانية . ويستدل اصحاب هذا الرأي على صحة نظريتهم بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الدولية .

وقد اقام علماء اللغة من المحدثين الادلة على فساد هذا التقسيم، فإن هناك لغات لا تدخل تحت قسم من هذه الأقسام الثلاثة . وقد تدخل تحت قسمين منها أو تحت الأقسام الثلاثة . وكذلك ظهر خطأ هذا التقسيم في أنه لا يدل على مرحلة تطور اللغة من غير المتصرفة إلى اللصقية إلى المتصرفة كما يريد أصحاب هذا التقسيم . فإن المقطع الواحد في اللغة لا يدل على المرحلة الأولى فيها ، كما نعرف ذلك من اللغة الصينية مثلاً . وكذلك نجد في اللغات المتصرفة استعمالات وصلية . ونجد عند بعض الشعوب البدائية مثل سكان الاندمان (في المحيط الهندي) استعمالات لصقية .

ووجد المحدثون من علماء اللغة أن الاساليب الثلاثة توجد مجتمعة في كل لغة ، فنظروا إليها من ناحية أنها أساليب مستخدمة في جميع اللغات ، وليست مجموعات لغوية متميزة . ثم وجهوا دراستهم إلى تبويب اللغات بحسب صلات القرابة التي تجمع بين كل فصيلة منها ، =

القاطنون بين آخر حدود النمسا الشرقية وآسيا الصغرى ، فالتتر إلى ما وراء أواسط آسيا وشمالاً إلى الحدود الشمالية لسيبيريا . ومنها أيضاً اللغات المنغولية والتنقاسية والاوغرانية .

ومن أهم صفات اللغات المرتقية « غير المتصرفة » أنها مؤلفة من أصول جامدة لا تقبل التغيير في بنائها مطلقاً ، وإن الاشتقاق يقوم فيها بالحاق أدوات لا معنى لها في نفسها في آخر تلك الأصول ، وهذه تبقى بدون تغيير . مثال ذلك لنا في التركية « ياز » وهو الأصل الدال على الكتابة فيصْيغون منه فعلاً ماضياً بالحاق « دى » في آخره ، فيقولون

= فأخذوا في دراسة كل لغة على حدة دراسة دقيقة ، وراعوا في اثبات القرابة بين اللغات المختلفة قواعد اللغة التي هي العامل الأول في اثبات القرابة بين لغات الفصيلة الواحدة ثم المفردات .

وشرع « مكس مولر » في تقسيم لغات العالم إلى ثلاث فصائل : الهندية الأوروبية ، السامية الحامية ، الطورانية .

وكانت الأسس التي بنى عليها هذا التقسيم هي أن يجمع أفراد كل فصيلة تربطها صلات قرابة لغوية ، أي تتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل وما إلى ذلك ، كما تتكون من الشعوب الناطقة بها مجموعة انسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ، وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وقد كان القسم الثالث من هذه الأقسام ـ وهو الذي أطلق عليه « مكس مولر » اسم الفصيلة الطورانية ـ يضم طائفة من اللغات الاسيوية والاوروبية التي لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين . فالفصيلة الطورانية ليست اذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذا الاصطلاح ، أي مجموعة من اللغات ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هي لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية هي عدم دخولها في احدى الفصيلتين السابقتين . وكذلك لم تدخل تحتها جميع اللغات الخارجة عن الفصيلتين السابقتين ، بل قصرت على طائفة منها وهي بعض اللغات الاسيوية والأوروبية .

ولما كان هذا القسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقي من لغات العالم ، فقد عدل المحدثون من علماء اللغة منذ أوائل هذا القرن عن استخدام مصطلح التقسيم الثالث أي اللغات الطورانية ، وعمدوا إلى ما بقي من اللغات الانسانية خارجاً عن الفصيلتين الهندية والسامية الحامية ، فقسموه إلى فصائل تجمع أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، كما فعل « مكس مولر » في قسميه الأول والثاني .

وقامت جماعة علم اللغة بباريس بتقسيم لغات العالم على هذا الاساس في موسوعتها « لغات العالم » إلى احدى وعشرين فصيلة .

« يـازدى » كتب ثم إذا أرادوا الماضي السـابق يضيفـون « دى » أخـرى فيقولون « يازديدى » أي كـان قد كتب . وإذا أرادوا الجمـع أضافـوا أداته « لر» فقالوا « يازديدلر » كانـوا قد كتبـوا ثم إذا أرادوا النفي أدخلوا أداته بين الأصل وما أضيف إليه ، فقالوا «يازمَديديلر» أي ما كانوا قـد كتبوا . وهكذا بين طلب وتمن واستفهام ، بحيث تبلغ هذه الالحاقات العشرة عداً مع بقاء الأصل الفعلي على بنائه في أول اللفظ .

واللغـات المتصرفـة تمتاز بقبـول أصولهـا التصريف الحـاقاً وادراجـاً ، وتقسم إلى طائفتين عظيمتين : ١ ـ **الطائفة الآريـة** : أو الهنديـة الأوروبية وتـدعى أيضـاً « اليـافثيـة »(١) نسبـة إلى يـافث بن نـوح ، وتقسم إلى

---

(١) الهندية الأوروبية : تشمل هذه الفصيلة ثماني طوائف من اللغات :

١ ـ اللغات الهندية ـ الايرانيـة أو اللغات الاريـة ، وتشمل شعبتـين : شعبة اللغـات الهنديـة (السنسكريتية والبراكريتية واللغات الهندية الحديثة الخ) . وشعبة اللغات الايرانيـة (الفارسيـة القديمة والزند والبهلوية والفـارسية الحـديثة الكـردية والاسيتيـة والافغانيـة الخ) ولكثـرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتـين عدهمـا علماء اللغة طـائفة واحـدة سموهـا طائفـة « اللغات الهنـدية الايرانية » أو طائفة « اللغات الارية » فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية الأوروبية .

٢ ـ اللغات الارمنية .

٣ ـ اللغات الهيلينية (اليونية الاتكية ، والدورية ، والايولية ، واليونانية الحديثة الخ) .

٤ ـ الالبانية .

٥ ـ اللغات الايطالية : الاسكية ، والامبرية السمنية ، واللاتينـة ، والرومـانية وهي المتفـرعة من اللاتينية (الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية ولغة رومانية الخ) .

٦ ـ اللغابت الكلتية (كان يتكلمها شعوب الكلت وبقي منها آثار في لهجات محلية بارلنده وويلز والبريتون بفرنسا)

٧ ـ اللغـات الجـرمـانيـة وهي ثـلاث شعب : شعب الجـرمـانيـة الشرقية وهي القـوطيـة ، وشعبة الجرمانية الشمالية وهي لغات آيسلنده والدانمارك والسويد والنروج ، وشعبة الجرمانية الغربية وتشمل : الانجليزية السكسونية والانجيليزية الحديثة والهولندية واللغات الالمانية الخ .

٨ ـ اللغات البلطية السلافية وتشمل شعبتين : شعبـة اللغات البلطيـة وهي الليتوانيـة والليتية والبروسية القديمة ، وشعبـة اللغات السـلافية وهي السـلافية القـديمة ، والـروسية والبولونيـة والتشكية والسربية الكرواتية والبلغارية .

« جنوبية » وهي لغات جنوبي آسيا منها السنسكريتية وفروعها الهندية . والفارسية والأفغانية والكردية والبخارية والأرمنية والاوستية . و« شمالية » ومنها لغات أوروبا وتقسم هذه إلى كلتية ، ومنها اللغات المستعملة في جزائر بريطانيا إلا انجلترا . وايطالية ومنها اللاتينية وفروعها لغات فرنسا وايطاليا واسبانيا والبرتغال . وهيلينية ومنها اليوناني القديم والحديث . وونديه ومنا لغات روسيا وبلغاريا وبوهيميا . وتيوتونية وتتضمن لغات انجلترا وألمانيا وهولندا والدانمارك وايسلاندا .

ومن الصفات المميزة للطائفة الآرية أنها مؤلفة من أصول قابلة التصريف أدراجاً ، وأن الأشقاق فيها يقوم باضافة أدوات معظمها ذات معنى في نفسها ، وهذه الأدوات تلحق غالباً في آخر الأصل وأحياناً في أوله مثال ذلك في الانجليزية «Thank» شكر ومنها «Thankful»متشكر أو شكور أو كثير الشكر ، ثم «Unthankful» غير متشكر أو غير شاكر ، ثم «Unthankfulness» عدم تشكر أو عدم شكر . ومثلها «Capable» كاف أو قادر و «Incapable» غير كاف أو غير قادر ، و «Incapability» عدم كفاءة . وهكذا في سائر التصاريف وعليه تجري سائر اللغات الآرية .

٢ ـ الطائفة السامية : نسبة إلى سام بن نوح واشارة إلى كون[1] القسم الأعظم من المتكلمين بها هم من نسله ، وتتضمن ما يسمى أحياناً باللغات الشرقية . وهي بوجود اللغة العربية بينها تُعد من أرقى اللغات بياناً وأوسعها نطاقاً وأدقها تعبيراً ، وتمتاز بكونها الحافظة لأقدم التواريخ أعني التوراة مكتوبة بالعبرانية . ومن المعلوم أن التمدن نشأ أولاً بين

---

(١)فصيلة اللغات السامية تنقسم جغرافياً إلى شمالية وجنوبية ، والشمالية تنقسم إلى شرقية وغربية . . فالشرقية هي اللغة الاكدية (الاشورية والبابلية) والغربية تشتمل على اللغة الاجريتية (لغة نقوش رأس شمرا)، والكنعانية (الفينيقية والمؤابية والعبرية والارامية). أما القسم الجنوبي فيضم اللغة العربية ولغة نقوش بلاد العرب الجنوبية واللغات السامية الموجودة في بلاد الحبشة .

المتكلمين بها كالبابليين والاشوريين[1] والفينيقيين وغيرهم . وهي تقسم إلى ثلاثة أقسام[2] :

---

(١) اتفق العلماء منذ القرن الثامن عشر على تسمية اللغات في منطقة الشرق الأدنى ، والتي تدل قرابتها على أن هناك لغة اشتقت منها كل هذه اللغات ، باللغات السامية ، وهي تسمية اصطلاحية ، فلا توجد أمة تسمى بالسامية وقد اعتمد العلماء في هذه التسمية على ما جاء في سفر التكوين من أن أولاد نوح هم سام وحام ويافث .

(٢) البابليون والاشوريون ويعرفون بالاكديين لم تعرف لغتهم إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين تمكن العلماء من قراءة ما وجد من نقوش في العراق . والاكديون من الشعوب السامية التي تركت الجزيرة العربية واستقرت بالعراق ، وكانت حركتهم هي الحركة الأولى لتجولات العصر السامي . . بدأت في الألف الرابع قبل الميلاد ووصلت إلى الالف الثاني ثم استقرت في العراق . وكان سكان العراق قبل دخول الساميين من الشوميريين الذين استقروا في العراق منذ الالف الخامس قبل الميلاد ولا نعرف من أين جاءوا .

في حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م قامت في العراق مملكة أكَدْ السامية وكان أهم ملوكها سرجون الاول ، واتسعت مملكته بفضل فتوحه حتى شملت العراق والجزيرة والشام . . وكانت مملكته أول مملكة شرقية عرفت في الشرق الادنى . ويظهر أن مدينة بابل لم تؤسس إلا حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م . وكان مؤسسها أو من أوائل ملوكها من عرف في النقوش البابلية باسم حمورابي . . وكانت دولته من اظهر ما عرفناه من الحضارة العراقية السامية ومن ابتداء الالف الثاني قبل الميلاد ، جاءت أمم غير سامية من الشرق ـ وهم الكشى ـ وخربوا بابل ، وكان ذلك سبباً في انحطاط الحضارة السامية البابلية في العراق وفي المنطقة التي تسمى ما وراء النهر ، في الموصل ونينوى مملكة الاشوريين . وفي نفس الوقت الذي انحطت فيه الحضارة البابلية ابتدأت حضارة سامية اشورية . فالفرق بين البابليين والاشوريين فرق جغرافي أولاً ، فقد كان البابليون في الجنوب والاشوريون في الشمال . وفي أثناء الالف الثاني قبل الميلاد ، انتشر الاشوريون في العراق كله وإلى الغرب في الشام، ثم اتصلوا بالمصريين وحاربوهم. وكانت فلسطين هي الميدان الذي تدور فيه الحرب بين المصريين والاشوريين . وكان للاشوريين شأن كبير في الشام وآسيا الصغرى والبلاد الغربية من الالف الأول قبل الميلاد إلى انقراض الدولة في القرن السابع قبل الميلاد . وأعقبها ما نسميه بالدولة البابلية الحديثة مدة قرن واحد ، ثم تلتها دولة الفرس التي نسميها بالكيانية . وفي أثناء القرن الرابع قبل الميلاد فتح الاسكندر الشرق الادنى ، وانهى بذلك تاريخ العراق السامي . .

أما اللغة الاكدية التي كتبت بالخط الاسفيني والذي أخذته من الخط الاسفيني الشوميري ، فقد اختفت لهجاتها . . فالنقوش التي كتبت قبل حمورابي تغاير لغتها ما كتب بعده ، واللغة البابلية تخالف الاشورية في بعض خصائصها . ونرى أن الاشوريين استعمروا آسيا الصغرى =

الأول - الآرامية : وفرعاها السريانية والكلدانية(١). فالآرامية هي

= في أوائل الالف الثاني قبل الميلاد ، وكانت مستعمراتهم التجارية في الشام وآسيا الصغرى ، وقد وجدنا لغة النقوش التي عثر عليها في تلك الجهات تخالف في خصائصها اللغوية ما وجدناه لدى البابليين أيام حمورابي .

وكانت الاشورية حين امتدت الدولة في الالف الثاني قبل الميلاد في الشرق الادنى لغة ثقافة ولغة دبلوماسية ، فقد وصلتنا مكاتبات بين أمراء الشام حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م وبين جميع ملوك الشرق الادنى ، وقد عثر على ٢٥٠ خطاب في مصر في تل العمارنة . . كل ذلك باللغة الاشورية والخط الاسفيني ، وكان من أثر انتشار الثقافة الاشورية والخط الاسفيني في الشرق والغرب ، أي من العراق إلى آسيا الصغرى ، أن كتب الحيثيون - ولغتهم هندية أوروبية - وكذلك الفينيقيون في الشام ، بالأشورية .

هذا وقد وصلنا الكثير من النصوص الادبية ، فقد كانت المعابد والهياكل مركز التدوين ومهد الحضارة ، وكان أكثر الكتاب من الكهنة . والحضارة البابلية قبل كل شيء حضارة تشريعية تظهر في القوانين التي سنها حمورابي سنة ٢٠٠٠ ق . م وقد وصلنا الكثير من العقود التجارية والمسائل الاقتصادية والمعاملات مما ساعدنا على معرفة نظام العراق الاقتصادي قديماً ، وهو يبين لنا صلة الوضع الاقتصادي الآن في العراق بالوضع القديم .

أما النصوص في الادب والدين ، فقد وصلنا كثير من المزامير الدينية ، ثم ملاحم عرفنا منها ملحمة « جيلجمش » نرى فيها كيف حاول هذا الملك أن يحصل على الحياة الابدية ، وفشله في ذلك . وقد جاء في فصل منها قصة الفيضان الكبير (الطوفان) وهي تشبه إلى حد كبير قصة الطوفان التي وردت في التوراة . وهناك ملحمة أخرى تصور تكوين العالم الذي أبدعه الالهة وكيف أن اله بابل « مردوك » حارب الهة البحار « تهامة » فقتلها وخلق من جسدها العالم .

وملحمة ثالثة « لعشتر » وغير ذلك من الملاحم . ووجدنا عند البابليين آثاراً أخرى تدل على عنايتهم بعلم النجوم والعرافة والسحر ، وقد تبينا أن الكثير مما عند أمم الشرق والغرب منه يرجع إلى البابليين .

(١) اللغة الارامية : هي لغة الارامين - وهم ثالث فرع نبت في شجرة الأمم السامية - أي الحركة الثالثة من تحولات العنصر السامي ، وكان خروجهم من جزيرة العرب حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . كان أول ذكر لهم في نصوص أسفينية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهم يذكرون فيها على أنهم منتشرون في الصحراء الواقعة غربي ما بين النهرين ، وإنهم كانوا في أول أمرهم قبائل رحلاً ينتقلون في البادية - كالعبريين وسائر الامم السامية - بين نجد في الجنوب ، وحدود الشام في الشمال ، ونهر الفرات في الشرق ، وخليج العقبة في الغرب . وكانت ظروف الصحراء تضطرهم إلى الالتجاء إلى الحضر في بعض الأحيان فيدخلونه مغيرين ، وقد استطاعوا في احدى غاراتهم أن يكونوا امارة بين بابل والخليج الفارسي عرفت باسم كلد ، ومنها أشتق اسم الكلدانيين . وبعد سقوط دولة الميتيني حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م =

لغة بابل القديمة الباقية آثارها مكتوبة نقشاً على بقايا بابل وآشور بـالأحرف

= دخـل الاراميون مـا بـين النهـرين ، وعـرفـوا بـاسم « آرام نهرايم » أي آرام النهـرين ، وكـان تغلغلهم في هـذه الارجاء قـد سبق سقوط دولـة الميتيني . وترجـع هجرة قبيلة ابـراهيم الخليل ـ من «أور» في بلاد الكلدانيين إلى حران ـ إلى واحدة من هذه الهجرات .

أما في غربي الفرات فقد أغار الاراميون على الشام وتوغلوا فيها في الـوقت الذي كـان الصراع فيه قائماً بين الدويلات الكنعانية ، وتمكنوا من الوصول إلى شمال الشام وكونـوا دويلات عـدة ارامية صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، ومنها امارة سمأل بـين انطاكيـة ومرعش ، ومكـانها الآن بلدة زنجرلي وفي أواخر القرن العاشر قبل الميـلاد استولى الاراميـون على دمشق وأسسـوا فيها مملكة كان لها دور مهم في تاريخ ذلك الحين ، وبخاصة في محاربة الفينيقيين والاسرائيليـين والتغلب عليهم ، وكـذلـك لعبت دوراً مهـماً في شؤون التجـارة . وحملت قـوافـل الاراميـين التجارة بين المراكز المختلفة مثل دمشق وحماه وحلب إلى بلاد نهر الفرات .

وكانت تدمر في عصور متأخرة مـركزاً من هـذه المراكـز . وتدمـر واحة في صحـراء الشام بـين دمشق ونهر الفرات كانت محطاً كبيراً للقوافل ، واكتسبت لذلك مركزاً تجارياً ممتازاً ، وبخاصـة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد وسنة ٣٧٣ ميلادية ، حين خربها أوريليوس . وقـد عثرنـا على عدد من النقوش التدمرية ـ وهي لهجة ارامية ـ تصور لنا حضارة الأقوام الذين استـوطنوا هـذه الجهة . وقد وجدت أكثر هذه النقوش في مدينة تدمر ، ووجـد الباقي في الـطيب بالقـرب من تدمر ، وكذلك في افريقية وروما والمجر ورومانيا وانجلترا وكان أهالي تدمـر بدوا من أشـراف الاراميـين . والغالـب أن النقـوش التي وجدت في افـريقية وفي البـلاد الأوروبية هي من كتـابة التجار والجنود التـدمريـين وأكثرهـا من كتابـات القبور والتشـريف وهي مكتوبـة بلغتين : أمـا اللاتينية والتدمرية وهي الأكثر ، وأماالبونانية والتدمرية ، ولكنها كانت تشتمل في أكثر الأحيان على اسم الصانع الذي قام بعمل النقش .

وكانت قوافل الاراميين تلتقي في شمـال العرب بـالمعينيين والسبئيـين سكان اليمن ، وكـذلـك باللحيانيين والثموديـين من سكان شمـال بلاد العـرب . وكانـوا ينقلون ما تحمله قـوافلهم من أفـاويه وحجـارة كريمـة إلى المراكـز التجاريـة في الشمال . وأكـثر هؤلاء الاراميـين شهـرة هم النبط . ومملكة النبط عرفت منذ القرن الثالث قبل الميـلاد ، وازدهرت فيـها بين القـرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد ، وكـانت عاصمـة دولتهم في وادي موسى بـالقرب من معـان ، ولكنا لا نعرف بالضبط الاسم الذي كـان يطلقـه النبط عليها لأنـه لم يرد في كتـاباتهم ، وكـان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم « بترا » أي الصخرة وهي ترجمة اسمها « سلع ». وكـانت قصبتهم الجنـوبية الحجـر وتعرف الآن بـاسم مدائن صـالح . وكـان نبط البتراء وبصـرى هم الصلة بـين بـلاد العـرب والغـرب ، وكـان منهم أحـد أبـاطـرة الـرومـان وهـو فيليب العـربي (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) وكانت للنبط مملكة قوية يخشاها اليهـود وبقية أمم الشـام حتى أهل رومـا ، =

الاسفينية والانبارية . والكلدانية هي هذه بعد أن لعبت بها أيدي الـزمن

= وكان ملك النبط يملك على دمشق فترة من الزمن ، ولكنه لم يتخذها قصبة له لبعدها عن مركز المملكة .

ولما كان أهل روما يخشون أن يزداد فيها نفوذ أحد غيرهم ، وخافوا أن يبسط النبط سلطانهم على المشرق كله ، أرسل امبراطور روما جيشاً لمحاربتهم أمر عليه كورنيليوس بلما ، فخرب مملكة النبط سنة ١٠٦ ميلادية (تعرف بخراب بصرى ولا نزال نقول في تعبيرنا خطأ بعد خراب بصرة) . وقد وجدت نقوش نبطية ـ وهي لهجة ارامية ـ في البتراء وبصرى وتيماء والحجر ، وفي شرق الاردن ودمشق وصيدا وبعض أماكن من جبل الدروز . وكذلك وجدت نقوش منها في ايطاليا . وأغلب هذه النقوش عثر عليه في المقابر ، ومنها ما نقش بالدقة فوق أبواب المقابر المبنية ، ومنها ما خربش على الرخام . أما المنقوشة فقد وجد أكثرها في مدائن صالح وبعضها في وادي موسى وفي بلاد حوران . وأما الكتابات المخربشة فقد وجدت كلها في بلاد جوران . وكذلك وجدت كتابات نبطية في أودية شبه جزيرة سيناء وبخاصة في وادي المكتب ، وهي آخر كتابات وصلتنا نقشت بخط نبطي ولغة نبطية .

ولما كان الاراميون على صلة وثيقة بالفينيقيين ، وكانت قوافلهم تنقل من صور وصيدا إلى الداخل ما كان يجلبه البحارة من الفينيقيين ، فقد أخذوا عن الفينيقيين الابجدية . . ولذلك نلمس اختلافاً بسيطاً بين الابجدية الارامية الاولى وبين الابجدية الفينيقية . وأقدم ما عثرنا عليه إلى الآن من نقوش ارامية ، ما وصلنا من حفائر زنجرلي بالقرب من انطاكية ، وهي نقوش ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد انتشرت اللغة الارامية والخط الارامي في بلاد الشرق الادنى منذ القرن الثامن الميلادي . ويعزى سبب انتشار اللغة الارامية إلى التجارة . فقد كانت في أيدي الاراميين ، وكانت قوافلهم تحمل البضائع بين بلاد الشرق الادنى ، وكذلك كانت الابجدية باعثاً على انتشار الخط الارامي . وكان الكتبة من البابليين والاشوريين ، لما لم يسعفهم الخط الاسفيني المعقد ، استعانوا بالخط الابجدي الارامي لتفسير الخط الاسفيني .

ولما استولى البابليون على مملكة دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد نقلوا إلى بلادهم عدداً كبيراً من مهرة الارامين للاستعانة بهم ، وقد عبَّر القدماء عن ذلك بعبارة « السبي البابلي » . واستقر الاراميون في مدينة بابل ونشروا لغتهم حتى غلبت على اللغة الاشورية والبابلية ، وتخلد النقوش الاسفينية من عهد سرجون (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق . م) عدداً من الاسماء الارامية كان أصحابها يحترفون التجارة في مملكة اشور وبعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق . م أصبحت بلاد اشور ارامية . وكان من الشائع في بابل أن تكتب العقود باللغتين البابلية والآرامية . وكذلك تمكنت اللغة الارامية أن تحل محل العبرية حتى في فلسطين وذلك منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد تم للفرس الاستيلاء على البلدة وسقطت في أيديهم مدينة =

فغيرت بعض ألفاظها . وقد كتب بها بعض أسفار العهد القديم كسفر

= بابل سنة ٥٣٨ ق . م في عهد الاسرة الكلدانية وكانت اللغة الارامية شائعة في الشرق كله حتى بين طبقة الحاكمين من الفرس ، فاستخدموها لغة للتفاهم بين أجزاء الامبراطورية ، وأصبحت بذلك لغة الادارة والمكاتبات الرسمية . ويقوم النزاع بين الفرس والروم ، وتكون بلاد الارامين مسرحاً له ، فهي حيناً في أيدي الفرس ، وحيناً في أيدي الروم ، وتخرب الحرب بلادهم ، ويتأثرون بحضارة الفرس والروم وثقافتهم ، ويصبحون ورثة الحضارات الاشورية والبابلية والفينيقية والفارسية واليونانية وكانوا يتأثرون خطى هذه الحضارات ، ويضفون عليها نوعاً من التطور . أما لغتهم فأنها كانت تفرض نفسها على سائر اللغات فأبادت الاكدية والكنعانية . وكانت قوتها كامنة في بساطة أبجديتها وسهولة نحوها وصرفها ، ولذلك فقد كانت الارامية لغة الأقوام العمليين النشطين الرحل الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا موظفين أكفاء ، أعانوا الفرس على اعادة امبراطوريتهم . ولم تكن الارامية لغة الامبراطورية الفارسية الرسمية فحسب ، وإنما كانت لغة دولية . نعلم ذلك من الكتاب المقدس أيضاً . فقد جاء في سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٦ واشعيا ٣٦ : ١١ أنه في سنة ٧٠١ ق . م لما حاصر سنحاريب بيت المقدس في عهد حزقيا كان الشعب يتكلم الارامية وكانت ارستقراطية اليهود تعرف الارامية ، وكان موظفو سنحاريب يعرفونها أيضاً .

وقد تبع انتشار الارامية واتصال أصحابها بغيرهم من الأقوام إن تولدت منها لهجات عدة يمكن أن نميز بينها تبعاً لإختلاف الزمان والمكان والدين والحضارة :

١ ـ الارامية القديمة : وهي لهجة زنجرلي ، والارامية التي استخدمها الفرس في دواوينهم والتي يسميها العلماء الآن بالارامية الدولية ، وارامية أوراق البردى التي وجدت في مصر ، وارامية الكتاب المقدس (عزرا ودانيال) ونستطيع بعد ذلك أن نقسم اللهجات الارامية إلى شرقية وغربية .

٢ ـ الارامية الشرقية : لهجة الرها الارامية وكان موطنها ما بين النهرين وسميت بعد ظهور المسيحية بالسريانية ، ولهجة ارامية يهودية بابلية هي لهجة التلمود البابلي كان موطنها شمالي العراق ، ولهجة الصابئة الارامية وهي اللهجة المندعية وموطنها جنوبي العراق .

ولهجة الرها (السريانية) هي اللهجة الارامية التي كان موطنها ما بين النهرين في الاقليم الذي كانت عاصمته مدينة الرها . وكانت تحكمها في العهد السابق لظهور المسيحية أسرة عربية ، يدل على ذلك اسماء ملوكها ، أبجر ومعن ووائل ، فلما ظهرت المسيحية وانتشرت في هذا الاقليم ، واتخذت لغته لغة أدبية لها ، كره أصحابه أن يطلق عليهم اسم الارامين وبالتالي على لغتهم اسم اللغة الارامية ، ورأوا في هذه التسمية مرادفاً للوثنية والالحاد ، فعدلوا عنه إلى الاسم الذي أطلقه عليهم اليونان وهو « السريان » وسموا لغتهم « السريانية » .

وليس من شك في أن السريانية قد أفادت كثيراً من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية فانتشرت فيما بين النهرين ، ثم اتجهت في طريقها ناحية الشرق ، وكان تسربها إلى الغرب ضئيلاً جداً : =

دانيال وغيره ، وقد دعيت هناك بالارامية تساهلاً ـ على ما أرى ـ لأن بينها

= ذلك أن اللغة اليونانية كانت منتشرة في الغرب ، وكانت انطاكية معقلاً لها . ولم تتمكن اللغة السريانية من الانتشار في فلسطين لأن النزاعات الدينية والسياسية التي كانت قائمة بين سكانها وسكان بلاد ما بين النهرين قد حفزت الفلسطينيين المسيحيين إلى النهوض بلهجتهم وجعلها لغة أدبية . أما في الشرق فلم يكن هناك ما يمنع من انتشار اللغة السريانية فقد كانت لغة الكنيسة المسيحية في الشرق تتبعها اينما حلت ، كانت لغة المسيحية في فارس وحملها المبشرون من النساطرة معهم إلى بلاد التركستان والهند حتى بلاد الصين . وكانت اللغة السريانية لغة المسيحيين في المملكة الساسانية ، وبها درس الطب والعلوم الطبيعية في مدرسة جنديسابور وغيرها من مدارس السريان في البلاد الفارسية .

وقد دون السريان كتبهم بعدة أنواع من الخطوط ، وكان اقدمها مدوناً بالخط الاسطرنجيلي ، فلما انقسم السريان إلى نساطرة ويعاقبه وملكية ابتدع كل فريق منهم لنفسه خطاً ، ومع ذلك فقد ظل الخط القديم مستخدماً وصارت المؤلفات تكتب بالخطرط الأربعة .

واللهجة الارامية اليهودية البابلية : كان يستخدمها يهود العراق الساكنون في بابل وما حولها في كتب الدين بين القرنين الثاني والسابع الميلادي أي إلى أيام الفتح الاسلامي . وقد بقي لنا منها التلمود البابلي ، وشرح الكتاب المقدس الذي ألف في مدارس اليهود في بابل فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي ويعرف باسم « الجمارا ». وقد تأثرت كغيرها من اللهجات الارامية اليهودية باللغة العربية .

لهجة الصابئة الارامية (المندعية): واسم المندعية مشتق من الكلمة الارامية « م د ع ا » ومعناها المعرفة ، ويسمى اصحابها بالصابئين أو المندعيين . وهم طائفة من القبائل الارامية كانت تسكن منطقة نهر الاردن ، ثم هاجرت منها إلى العراق ، وكان أهل حران منهم يسمون انفسهم ناصوريين ، وهم فرقة دينية من العارفين بالله ، خلطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين واثنينية الفرس ، وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الاسلام . وهم يدعون أنهم على مذهب يحيي بن زكريا « يوحنا المعمدان »، ولذلك كانوا يغتسلون في الاردن كما كان يحيي يغتسل في الاردن ، فلما هاجروا إلى العراق أخذوا يسمون كل نهر وكل ماء نهر الاردن . وهم يزعمون أيضاً أنهم أهل المعرفة من النصارى ، وأن عندهم معرفة خاصة عن الاشياء الدينية والروحانية ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا نصارى بل كانوا يعترضون على النصارى واليهود ، فحاربتهم الكنيسة ، كما حاربهم اليهود . وكتبهم الباقية كلها دينية وعددها قليل وأهمها كتاب « الكنز الكبير ». وفيه أجزاء اخذت من اليهودية والنصرانية والاسلام ، ومن قول أهل المعرفة ويظهر من هذا أنهم بدءوا بجمع رواياتهم وطقوسهم الدينية بعد فتح المسلمين للعراق لكي يعدوا أنفسهم من أهل الكتاب . وقد ضاعت كل كتبهم التي ترجع إلى ما قبل الاسلام . أما العصر الذي ألف فيه ما تبقى من كتبهم فغير معروف على التحديد . وللغة المندعية منزلة خاصة بين اللغات الارامية فهي =

وبين الارامية الأصلية فرقاً واضحاً لفظاً ومعنى . ولغة آشور أبعد عن هذه

= اللهجة الوحيدة التي لم تتأثر بمؤثرات خارجية شتى .

ولا يزال للمندعيين بقية باقية حتى اليوم ويعرفون باسم الصبأ ويسكنون بطائح البصرة ، ويقيم بعضهم في بغداد ويعمل اكثرهم في نقش الفضة بالصور والرسوم ، وهم متمسكون بدينهم ويتكلمون العربية والفارسية .

٣ ـ الارامية الغربية : تضم دويلتين لسانها آرامي وهما تدمر والنبط وقد وصلت إلينا لغتهما عن طريق النقوش فقط ، وثلاث لهجات أدبية وهي اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ، والسامرية ، والملكية أو الارامية الفلسطينية المسيحية .

واليهودية المقدسية والجليلية كانت تتكلمها العامة في فلسطين حين نسيت العبرية في زمان المسيح واتخذت لهجة ارامية غربية ، وكان المسيح يحدث تلاميذه ويخاطب العامة بهذه اللهجة مع أننا نعرف من الانجيل أنه كان يعرف العبرية . ولم يكن الكتاب المقدس قد ترجم إلى هذه اللهجة في أول الأمر فكان الاحبار يقرأون التوراة في الصلاة بالعبرية فإذا أتموه قراءة فصل قاموا بترجمته إلى الارامية على السامعين حتى اصبحت هذه الترجمة قسماً من الصلاة عند اليهود ، ثم قاموا بكتابة هذه التراجم مع بعض الشروح وانتهوا من جمعها وتصحيحها في القرن الرابع الميلادي وتعرف عندهم باسم « ترجوم ». وكذلك كتب بهذه اللهجة المدراشيم والتلمود الفلسطيني أو المقدسي . وتحتوي هذه الكتب على شرائع اليهود ونبذ عن احبارهم المشهورين . والسامرية لهجة أهل السامرة ، وهم طائفة قديمة من اليهود ، استخدموا لهجة ارامية وترجموا إليها التوراة وألفوا فيها طقوساً واشعاراً وأدعية خاصة بالصلاة . وقد تنازع السامريون مع اليهود وباهى كل منهما صاحبه بأنه على دين بني اسرائيل الصحيح ، ولم يقبل السامريون من الكتاب المقدس إلا اسفار موسى الخمسة وكانت عندهم بالخط العبري القديم ، ولم يقبلوا الخط المربع الذي استحدثه اليهود بعد الجلاء ، فلما دخلت الارامية فلسطين ترجم السامريون إليها أسفار موسى الخمسة .

وكانوا يسمون لهجتهم بالسامرية وهي قريبة الشبه من اللهجة اليهودية الفلسطينية . وقد ضاعت بعد الفتح العربي ، وتعلمت العامة اللغة العربية ولكنهم استمروا في كتابة كتبهم الدينية بلهجتهم هذه بعد أن أصبحت لهجة صناعية مختلطة بكلمات سريانية وعربية . ومنذ ذلك الحين ضعف السامريون وتناقص عددهم تدريجياً ، وهم اليوم قليلون جداً في نابلس ونواحيها . .

واللهجة الملكية أو الارامية الفلسطينية المسيحية ، ظهرت لما انقسم النصارى إلى نساطرة ويعاقبة وملكية ، وكان الملكية يخالفون أكثر النصارى الاراميين ، ولهذا السبب عدلوا عن كتابة لهجتهم بالخط السرياني واستبدلوا به خطاً هو إلى حد ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية وكانوا يستخدمون الترجمة السريانية للكتاب المقدس في كنائسهم مع بعد اللغة السريانية عن لغة العامة . ولهذا ترجموا الكتاب المقدس إلى =

من لغة بابل . أما ما يُدعى بين السريانيين في هذه الأيام باللغة الكلدانية ليس إلا السريانية نفسها مع بعض التغيير في الحركات . والسريانية هي الكدانية المشار إليها مع تغيير في ألفاظها ودلالتها تبعاً لما اقتضته الأحوال ، فكأن اللغة البابلية القديمة دعيت في أول أمرها ارامية ثم تغيرت قليلاً فدعيت كلدانية ، ثم وقع فيها تغيير آخر فدعيت سريانية وحصل في هذه بعض التنوع في حركاتها ، فحسبت لغتين : سريانية غربية وسريانية شرقية ، وقد حفظت اللغة الارامية الأصلية بعض التواريخ القديمة منقوشة على بقايا بابل وآشور . والسريانية حفظت الكتاب المقدس الذي تُرجم إليها في الجيل الثاني بعد المسيح ،وتعرف هذه الترجمة بالترجمة البسيطة .

الثاني ـ العبرانية : قد امتازت هذه بحفظها التاريخ القديم كما سبقت الاشارة ويكون الناطقين بها هم أوضح الأمم منشأ . واللغة التي يتكلم بها الاسرائيليون اليوم ليست العبرانية صرفاً ، بل خالطها بعض الألفاظ الارامية أو الكلدانية أثناء أسرهم عند البابليين . ومحور جميع ما ألف في

= لهجتهم وكانت ترجمتهم حرفية دقيقة لم يراعوا فيها المعاني ولا ترتيب الكلمات في الجملة على قواعد اللغة الآرامية. ولم يبق لنا من كتبهم إلا القليل، وكان املاؤهم غير واضح وغير مشكل بحيث يمكن الاختلاف في نطق كلماته ، وهذا هو السبب في أن اللهجة لم تلق عناية كافية . وقد ظل اصحابها يتكلمون بها في فلسطين حتى انقرضت بعد الفتح العربي .

٤ ـ الارامية الحديثة : وبنهاية القرن الثالث عشر انقرض استخدام اللغة السريانية تقريباً ولم يبق منها اليوم إلا بقايا في بعض نواحي العراق الشمالية ، في عدد من البلدان فيا بين بحيرة أورميا وبحيرة فان ، حيث يقيم بعض النصارى من النساطرة ويسمونهم بالاشوريين . وفي شمال الموصل حيث يوجد بعض الاف من اليهود يعيشون على فلاحة الأرض. وفي طور عابدين وهي نواح جبلية في البلاد الفارسية حيث يقيم بعض اليعاقبة .

كذلك في ثلاث من مدن سوريا منعزلة بعضها عن بعض : الأولى مسيحية وهي معلولة ، والثانيتان سكانها من المسلمين وهما جبعدين وبخعة .

هذه اللغة إنما هو العهد القديم ، ويتفرع عنها الفينيقية والقرطجنية كلتاهما مائتتان[1] .

---

(١) العبرانية فرع من الكنعانية . والكنعانيـون تحركـوا من الجزيـرة العربيـة نحو الشـام وسواحـل البحر الأبيض . والموجة الكنعانية هي الموجة الثانية من تحولات الأمم السامية . بـدأت حوالي سنة الفين قبل الميلاد . توغل الكنعانيون في الشام وأسسوا فيها مدناً تجاريـة منها صـور وصيدا وجبيل وبيروت ، ثم أسس بحارتهم مستعمرات في افريقية وآسيا الصغرى والاندلس والهند . وأسماء مثل مرسيليا وقرطاجنة تدل على أنها مؤسسات كنعانية قديمة .

واختـرع الكنعانيـون الخط الابجدي وعنهم انتشـر في العالم ومن أقـدم النصوص التي وصلت إلينا ومن أحدثها كشفاً ، نصوص رأس شمرا في شمال اللاذقية وكان يـطلق عليها قـديماً اسم « أوجـريت » وأكثر هـذه النصوص شعـرية ، تصف رحـالات الكنعـانيـين ومعيشتهم في تلك البلاد وفيها ملاحم وحكم . وهذه اللغة مكتوبة بأبجدية أسفينية مشتقة من الخط الاسفيني .

ومن أقدم النصوص التي وصلتنا بالكنعانية كلمات كنعانية كتبت بالخط الاسفيني في المكـاتبات التي دارت بين أمراء الشام وملك مصر والتي عثر عليها في تل العمارنة مكتوبة بالبابلية وترجع إلى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . وقد أضـاف الكاتب هـذه الكلمات الكنعـانية ليـوضح المعنى المطلوب . ومنذ سنة ألف قبل الميلاد وصلتنا نقوش مكتوبة بالخط الكنعاني .

وكان اليونـان يسمون أهـل السواحـل من الكنعانيـين بالفينيقيـين . فالفينيقيـون هم الشعوب الكنعانية التي عاشت على سواحل الشام منذ سنة ألف تقريباً . .

ومن الأمم التي تتكلم لغة شبيهة باللغة الكنعانية أمة أو قبائل المؤابيين ، استقرت هذه القبائل حوالي سنة ألف قبل الميلاد وأسست لها مملكة في شرق الاردن ، ونحن لا نعرف كثيراً عنها إلا أنها ذكرت في التوراة . وكشف في أواخر القرن الماضي نقش كبير كتب بحروف كنعانية ولهجة مؤابية دونت فيه الحروب بين ملكهم ميشع وبين بني اسرائيل وقـد وصف العهد القـديم تلك الحروب ولكن يذكر سفر الملوك أن العبريين انتصـروا على المؤابيـين ويذكـر هذا النقش عكس ذلك .

وأهم فروع اللغة الكنعانية هي العبرية لغة القبائل التي انفصلت عن سائـر الكنعانيـة وتجولت في صحـاري الشام والعـراق واستقرت آخـر الأمر في فلسـطين . وقد تـرك أصحـاب ابـراهيم الخليـل حران وجـاءوا فلسطين حـوالي سنة ١٦٠٠ ق . م ثم تـركت تلك القبائـل فلسطين ، واستقرت زمناً في مصر ثم جرى لها ما جرى في مصر حتى ظهر موسى في القـرن الثالث عشـر قبل الميلاد ، فخرجوا من مصر وفتحوا فلسطين وتغلبوا عـلى سكانها الاصليـين وتغلبت لغتهم على لغة أهل فلسطين وأصبحت اللغة العبرية منتشرة في فلسطين منذ القرن الحادي عشـر قبل الميلاد تقريباً . ولا نعرف من العبرية القديمة آثاراً إلا ما جـاء في العهد القـديم وما وصـل إلينا من النقوش العبرية القديمة في فلسطين . ولا ترجع لغة العهد القـديم إلى عصر واحـد بل قـد=

الثالث ـ العربية : وهي أسمى اللغات السامية ومعرفتها ضرورية لاتقان أخواتها . وقد كانت محصورة في شبه جزيرة العرب ، فلما ظهر الاسلام أخذت في الانتشار إلى أن ملأت الخافقين بسبب الفتوح الاسلامية المشهورة ، فامتدت من الشرق إلى الغرب بين أواسط الهند وبوغاز جبل طارق ومن الشمال إلى الجنوب بين البحر الأسود وبحر العرب . وبالجملة يقال أنها عمّت معظم العالم المتمدن في ذلك الحين . والحروف العربية

= ضم العهد القديم مجموعة من الاسفار ألفت فيما بين القرنين الحادي عشر قبل الميلاد والثاني قبله . وقد عنى النقد الحديث بالتفرقة بين جميع الآثار اللغوية لمعرفة القديم منها والحديث . ولعل أقدم نصوص العهد القديم الاسفار الخمسة التي تنسب إلى موسى وقصيدة الشاعرة ديبورا وقد أنشدتها في حروب العبريين مع الكنعانيين أثناء فتحهم البلاد ، وهي كثيرة الشبه بالشعر العربي . وظهر في بني اسرائيل منذ القرن الثامن قبل الميلاد أنبياء منذرين الأمة ومرشدين لها في شؤونها الدينية والسياسية والاجتماعية وقد وصل إلينا في العهد القديم كثير مما أوحى به لهؤلاء الانبياء .

وفتح الاشوريون في القرن السابع قبل الميلاد المملكة الاسرائيلية الشمالية وهدم البابليون في القرن السادس قبل الميلاد المملكة الاسرائيلية الجنوبية وفيها عاصمتهم أورشليم وأجلوا سكانها إلى بابل . وكان العراق في ذلك الوقت مجالاً للهجات الارامية وأخذت الارامية تنتشر في شمال الشام وجنوبه ، وتأثرت اللغة العبرية منذ القرن السادس قبل الميلاد بالارامية وأخذ اليهود في بابل يتكلمون الارامية واضطر علماؤهم إلى ترجمة التوراة إلى الارامية وأصبحت العبرية منذ ذلك العصر لغة العلماء والارامية لغة العامة .

ثم جاء العصر الاسلامي فدخل تجديد على اللغة العبرية في نحوها وأدبها ، ذلك أن العبريين قلدوا المسلمين وتبينوا أن العبرية أخت للعربية ، واجتهدوا أن يطبقوا قواعد العربية على العبرية وأسسوا بذلك النحو العبري وذلك في القرن الرابع الهجري حين كان النحو العربي قد كمل . وبدأ علماء اليهود في البلاد الاسلامية يستخدمون العبرية مرة أخرى في كتاباتهم . . فنرى مثلاً موسى بن ميمون يؤلف كتبه الفلسفية باللغة العربية ولكنه يؤلف كتبه الدينية التي يتوجه بها إلى اليهود بالعبرية . وكذلك نجد ابن جبيرول الاندلسي يؤلف كتابه في الفلسفة « ينبوع الحياة » بالعربية وينظم أشعاره بالعبرية . ويؤلف يهوذه هلاوي كتبه الفلسفية بالعربية وديوانه بالعبرية . وكان أكثر هؤلاء المؤلفين من الاندلس أو من مصر . وتأثر الادب العبري بالادب العربي ونظموا قصائدهم على الوزن العربي . هذا شأن العبرية في العصر الوسيط . أما في العصر الحاضر فقد أصبحت اللغة العبرية بعيدة عن الاصل بما دخل عليها من تراكيب أجنبية وألفاظ أعجمية ومولدة .

المستعملة عند الأعاجم منهم ، كالترك والفرس والهنود وغيرهم ، من جملة الآثار الشاهدة على ذلك . ويتفرع من العربية لغة الحبشة وفروع أخرى تُعد مائتة . ولا يخفى أن لغتنا ، لولا القرآن لتعددت فروعها قياساً على سواها[1] .

أما أصل كلمة « عرب » ففيه أقوال منها أنها « عبر » بعد القلب[2] ، وقال آخرون بل هي مأخوذة من « عَرب » أي فصح اعتماداً على أن العربية من أفصح اللغات وزعماً من سلفائنا بأن الذين لا يتكلمون بها عجم . وقد ذهب بعضهم إلى أنها مأخوذة من لفظة « يَعرب » التي هي اسم لأول من نطق بالعربية على ما يزعمون . ومن رأي أستاذنا المرحوم الدكتور فانديك من هذا القبيل قوله :

« بينما كان الساميون ساكنين في الأرض السهلة المخصبة حول رأس خليج العرب ، وفي ما سُمي بعد حين العراق العربي ، أتاهم قوم كوشيون عن طريق مهرا وحضرموت والحسا ، فطرد الكوشيون الساميين ، فنزح بعضهم نحو عيلام أي بلاد فارس ، وقوم صعدوا شمالاً على شطوط الفرات وهم التارحيون أسلاف ابراهيم ، وقوم ذهبوا غرباً نحو ما سُمي بعد حين جزيرة العرب ، وسموا عرباً من « عِرِب » بالعبرية أي أرض الظلام أو الغروب والعبرانيون لا يميزون بالصورة بين العين والغين ، ومن هذه اللفظة أيضاً أوروبا عروبا (أوروبا) . أنظر

---

(١) اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية الجنوبية . واللغات السامية الجنوبية تنقسم بدورها إلى شمالية وجنوبية . والشمالية هي الصفوية والثمودية واللحيانية والعربية الفصحى . والجنوبية لغات نقوش بلاد اليمن : المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية والاوسانية ، ثم لغات الحبشة : الجعز والامهرية والتيجري والتجرينيا والهررية والجراجوى .

(٢) الرأي الراجح عند العلماء الآن في أن العرب بمعنى الغرب اسم أطلقه سكان العراق من الساميين على قبائل الصحراء غربي العراق . وكما أطلق العرب على الاقليم الذي على شمالهم الشام والذي على يمينهم اليمن وكما نطلق في مصر على الوجهين البحري والقبلي .

مصنفـات رولنسن وماكس مـولر وقـاموس فـورست ، ومنهم من قال بـل التسمية من « عرب » في العبرانية خلط ومزج لكونهم شعباً مخلوطاً ممـزوجاً من نسـل قحطان واسمـاعيل ومـديان ومـواب وعمـون وعمـلاق ، وربمـا اختلطوا بالكوشيين في الجنوب . والله أعلم » .

وأوضح صفات اللغات السامية أنها مؤلفة من أصول ثلاثيـة الأحرف ثابتة في الاشتقـاق ، أي لا يؤثر عـلى أحرفهـا ، بل هـو يقوم فيهـا بتغيير الحركات التي يتوقف عليها نوع الدلالة . . مثاله في العربية ، « قتل » وهو أصل يتضمن معنى القتل ، فبتغيير الحركات فيه تشتق عدة أفعال أو أسماء أو نعـوت تبعاً لنـوع ذلـك التغيـير ، فمنـه « قَتَـلَ » فعـل مـاض معلوم و « قُتِل » فعل ماض مجهول و « قَتْلٌ » مصدر و « قِتْلٌ » بمعنى العدو والمقـاتل و « قُتُـلٌ » جمع قتـول . وقد تُمَـد إحدى هـذه الحركـات فيقـال « قَـاتِـلٌ » و « قَاتَل » و « قِتَيلٌ » و « قَتولٌ » و « قِتالٌ » و « قَتالٌ » و « قَتَلى » الخ . أما قابليتها للاشتقاق على طريق الالحاق فتشارك الطائفة الاريـة فيها ، لكنهـا تمتاز بحصول معـظم الاشتقاق بـواسطة تغيـير الحركـات ، وبأنها لا تقبـل الأدوات الملحقة إذا كانت ذات معنى في نفسها .

عـلى أن هذا التقسيم لا يـدل بنفسه عـلى وحدة أصـل تلك اللغـات دلالـة صريحـة ، نـظراً لما طـرأ عليهـا من التغيـير بعـد تفـرعهـا ، ولكن الاستقراء والمقابلة يوضحان ذلك . . فإن لغات الطائفة السامية ترجـع إلى ثـلاثة أصـول : الارامية ، والعبـرانية ، والعـربية . وهـذه لا شبهة بـأنها ترجع كلهـا إلى أصل واحـد يسميه علماء اللغـات اللغة السـامية ، ونـظنه اللغة الآشورية أو البابلية . والطائفة الآرية تـرجع إلى ثـلاثة أصـول أيضاً وهي اللغتان اللاتينية واليونانية واللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) فمن اللاتينية تفرعت معظم لغات أوروبا ، ومن اليـونانيـة تفرع بعضٌ آخـر ، وتفرع ما بقي من السنسكريتية . وتـرجع هـذه اللغات الثـلاث إلى أصل

واحد أو هي لغة واحدة مفقودة يسمونها اللغة الآرية[1] .

وتشترك هاتان الطائفتان ـ كما قدمنا ـ بقابلية ألفاظها للتصريف الحاقاً وادراجاً ، وتشاركان اللغات غير المتصرفة بارتقائها ووجود الأدوات والاشتقاق فيها . وأما اللغات غير المرتقية ، فالبعد بينها وبين اللغات المرتقية أكثر من ذلك كثيراً ، على أن البحث والمقابلة يبينان القرابة بينها كلها . .

---

(١) اللغات السامية لا ترجع إلى ثلاثة أصول وإنما هي لغات مختلفة ترجع إلى أصل واحد يطلق عليه علماء اللغة « اللغة السامية الام » أو « اللغة السامية الاصلية ». واللغة الاشورية أو البابلية هي من اللغات السامية وليست هي أصل اللغات السامية .
وفصيلة اللغات الارية « الهندية الاوروبية » ثماني طوائف ترجع كلها إلى أصل واحد ولغة مشتركة واحدة .

أصل اللغات

المراد بتقسيم اللغات على هذه الصورة ، إنما هو تقسيم الأمم التي تتكلم بها . . فالمراد بقولنا أنها تقسم إلى الطورانية والارية والسامية أن الأمم التي تتكلم اللغات الطورانية الآن ترجع إلى أصل واحد ، وأن الأمم التي تتكلم اللغات الآرية ترجع إلى أصل واحد ، وهكذا الطوائف الأخرى . . فالأمم التي تتكلم اللغات السامية ترجع الى أصل واحد، وهكذا الطوائف الأخرى . فالأمم التي تتكلم اللغات الارية مثلاً بعضها في أوروبا وبعضها في الهند والفرس . فمهما تباعدت المسافة بينها واختلفت عوائدها وأخلاقها اليوم ، فلا ريب أنها كانت في أقدم أزمنة التاريخ أمة واحدة أو عائلة واحدة تعيش في بقعة واحدة ثم قضت الأحوال بتفرقها ، فانقسمت قسمين : قسماً جنوبياً وقسماً شمالياً ، فسكن الجنوبي أواسط آسيا والشمالي نزح إلى أوروبا ، ثم انقسم كل من هذين القسمين إلى أقسام بعد أزمان متفاوتة . وهكذا أيضاً اللغات السامية ، فقد كان أهلها في أول أزمانهم يقطنون ما بين النهرين وهم الآشوريون أو أجدادهم ، وكانوا يتكلمون لغة واحدة لعلها الأشورية . . ثم قضت الأحوال فهاجر بعضهم إما التماساً للرزق أو فراراً من الحرب إلى جزيرة العرب وأقاموا فيها ، وبتوالي الأزمان تنوعت لغتهم الأصلية تبعاً لناموس الارتقاء

فتولدت اللغة العربية والأمة العربية ، ثم هاجرت طائفة أخرى وأقامت في شمالي جزيرة العرب ، وتنوعت لغتها حتى صارت مستقلة وعرفت باللغة العبرانية ، ولعل ابراهيم الخليل أول المهاجرين . تلك الفروع وفي أثناء تنوعهاكانت الأم الأصلية بين النهرين تتنوع أيضاً ، لأنها كلها خاضعة لناموس واحد .

وقس على ذلك فروع كل من هذه اللغات ، فإن العبرانية بعد أن صارت مستقلة ، وأقدمها لغة فينيقية ، نزحت فئة من أهلها غرباً وأقاموا في قرطجنة فتنوعت لغتهم حتى استقلت وعرفت باللغة القرطجنية ، وهكذا يقال في سائر التفرعات . فاللغة القرطجنية أقرب بألفاظها وأنواع تركيبها إلى أختها الفينيقية مما إلى خالتها العربية أو إلى جدتها الأشورية ، ولكنها أقرب إلى هذه مما إلى اللغات الارية على أنها أقرب إلى الارية مما إلى الطورانية ، وهي أقرب إلى هذه مما إلى اللغات الصينية . . فالفرق يزيد كلما بعدت المسافة بين الأمة وزعم تفرعها عن أمها . .

ثم إذا اعتبرنا مراتب اللغة في نموها ، وقابلنا حال اللغات الحالية بها ، تتضح لنا كيفية تفرع اللغات وأزمنة تفرعها .

المشهور أن الانسان الأول نشأ على ضفاف الفرات ودجلة بين العراق وأرمينيا فنما وتكاثر ، ومن نسله تفرقت الأمم في الأرض . . ولكنها لم تتفرق دفعة واحدة . . بل كانت كلما ضاقت تلك البقعة عن القيام بمعائشهم هاجرت فئة منهم إلى جهة من الجهات . وقد ذكرت التوراة أكبر مهاجرة نشأ عنها تعدد اللغات سمتها حكاية تبلبل الألسنة ، وذكرت في مكان آخر تفرق الأمم في الأرض ، ولكنها لم تذكر إلا الأمم التي تشعبت من نسل نوح فقط بعد الطوفان ، وأغضت عن الأمم التي نشأت قبل زمن الطوفان . . فأين نسل قايين وفروعه ، وأين الأمم الأخرى التي كانت قبل الطوفان غير الذين كانوا بين النهرين وأغرقهم الطوفان ، فلا

ريب أن المدة بين وجود الانسان الأول والطوفان كانت طويلة نشأت في أثنائها أمم كثيرة تشعبت وتفرعت وهاجرت فعمرت قسماً كبيراً من الأرض[1] .

فالظاهر أن المتكلمين باللغات غير المرتقية أقدم من نزح من بين النهرين كالصينيين والمصريين الأصليين ، فسارت فرقة شرقاً والأخرى غرباً . والتاريخ يساعدنا في تأييد ذلك لأن هاتين الأمّتين من أقدم أمم

---

(١) ذهب العلماء في الموطن الاصلي للساميين مذاهب شتى منها :

(أ) كان الساميون والآريون يسكنون منطقة واحدة ويتكلمون لغة مشتركة واحدة وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الموطن الأول يقع في منطقة أرمنيا على الحدود الفاصلة بين أرمنيا وكردستان تقريباً . .

(ب) دعا التشابه بين اللغات السامية وبين اللغات الحامية بعض العلماء إلى البحث في الموطن الاصلي للساميين في شمال افريقيا .

(ج) اعتمد بعض العلماء على ما ورد في نصوص الأساطير التي عثر عليها في رأس شمرا وذهبوا إلى أن الموطن الاصلي للساميين في شمال سوريا في بلاد الاموريين .

(د) وذهب بعض العلماء إلى أن المهد الاصلي للساميين يقع في ما بين النهرين أو على وجه التحقيق على المجرى الأوسط لنهر دجلة ومنهم من حدده في جنوبي نهر الفرات وقد اعتمدوا على أدلة جغرافية ونباتية وحيوانية وورود ألفاظ مشتركة في اللغات السامية لمسميات تنطبق على جغرافية وحيوان ونبات ما بين النهرين .

(ه) استدل بعض العلماء على خصب بلاد العرب في عصور ما قبل التاريخ ووجود ثلاثة أنهر بها في ذاك العصر ، وذهبوا إلى أن الموطن الاصلي للساميين كان في شبه الجزيرة العربية .

هذا ما ذهب إليه العلماء في الموطن الاصلي للساميين في عصور ما قبل التاريخ ولكن مما لا شك فيه أن موطن الساميين في العصر التاريخي شبه الجزيرة العربية ، وأن الموجات السامية التي عرفناها في التاريخ خرجت من الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي أو الشمال الغربي أو الجنوب :

الاولى : الاكدية بدأت من الالف الرابع قبل الميلاد نحو العراق .

الثانية : الكنعانية بدأت حوالي سنة ألفين قبل الميلاد نحو الشمال الغربي .

الثالثة : الارامية بدأت حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد نحو الشمال .

الرابعة : اليمنية والحبشية بدأت حوالي سنة ألف قبل الميلاد نحو الجنوب .

الخامسة : العربية بدأت في القرن السادس الميلادي نحو الشمال .

الأرض إن لم تكونا أقدمها كلها ولغاتها أبسط اللغات لأنها تفرعتا قبل زمن الطوفان ، واللغة لا تزال في أول أدوارها أي قبل تولد الأدوات وحصول التمييز بين الفعل والاسم والحرف . وربما كان الصينيون من نسل قايين والتوراة تصف نسل قايين بالمهارة في الصناعة والموسيقى ، والصينيون أقدم أرباب الصنائع على اختلاف أجناسها وأمهر الناس في اتقانها .

ونرى بين لفظي (صين) و (قايين) مشابهة حتى يصح القول أنهما واحد لأن القاف والصاد كثيراً ما تتبادلان والحرف C في اللغات الافرنجية ينطق تارة قافا (أو كافا) وطوراً صاداً (أو سينا) ، ومثل ذلك اختلاف لفظ الجيم العربية من مصر والشام ولفظ الكاف بين بعض قبائل العرب ، فإن بعضهم يلفظها كافاً وبعضهم شيناً وبعضهم سيناً . وترى أيضاً مشابهة بين لفظ قايين واسم مصر ، فقد كان اسمها (كيم) أو (كيمى) والمبادلة بين الميم والنون مشهورة ولا عبرة بالحركات ، ولذلك بحث لا محل للكلام عليه وإنما يهمنا منه ان الأمم التي تتكلم اللغات غير المرتقية عمرت الأرض قبل زمن الطوفان . ثم هاجر أجداد الأمم التي تتكلم اللغات الطورانية فسكنوا شمالي آسيا ومنهم المغول والتتر وغيرهما . ثم نزح الاريون فأقاموا زمناً معاً ، ثم تفرقوا في جهات الهند وفارس وكردستان وأوروبا . ثم الساميون وما تفرع عنهم كما قدمنا . وكانت اللغة إذا انفصلت عن أمها أخذت تنمو بنفسها وأمها تنمو أيضاً ، وتسير كل منها تبعاً لأحوال المتكلمين بها وبيئاتهم فلا يمضي زمن حتى تبتعد كل منهما عن الأخرى ، ولكن المقابلة والتدقيق يبينان ما بين هذه اللغات المتباعدة من المشابهة الدالة على وحدة أصلها . وتتفاوت هذه المشابهة بين اللغات بتفاوت أزمان انفصالها بعضها عن بعض ، فإن المشابهة بين ألفاظ العربية والعبرانية وطرق التعبير والاشتقاق فيهما ظاهرة جلية . وهكذا بين اللغات الأوروبية المتفرعة عن اللاتينية ، لأن كلا من هذه اللغات تفرعت عن

أمها بعد أن نمت فيها أنواع التعبير والاشتقاق ، فبقيت المشابهة ظاهرة فيها . وأما المشابهة بين العربية واللاتينية فأبعد ، لأنهما افترقتا قبل تمام ذلك النمو ونمت كل منهما على حدة وعلى أسلوب مخالف لاسلوب الأخرى، فبعدت المشابهة ولهذا السبب ايضاً كانت المشابهة بين العربية والصينية أبعد من ذلك كثيراً، لأن الصينيين انفصلوا عن الأمة الأصلية قبل الساميين بدهور متطاولة واللغة في أبسط أحوالها.

على أننا مع كل ذلك لا نحرم دليلاً على المشابهة من بعض الوجوه إذا التمسناها من حيث نرجو العثور عليها ، إذ لا يليق بنا أن نبحث عن المشابهة في صيغ اشتقاق الفعل بين اللغات الارية والسامية ولا تركيب الجمل بين اللغة الصينية والعربية ، بل نبحث عن أقدم مواد اللغة في كل من أصول هذه اللغات وننظر في أوجه المشابهة بينها والغالب أن نعثر على ضالتنا . .

فمن أقدم ألفاظ اللغة الضمائر والاعداد واسماء ضروريات الحياة كالطعام والشراب والمأوى والملبس وما يتعلق بذلك :

(١)**الضمائر** :

فالضمائر ترجع إلى ثلاثة : المتكلم ، والمخاطب ، والغائب . وكل من هذه يتصرف مع علامات الجمع والتأنيث وغيرها ، فإذا جردناها من تلك العلامات ومن النون التي تلحق بها في بعض اللغات ، ظهرت المشابهة بينها كلها . فضمير المتكلم مقطع حلقي محصور بين الياء والكاف ، فهو في العربية الياء أو الحاء وتظهر في الجمع (نحن) وكذلك في السريانية و « انكى » تلفظ « أنوخى » في العبرانية و Anok أو A في المصرية القديمة و « انكى » تلفظ « أنوخى » في العبرانية و Ego في اللاتينية و Ego أوEgon في اليونانية و Aha أو Ahom في السنسكريتية و I في

الانجليـزيـة و Ich في الالمـانيـة و Nga أو Ga أو A في الصينيـــة و Na في المغولية .

أما ضمير المخاطب إذا تجرد من مميـزات الجنس والعدد ، فهـو حرف التـاء في سـائـر اللغـات . . ففي العـربيـة وأخـواتهـا ، التـاء في أنت وفي اللاتينية Tu وفي اليونانية Su (والتاء والسين تتبادلان). وفي الفـرنسية Tu وأخواتها وفي الانجليزية Thou وفي الالمانية Du وفي السنسكريتية Tua وفي الفارسية (تو). ومثل ذلـك في ما بقي من اللغـات الشرقيـة والمصريـة ، ففي الاشورية (أتّـا) وفي الكلدانية (أنت) وفي المصـرية القـديمة Entuk وفي القبطية Ntok وفي الصينية Two وفي المغولية Ta . أما الغالب فالأصل فيه الهاء في اللغات الشرقية وما يقابلها في اللغات الأخرى، ففي اليـونانيـة I وما يـركـب منها وفي اللغـات الجرمـانيـة Hua ومشتقـاتـهـا وفي الفارسية « وى » وفي الصينية Soh والسين زائدة . وسيأتي تفصيل ذلك في باب الضمائر من هذا الكتاب .

(١) الاعداد :

يظهر أن الأعداد أحدث عهداً في اللغة من الضمائر ، فالمشابهـة بينها أبعد مما بين الضمائر .

فلفظ (واحد) يظهر أنه تولد في اللغات السامية بعد استقلالها عن الآرية. أو لعله كان في الارية ثم فقد الا آثاراً منه باقية في اليونانية . فـإن الأصل في لفظ واحـد العربي (حـد) كـما هـو في اللغـات الساميـة الأخرى ، ومن تصاريف الواحد في اليونانيـة Heis ، وعلى كـل حال فـإن اللفظ الدال على الواحد في اللغات الآرية يرجع إلى الواو والنون . . فهـو في الـلاتينيـة Unus وفي اليـونـانيـة En ونحـو ذلـك في اللغـات الآريـة الأخـرى . أما في اللغـات الشرقيـة فبقي هـذا اللفظ محفـوظـاً في (أول)

العربية والأصل فيه الواو واللام (واللام والنون تتبادلان) .

و (الاثنان) الأصل فيها التاء وما يبدل منها كالثاء والسين والدال ، فهي في اليونانية Dio واللاتينية Duo وفي الانجليزية Two ونحو ذلك في سائر اللغات الجرمانية ، أما الألف والنون في العربية فزائدتان علامة للتثنية .

و (الثلاثة) الأصل فيها بالعربية (ثلث) وهي كذلك في سائر اللغات السامية ونحو ذلك في اللغات الآرية ، ففي اللاتينية Tres وفي اليونانية Treis والتبادل بين اللام والراء وبين السين والثاء كثير .

و (الأربعة) يعسر الجمع فيها بين اللغات السامية والآرية ، وكذلك (الخمسة) . أما (الستة) فالأصل فيها (ست) ففي العبرانية شش وفي اللاتينية Sex وفي اليونانية Ex وفي السنسكريتية شش وفي السلافونية نست والمشابهة واضحة .

و (السبعة) أصلها سبع وهي في اللاتينية Septem وفي اليونانية Hepto وفي الفارسية (هفت) وفي السنسكريتية (سبتا) فالظاهر أن الأصل فيها (سب) والعين دخيلة في اللغابت السامية والتاء دخيلة في اللغات الآرية .

وأما ما وراء السبعة فلا سبيل إلى تطبيقه ، فالظاهر أن الطائفتين الآرية والسامية انفصلتا قبل تولد ما بعد السبعة . وهناك أمم متوحشة لا تزال إلى اليوم ليس في لغتها من الأعداد ما بعد الخمسة .

وقد رأيت فيما تقدم أن الأعداد لم تتشابه إلا بين الطائفتين الآرية والسامية لأن اللغات غير المرتقية انفصلت عن أصلها قبل تولُّد الأعداد ، بعبارة أخرى أن أجداد الصينيين والمغول نزحوا من بين النهرين قبل أن

تولد الأعداد في لغة أهله . . فتولدت الأعـداد عندهم مستقلة ، فجـاءت بعيدة عن تلك . فالاثنان في الصينية (شونغ) والثـلاثة (سـام) والأربعة (سي) والخمسة (نجو) والستة (لوك) الخ . .

(٣) أسماء ضروريات الحياة :

نـريد بضـروريات الحيـاة أقدم لـوازم المعيشة فـالانسـان أول عهـده بالتكلم وضع أسماء لما احتـاج للدلالة عليـه ليسد عـوزه التماسـاً للبقاء . وقد كان ذلك قبل تولد الضمائر والأعداد ، فيجب أن تكون المشابهة بينها في اللغـات ظاهـرة . ولكن لا يخفى على المطالع اللبيب أن اللغـة في نمـو دائم ، فتتولد فيها ألفاظ جديدة وتندثر ألفاظ قديمة ، وأن التغيير متواصل في ألفاظها نحتاً وابدالاً وقلباً . وأكثر الألفـاظ تداولاً عـلى الألسنة أكثـرها تعرضاً للتغيير : وأسماء ضروريات الحياة أقدم الألفاظ وأكثرها تداولاً عـلى الألسنة ، فلا ينتظر أن نرى أمثلة كثيـرة من المتشابهـات ، ولا يتفق لنا أن نرى ألفاظاً تتشابه في سائر اللغات المرتقية وغير المرتقية معاً . . فربما تشابه لفظ في الطائفتين الســامية والاريـة وآخر في إحـداهما والصينيـة وآخر فيهـا جميعاً . وهاك أمثلة مما يتشابه في كل اللغات أو في بعضها . .

١ ـ الأم : فإن لفظها واحد في سائر لغات العالم لأنه أول ما نـطق به الانســان وأقدم مـا تعلمه . فهـو Mater في اللاتينيـة Mitir في اليونـانية و Matri في السنسكريتية ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية ، والأصل فيها كلهـا الميم لأنهم يدلـون على الأم أيضـاً بقولهم Mama وهكـذا في اللغات الأخرى . ففي العربيـة وأخواتهـا (أم) وفي لغة تيبت بـين الهند والصـين (يم) وفي الصينية (مو) وفي القبطية (ماو) .

٢ ـ الأب : فهـو في اللغات الاريـة Pater وما يشبههـا والأصل فيهـا الباء وفي اللغات السامية (أب) وفي الصينية (بو) أو (فو) وفي التركيـة (بابا) .

٣ ـ الأكل : في اليونانية Edein وفي اللاتينية Edere والأصل فيهما (اد) وفي السنسكريتية وفي المغولية (ايدهو) وفي الصينية (وت) أو (ود) وفي العربية (قات) أو (قوت) وفي القاموس اط الرجل جاع وطلب الطعام .

٤ ـ العطاء : فهي في اللاتينية Op ونحو ذلك في سائر اللغات الارية والأصل فيها الدال أو التاء ، وفي العربية (أدى) أو أعطى والعين دخيلة وفي المصرية القديمة (طا) .

٥ ـ القطع : وهو متخلف عن (قط) حكاية صوت القطع وعام في سائر لغات العالم . ففي اللاتينية Coedo وفي الانجليزية Cut وفي الفرنسية Casser ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية . وفي الصينية (كت) وبالمصرية القديمة (خت) وفي العربية قط أو قص أو قطع . ومن هذا القبيل أكثر الأفعال المختلفة عن حكاية الأصوات الطبيعية مثل طفأ ونفخ وغيرهما ، كما سيأتي في الكلام على تولد اللغة .

٦ ـ الكون : وهو الفعل الدال على الوجود في اللاتينية Esse وفي السنسكريتية As ونحو ذلك في سائر اللغات الارية . وفي العبرانية (يش) وفي السريانية (بت) وفي العربية (ايس) ولا توجد الا مركبة مع (لا) وفي (ليس) ومعناها نفي الوجود .

٧ ـ الرجل : فهو في اللاتينية Vir وفي اليونانية Anirوفي الاسبانية Hombro ونحو ذلك في معظم اللغات الارية وفي العربية (مرءُ) وفي المغولية Ere .

٨ ـ حرف النفي : فإنه واحد في سائر لغات الأرض ، ففي اللغات السامية (لا) وفي الآرية No أو أحد تنوعاتها وفي اللغات الطورانية

(ال) و (نـه) أو (ما) وفي اليـابانيـة (نا) وفي الصينيـة (مو) والنسبـة اللفظية بين اللام والميم والنون معلومة .

هذه أمثلة مما تتشابه أصوله في معظم لغات العالم ، أما مـا يتشابـه في لفظها فهـو كثير لا يمكننـا استيفاؤه هنـا . من أمثلة ذلك تشـابه (كهف) العربية Cavo اللاتينية . و (أرض أو ثرى) و Earth الانجليزية و Terre الفرنسية (اله) العربية و (لها) في لغة تيبت و (الماء) في العربية و (ما) في المصرية القديمة و (مو) في الصينية وقس على ذلك[1] .

---

(١) هذه المحاولة في الضمائر والاعداد واسماء ضروريات الحياة للوصول إلى التدليل على أوجه الشبه بين اللغات السامية والحامية من جهة والهندية الاوروبية من جهة أخرى حاولها العلماء ولا تزال البحوث عنها مستمرة دون الوصول إلى نتيجة . وقد وصل بعض العلماء فيها إلى نتائج من حيث القرابة بين هاتين الطائفتين وفي الاعداد والاعراب وبعض الألفاظ مما دعا إلى افتراض أن الشعب الهندي الأوروبي الأول كان يسكن مع الشعب السامي الأول أو بالقرب منه ، وذهبوا إلى أن الموطن الأول كان في جنوب روسيا أو في القوقاز . وانتشر الشعب الاري من هناك وهاجر الشعب السامي إلى بلاد العرب حيث استقر هناك ثم بدأت هجراته مرة ثانية كما بينا .

أما الفكرة التي سادت بين العلماء والتي حالوا فيها ارجاع لغات العالم إلى أصل واحد ، فقد نبذوها في أوائل هذا القرن حين بدأ علم اللغة نهضته .

ما هي اللغة العربيّة ؟

هي إحدى اللغات السامية وأرقاها مبنى ومعنى واشتقاقاً وتركيباً ، وهي من أرقى لغات العالم . . فقد تقدم أن اللغات على اختلاف أنواعها تقسم إلى مرتقية وغير مرتقية ، وأن هذه تقسم إلى متصرفة وغير متصرفة ، وأن هذه تقسم إلى ثلاث طوائف كبرى : (١) الآرية (٢) الطورانية (٣) السامية ، وفيها اللغات العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والقرطجنية والاشورية والبابلية وغيرها . وأرقى اللغات السامية اللغة العربية . .

والمراد باللغات السامية ، اللغات التي تكلم بها نسل سام بن نوح . وقد اختلف اللغويون في كيفية تفرعها بعضها من بعض ، والظاهر أن اللغات السامية الرئيسية الحية إلى الآن وهي السريانية والعبرانية والعربية لم تشتق احداها من الأخرى ، ولكنها فروع لأصل قد طوته يد الأيام ، وهو لغة قدماء الساميين الذين سكنوا ما بين النهرين . وقد دعاها علماء اللغة باللغة الآرامية نسبة إلى آرام أحد أبناء سام ، وهي لغة سكان ما بين النهرين . . وربما كانوا المعبر عنهم في التوراة بسكان أرض شنعار الذين عمروا ما بين النهرين بعد الطوفان .

والظاهر أن سكان أرض شنعار ، لما قضت الأحوال بتشتيت شملهم

وتبعثرهم في جهات آسيا جعلت لغاتهم تتنوع شيئاً فشيئاً بعد تشتتهم كل قوم حسب بيئاتهم وطرق معائشهم ، فسكن بعضهم سواحل سوريا وتنوعت لغتهم وعرفت باللغة الفينيقية ومنها اللغة العبرانية، وسكن آخرون العراق العربي وحدث عن تنوع لغتهم اللغة الأشورية ومنها اللغة الكلدانية والسريانية، وآخرون أقاموا بشبه جزيرة العرب وتنوعت لغتهم وتولد عنها اللغة العربية بفروعها. . ومنها لغة الحبشة ولغة حمير وعدنان، ومنها لغة قريش التي كتب فيها القرآن وهي التي يكتب بها المتكلمون بالعربية حتى الآن.

وتنوع اللغات السامية المتقدم ذكرها ، لم يتم دفعة واحدة بل كان تدريجاً على مقتضيات ناموس الارتقاء الجاري في الطبيعة . . فقد بقيت تلك اللغات في أول أزمان تشتت الشعب السامي زمناً غير قليل متشابهة تشابهاً كثيراً ، كما هو الحال، في المتكلمين في اللغة العربية بعد انتشار الاسلام ، فإن كلاً من الشعوب العربية الآن في مصر وسوريا وبلاد المغرب وغيرهم يتكلمون العربية . . ولكن كل شعب منهم تختلف لغته عن لغات الآخرين اختلافاً قليلاً أو كثيراً بنسبة البعد بينهم والاختلاف في أحوالهم . ولولا القرآن لاستقلت لغة كل شعب حتى لم يعد الشعب الآخر يفهمها كما حصل في فروع اللغة اللاتينية (الفرنسية والاسبانية والايطالية وغيرها) ولكن محافظة المتكلمين في اللغة العربية على لغة القرآن والرجوع إليها في ما يكتبونه ويخطبون فيه جعل في لغاتهم المولدة مرجعاً يجمع لغاتهم إلى أصل واحد كما لا يخفى .

أما في الأزمان الغابرة، يوم تشتت نسل سام في العالم ، فلم يكن عندهم لغة مدونة يرجعون إليها ، ولا كان بينهم رابطة يجتمعون بها لاعراقهم في الجاهلية . . فكانت العوامل الطبيعية تؤثر في تنويع لغاتهم أكثر كثيراً مما تفعله اليوم ، فأصبحت على توالي الأجيال لغات مستقل

بعضها عن بعض كل الاستقلال . على أن الباحث في أصول تلك اللغات لا يعدم وسائل في ردها كلها إلى أصل واحد لتشابه أصولها وقواعدها ، فاللغة العربية والسريانية تتشابه كثيراً في اشتقاقها وتصاريفها ومعاني ألفاظها حتى لا تدع شبهة في وحدة أصلها .

ويستنتج مما نقرأه في أسفار العهد القديم أن تلك اللغات كانت كثيرة التشابه في الأزمنة الأولى إلى زمن خروج الاسرائيليين من مصر وما بعده ، فإن الاسرائيليين قضوا أربعين سنة في برية سيناء وجزيرة العرب وكانت لغتهم العبرانية . . ولكنهم عاشروا العرب وخالطوهم وكانوا يتفاهمون بلا ترجمان . وهناك حوادث كثيرة ذكرتها التوراة تدل على تفاهم العرب والعبرانيين ، من جملتها زيارة ملكة سبأ ـ وهي من ملوك العرب ـ لسليمان بن داود ملك اليهود في القرن العاشر قبل الميلاد أي بعد زمن موسى بخمسة قرون ، فإنها زارت الملك سليمان وتفاهما بغير واسطة المترجمين . وكذلك نزوح اسماعيل وسكناه في بلاد العرب وقيامه بينهم وما شاكل ذلك ، وكلها أدلة على أن فروع اللغات السامية كانت إلى ذلك العهد متشابهة كل التشابه إذ لم يكن قد مر عليها الزمن الكافي لاستقلال احداها عن الأخرى . .

أما بعد تلك الأزمان، فأخذ كل قسم منها يستقل بألفاظه وتراكيبه ويبتعد عن الآخر حتى صار لغة مستقلة شأن كل شيء من أحول هذا الكون .

فاللغة العربية إذاً هي إحدى اللغات السامية المتفرعة من اللغة السامية الاصلية المفقودة الآن ، ويسميها بعضهم اللغة الآرامية كما قدمنا . وفي اعتقادنا أن لغة اشور وبابل التي قد عثروا على آثارها منقوشة بالأحرف الاسفينية أو المسمارية في آثار مملكة أشور أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأصلية إذا لم تكن هي بقيتها . ولعل مزاولة درس تلك الآثار

على توالي الأيام وتجديد النقب والبحث يؤ يد هذا الاعتقاد[1] .

---

(١) بينا مركز اللغة العربية من اللغات السامية في تعليقنا السابق ، أما الآثار اللغوية التي وصلتنا قبل القرن السادس الميلادي وتاريخ جزيرة العرب قبل هذا القرن فيلقيان ضوءاً على تاريخ اللغة العربية ويبينان ما أراد أن يوضحه المؤلف عن اللغة قبل الكشوف الحديثة .

من المعروف أن اليمن كانت موطن حضارة زاهرة منذ الالف الاول قبل الميلاد . فقد عرف أهلها بمهارتهم في التجارة وبنشاطهم في تعمير بلادهم . وإذا أردنا أن نؤرخ لليمن القديم ، كان العهد القديم وما ورد فيه أول مصادرنا ، فالنقوش البابلية والاشورية ثم كتابات اليونان والرومان الذين عرفوا الحضارة اليمنبة واسموها حضارة جزيرة العرب السعيدة . وكل هذا قليل إذا قيس بما كشف عنه في اليمن من نقوش في العصر الاخير . وهذه النقوش تمثل لنا تاريخ هذه الجهة احسن تمثيل . كتبت هذه النقوش بالخط المسند الذي يحتوي على ٢٨ (أو ٢٩ حرفاً) وهو خط ابجدي اشتق من الخط الكنعاني ذي الاثنين والعشرين حرفاً (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) واضيفت إليه الحروف (ث خ ذ ض ظ غ) وفي تلك الابجدية علامتان للسين . ونتبين من تلك النقوش أنه كانت في اليمن قديماً أربع دول على حرب فيما بينها : المملكة المعينية وهي أقدمها ثم السبئية والقتبانية والحضرمية . ويظهر أن ملوك سبأ تغلبوا على معين في القرن الثامن قبل الميلاد وقضت مملكة سبأ كذلك على مملكة قتبان حوالي سنة ١٠٠ قبل الميلاد ، وأدالت مملكة حضرموت حوالي سنة ٣٠٠ ميلادية . وقامت الحبشة بحملات على اليمن منذ القرن الرابع الميلادي . وتهود ملوك اليمن وظهرت دولة ذي نواس سنة ٥٢٥ ميلادية ، ثم تم للفرس فتح اليمن سنة ٥٧٠ ميلادية وقضت بذلك على الحضارة اليمنية القديمة . وتصف لنا النقوش اليمنية حروب ملوك اليمن وبنائهم الهياكل وتتحدث عن قوافلهم التجارية وتعميرهم للأراضي وعن أعمال الري وتأسيس المدن وعبادة الآلهة .

أما لغة النقوش فهي وسط بين العربية الفصحى والحبشية القديمة ومن خصائصها ميم الاعراب ونون التعريف وفيها جمع التكسير والفرق بين المنصرف وغير المنصرف .

وتتفرع لغة نقوش اليمن إلى لهجتين رئيسيتين : المعينية ، والسبئية ونجد في المعينية بعض خصائص تقربها من البابلية القديمة فضمير الغائب فيها (سين) وفي البابلية (شين) وهو في السبئية (هاء) وكذلك وزن أفعل فهو في المعينية (سفعل) وفي البابلية (شفعل) .

وكان المعينيين من هاجر إلى الشمال ، فقد عثر على نقوش معينية بالقرب من العلا في الحجاز ، ويظهر فيها أن منهم من استقر هناك في القرون القريبة من الميلاد .

ومن الغريب أن هذه النقوش اليمنية القديمة دونت لهجاتها المختلفة بأسلوب واحد في الفترة ما بين القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وبين القرن الرابع أو الثالث الميلادي وهذا يوضح أن اللغة التي استخدمت في النقوش كانت لا تعبر عن لغات التخاطب .

أما في شمالي الجزيرة ةفقد كانت الممالك التي ظهرت منذ القرون الأخيرة قبل الميلاد ممالك=

كم هي العلوم اللغوية

أما اللغات على العموم ، فعلومها درجات متتاليات :

الأول ـ يبحث عن ألفاظ اللغة من حيث بنائها ومشتقاتها وتركيبها

= ارامية حضارتها ارامية ، وكان معظم سكانها وملوكها من العرب . فكانت مدينة الرها مركز السريانية ، في القرن الاول بعد الميلاد مركز مملكة تحكمها اسرة عربية . وكانت المدنية العربية في القرون الأخيرة قبل الميلاد تختلف في الشمال باختلاف المناطق . ولم يعرف عرب الشمال الكتابة أو لم يصلنا منهم ما يدل على أنهم عرفوا الكتابة حتى قبيل الميلاد ، ولذلك لا يمكننا الجزم بما كانوا عليه . وإذا اعتمدنا على ما ذكره عنهم جيرانهم فإن هذا لا يسد النقص . جاء ذكر العرب لأول مرة في النقوش الاشورية حوالي القرن الثامن قبل الميلاد حين ذكرت أول اسم عربي هو « جندب » وهو اسم ملك العرب الذي حارب الاشوريين . وذكرت النصوص الاشورية والكنعانية بعض اسماء الاعلام والاماكن العربية . أما في القرون الاولى قبل الميلاد فقد اختلفت الحال إذ عثرنا على ثلاث لغات عربية كتبت بأقلام مختلفة هي : اللحيانية والثمودية والصفوية . أما اللحيانية فهي لغة قبائل سكنوا العلا في طريق الحج شمالي المدينة واسمها القديم « ددن » وكانت القبائل المعينية تسكنها قبل اللحيانيين ووجدت النقوش اللحيانية في العلا وفي الحجر شمالها (مدائن صالح) وقد كتبت بخط اشتق من المسند . ولعل صلة اللحيانيين وهم من عرب الشمال بالمعينيين وهم من عرب الجنوب ساعدتهم على كتابة لغتهم . .

وأما الثمودية فهي لغة قبائل من عرب الشمال سكنوا المنطقة التي تمتد من جبل شمر إلى ساحل البحر الاحمر ومن تبوك إلى العلا حيث وجدت لغتهم مدونة على الحجارة ووجدت أيضاً في شبه جزيرة سيناء وفي صحراء مصر . وقد أطلق عليهم المستشرقون اسم ثمود الذي جاء ذكره في النصوص الاشورية آخر القرن الثامن قبل الميلاد وورد في الكتابات اليونانية والرومانية ثم جاء ذكرهم في القرآن الكريم . .

أما الصفوية فقد اشتق اسمها من واحة الصفاء الواقعة وراء جبل الدروز . ووجدت النقوش الصفوية في الحرة وفي أم الجمال في جنوبي حوران وفي الصالحية على الفرات . واشتقوا قلمهم من المسند مما يدل على صلتهم بالقبائل اليمنية .

وتتفاوت هذه اللغات العربية الثلاث فيما بينها كما كانت تختلف نظمهم الاجتماعية . فلحيان مثلاً كانت تسكن واحة على نقطة التماس بين نفوذ النبط ونفوذ اليمن وكانت تحت حكم ملوك ثابتين . والصفويون هم سكان الحرة وهي أرض جدباء وملجأ للقبائل الضعيفة والحكم عندهم شورىً فلم تشترط في حاكمها سلالة ملكية وكانوا رعاة فقراء قطاع طرق لا يتأثرون بحضارة جيرانهم . .

وتختلف هذه اللغات الثلاث عن العربية الفصحى . وهذا واضح لأن مناطقها تبعد عن

واعـرابها وأوجـه استعمالهـا حقيقة أو مجـازاً لمقاصـد في التعبير . وهـذا ما

= منطقة النفوذ العربي ومنافذ الفكـر العربي مثـل مكة والمـدينة والـطائف . ولا نرى في النقـوش اللحيانية إلا حوادث التاريخ عند ملوك النبط لا عند ملوك العرب . وتقف كـل هذه النقـوش عند أواخر القرن الثالث بعد الميلاد وتنتهي معها المدنية العربية الشمالية .

نقف عند العصر الذي يتوسط بين المدنية القديمة في بلاد العرب وبين ظهـور الاسلام . وأول أثر لهذا العصر هو نقش على قبر الملك أمرىء القيس بن عمرو وهو مؤرخ سنة ثمان وعشرين وثلثمائة بعد الميلاد . والملك المـذكور هـو امرؤ القيس ثـاني ملوك الحيرة جـد المناذرة وقبـره في النماري الواقعة في الحرة شرق جبل الدروز ، والنمارة كانت موطن قبيلة لخم . لم يكتب هـذا النقش بخط مشتق من المسند بل بقلم متأثر بالقلم النبطي أو هو وسط بين النبطي والكوفي العربي . وترد في هذا النقش عدة كلمات ارامية أو نبطية ومع هذا فهو مكتوب بلغة عربية شمالية قريبة من العـربيـة الفصحى . ونعـده أول أثـر من الآثـار التي وصلتنـا بـاللغـة العـربيـة الشمـاليـة الفصحى . أما وجود الألفاظ الآرامية في النقش فتدل على أن العرب حين كتبـوا دخلت بعض ألفاظ ارامية في كتاباتهم من أثـر اتصالهم بـالحضارة الآرامية . وذكر النص أن امـرىء القيس « ملك العرب كلها » وهـذه هي المرة الاولى التي نعـثر فيها عـلى هذا اللقب الـذي يشير دون شك إلى محاولة في ايجاد وحدة سياسية للعرب . وقد كانت الامم المجـاورة تطلق اسم العـرب على القبائل التي غلبت عليها البداوة أي أن اسم العرب كان يقابل عندهم شعـوب الباديـة لا علماً على أمة بعينها ، واستعمال النقش لكلمة العرب استعمال خاص يخـالف ما كـان معروفـاً من قبل ، فهو يدل هنا على أمة بعينهـا من أمم البدو . وقـد كان العـرب إلى القرن الـرابع أو الثالث بعد الميلاد تغلب عليهم حضارة نبطية وآرامية وكانت نقـوشهم كلها مكتـوبة بلغـة من اللغات الآرامية . ولهذا يعتبر هـذا النقش أول نقش عربي يعبـر فيه العـرب عن أنفسهم وعن شمال الجزيرة فالدول العربية التي أخذت بالحضارة الآرامية زالت شخصيتها وتحولت إلى ولايات رومانية منها مملكة النبط سنة ١٠٦ ميلادية ومملكة تدمر سنة ٢٧٣ ميلادية .
رومانية منها مملكة النبط ١٠٦ ميلادية ومملكة تدمر سنة ٢٧٣ ميلادية .

وتغلب الفـرس في الشرق عـلى ولايات عـربية مختلفـة كـانت تصـطبـغ بـالصبغـة الآرامية أو اليـونانيـة . وبزوال هـذه الدويـلات زالـت الثقافـة المختلفة التي كـانت تـطغى عـلى شعـوبهـا العربية ، ومكنت لهذه الشعوب والقبـائل من الـظهور وتـأسيس دويلات جـديدة تغلب عليهـا الصفة العربية .

أما في الجنوب فتخبرنا النقوش اليمنية منذ القرن الرابع الميلادي بظهور عنصر جديد في اليمن هو « الاعراب » ـ وأخذ هذا العنصر يندمج بالتدريج في الاهـالي وغلبت لغته عـلى لغة البـلاد الاصلية وقد هيأت الاحداث السياسية من فتح الحبشة والفرس لليمن قبول الاعـراب على مـا يظهر .

وتكونت من هذا كله وحدة الأمة العربية قبيل الاسلام وتقاربت لهجاتها .

تُعلِّمه المدارس في أيامنا كالصرف والنحو والمعاني والبيـان مما هـو ضروري لكل كاتب .

الثاني ـ يبحث عن تاريـخ تلك الألفاظ وتنـوعها ودلالتهـا مع مـا طرأ عليها من التغيير بتجريد بسيطها وحل مركبها وهذا ما ربما صحت تسميتـه « علم اللغـة أو فلسفتهـا » وبمـوجبـه تُـرد ألفـاظ كـل لغـة إلى أصـول أو موضوعات محصورة عداً بسيطة بناءً .

الثالث ـ مقابلة هذه الأصول من لغات مختلفة وردهـا إلى أصول قليلة مشتـركة ، وهـذا ما يـدعى بعلم « مقابلة اللغـات » وقد تمكن علمـاؤ هـا بواسطته من تقسيمها إلى صفوف ورتب وعائـلات . وهم ينتظرون الـظفر برد جميع ما ينطق به البشر إلى أصول قليلة .

الـرابع ـ وهـو أسماهـا ، يبحث عن كيفية تـوصل الانسـان إلى هذه الأصول وكيف نطق بها أولاً[1] .

---

(١) مر تاريخ علم اللغة بأطوار مختلفة ، واهتم العلماء في كل طور من هذه الأطـوار بالبحث عن العلوم المختلفة التي تدخل في نطاق علم اللغة . وقد عد جرجي زيـدان أربعة علوم نتيجـة لما وصل إليه العلماء في هذا الطور .
ثم جاء طور بعده عد العلوم اللغوية على الوجه الآتي :
١ ـ علم الصوت .
٢ ـ علم الدلالة : ويشمل علم المفردات ، وعلم الاساليب، والقواعد وتشمل علم البنية وعلم التنظيم . ويشمل كـل من علم الاساليب والبنيـة والتنظيم ثـلاثة علوم : التعليمي والتـاريخي والمقارن .
٣ ـ أصول الكلمات (ومنه اسماء الاعلام والاماكن) .
٤ ـ حياة اللغة (ومنها علم اللهجات) .
٥ ـ علم الاجتماع اللغوي .
٦ ـ علم النفس اللغوي .
٧ ـ نشأة اللغة . وأكثر العلماء رأى أن يخرجه من العلوم اللغوية ويلحقه بـالبحوث الفلسفيـة وعلم ما وراء الطبيعة .

تمهيد

اللغـة مؤلفة من الألفـاظ ، والألفاظ تقسم بـاعتبار الـدلالة إلى ذات دلالة مطلقة . . وندعوها تسهالاً « ألفاظاً مطلقة » وهي التي تصح الدلالة

أما الطور الأخير فقد عد العلوم اللغوية على الوجه الآتي :

١ ـ علم الصوت .

٢ ـ علم المفـردات : البحث في أجزاء الكـلام الدخيـل والمولـد ـ علم البنيـة ـ علم الـدلالـة (المعنى وحياة الكلمة) .

٣ ـ انشاء الجملة (علم التنظيم): البحث في مجمـوعة الكلمـات والجملة ـ ترتيب الألفـاظ ـ أنواع الجملة ـ علم التنظيم المنطقي والنفسي .

٤ ـ طرق التعبير (علم الاسـاليب) اللغة والأسلوب ـ درجـات الاسلوب ـ الاخراج ـ النبـر ـ تناسق الاصوات ونشاذها ـ قيمـة الكلمة ـ قيمـة الصيغ ـ قيمة التكوين ـ الاسلوب والبـلاغة ـ سيكولوجية التعبير ـ التصنع ـ الجمال .

٥ ـ تكوين اللغة ـ (علم النحو الوصفي): قـواعد اللغـة ـ أثر التقليـد والمنطق والاستعمـال ـ الحدود الجغرافية للغة ومناطق الحدود ، والحدود الاجتماعية .

٦ ـ تـطور اللغة (علم النحـو التـاريخي) الاشتقـاق ـ ميـلاد الكلمـات (الـدخيـل ـ محـاكـاة الصوت ـ المولد) ـ عناصر التكوين ـ تسرب الكلمات ـ تغير الأصوات ـ تغير الصيغ ـ تطور المعاني ـ تطور البنية ـ تطور التنظيم ـ عوامل التطور ـ دور الادب ـ تطور الاسلوب ـ حياة الكلام .

٧ ـ قرابة اللغـات (علم النحو المقـارن): التشابـه بين اللغـات ـ قيمة الصـلات (ملاحـظة الصـدفة في التشـابه ومـلاحظة الـدخيل) ـ الصـلات بين الصيـغ ـ صعوبـة المقابلة ـ القـرابـة ـ الطوائف اللغوية .

٨ ـ طبيعـة اللغة وقـوانينهـا(علم النحـو العـام): وحـدة القـرابـة اللغـويـة ـ أنـواع اللغـات (التحليليـة والوصليـة والعازلـة واللصقية والمتصـرفة) ـ المبـادىء التي يقوم عليهـا علم النحو العام ـ والقوانين والاتجاهات ـ انتظام القوانين الصوتية ـ دور القوانين الأوليـة في النفس ـ توارد الخواطر والقياس ـ عمل العادة ـ عمل الحيـاة في المجتمع ـ الاتجـاه إلى اللغات المشتـركة ـ دور الـدخيل ـ حـدود التوحيـد ـ الاتجاه إلى الاختـلاف ـ التعبـير الخـاص ـ التعبـير المحـلي ـ حيـاة اللغات ـ أصل الكلام .

٩ ـ العلوم المسـاعدة لعلم اللغـة (العلوم التاريخيـة وفقـه اللغـة): صلة علم اللغـة بـالعلوم التـاريخية ـ فقـه اللغة ـ الكتـابة ـ الابجـدية ـ تعـويض لغة التخـاطب ـ النصوص المنقـوشـة ـ النصوص الادبية ـ تاريخ الكتابـة ـ نقد النصـوص ـ التاريـخ الادبي ـ الاوزان الشعريـة ـ دور الشعر ـ اللغة الادبية ولغة التخاطب .

بواحدة منها على أي موجود حسياً كان أو معنوياً ، وتشتمل على الضمائر وأسماء الاشارة واسم الموصول بما شاكل ذلك . وإلى ذات دلالة مانعة وندعوها تساهلاً « ألفاظاً مانعة » اي لا يمكن الدلالة بأحدها إلا على قسم من الموجودات أو على نوع واحد من المعنى . فبقولنا « حيوان » مثلاً نقصد بعض الموجودات ، وهكذا لو قلنا « مادة » أو « قوة » إذ يخرج في الأولى جميع ظواهر القوة كالانفعالات والعقليات ، وفي الثانية تخرج المادة وظواهرها . ولكن بقولنا « هذا » ربما نقصد الحيوان أو المادة أو القوة أو المحبة أو الحزن أو الفرح أو ما شاكل ذلك . وتقول « أنت » لكل ما تخاطبه جماداً كان أو حياً حسياً أو معنوياً ، وهكذا في البواقي . والألفاظ المانعة تُقسَّم إلى « دالة على معنى في نفسها » وتنحصر في الفعل والاسم ومشتقاتهما و « دالة على معنى في غيرها » وهي الحروف وما شابهها .

موضوع هذا الكتاب

سنقتصر في هذا الكتاب على بعض الملاحظات التي تراءت لنا أثناء مطالعتنا بعض العلوم اللغوية وهي تتعلق بالدرجة الثانية من العلوم اللغوية أي « فلسفة اللغة » في العربية ، وربما أدخلنا بعض ما يتعلق بالدرجات الأخرى تعزيزاً للبرهان .

والموضوع يقوم بخمس قضايا ونتيجة . والقضايا هي :

١ - إن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هي تنوعات لفظ واحد .

٢ - إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها ، إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها .

٣ - إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها ، يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية تحاكي أصواتاً طبيعية .

٤ ـ إن جميع الألفاظ المطلقة قابلة الرد بالاستقراء إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ .

٥ ـ إن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ وضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية .

النتيجة :

إن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول محصورة عداً أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً .

فمن الواجب أولاً اثبات القضايا المذكورة وهي مقدمات خمس ، لعلنا نستطيع اثبات ما دعوناه « نتيجة » وبالله التوفيق[1] .

---

(١) كان على جرجي زيدان أن يأخذ في دراسته للغة بنظرية من النظريات الأربع التي عرفت في عصره .

الاولى : إن نشأة اللغة ترجع إلى الهام الهي هبط على الانسان فعلمه النطق واسماء الاشياء (انظر ابن فارس في الصباحي) .

الثانية : إن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال الفاظها ارتجالاً (الاسفرائيني أبو اسحق ـ السيوطي ـ ابن خلدون) .

الثالثة : إن نشأة اللغة ترجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الانساني ، وإن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به . كما أن غريزة التعبير الطبيعي عن الانفعالات تحمل الانسان على القيام بحركات وأصوات خاصة كلما قامت به حالة انفعالية معينة ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الانسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الانسانية الأولى لم يستخدم الانسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب « مكس مولر » و « رينان » .

* * *

=

. . . .

= اعتمد « مكس مولر » في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الاوروبية . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعاً ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك ، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأصلية لهذه اللغات ، وتبين له من تحليل هذه الاصول أنها تدل على معان كلية ، وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة . وهذا برهان على أن اللغة ليست نتيجة تواضع واتفاق (النظرية الثانية) لأن التواضع يتعارض مع طبيعة النظم الاجتماعية ويتوقف على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون . ولا يعقل أن تكون هذه الوسيلة هي اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الانسان من هذه اللغة ، ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الاشارة لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أي على أمور معنوية يتعذر استخدام الاشارة الحسية فيها . وفي عدم وجود تشابه بين اصواتها وما تدل عليه (انظر ابن جني في الخصائص باب امساس الألفاظ أشباه المعاني) برهان قاطع على أن اللغة الانسانية لم تنشأ من محاكاة الانسان لاصواته الطبيعية أي أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، وأصوات الحيوانات والاشياء .

* * *

وعلى هذا فإن اللغة نشأت من غريزة الانسان بالتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ومن استعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة .

والاعتراض على هذه النظرية أنها لا تحل مشكلة نشأة اللغة بل تأتي بمشكلة أخرى وهي الغريزة الكلامية . والنظرية تقرر « أن الانسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الاصوات » وهذا لا يفسر المشكلة بل يقررها . فقدرة الانسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ نوع من الاصوات لا يهم وإنما العبرة بالوقوف على المظهر الأول لاستغلال هذه القدرة والافادة منها في تكوين اللغة أي في المسلك الذي وضع به الانسان أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التي دفعته إلى هذا . وذهبت النظرية أيضاً إلى أصول خمسمائة تمثل لغة الانسانية الأولى وهذه الأصول تدل على معان كلية . وادراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في نشأة الانسانية ، وإنما هي بقايا لغة قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الرقي والكمال .

الرابعة : يذهب اصحابها إلى أن اللغة نشأت من الأصوات الطبيعية أي التعبير عن الانفعالات ، وأصوات الحيوان ، وأصوات مظاهر الطبيعة وارتقت تبعاً لارتقاء العقلية الانسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الانسان وما إلى ذلك « انظر ابن جني في الخصائص وابن سينا في اسباب حدوث الحروف ، « ووتني » في اللغة ودراستها ظهر سنة ١٨٦٧ وحياة اللغة سنة١٨٧٥ » . وبهذا تذهب النظرية إلى أن الانسان بدأ بمحاكاة الاصوات ، وقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت =

. . . .

= المحاكي أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشؤون . واستخدم في هذه المحاكاة قدرته على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع . وكانت لغته في مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه بالاصوات الطبيعية التي أخذت عنها ؛ قاصرة عن الدلالة على المقصود ، ولذلك كان لا بد لها من مساعد يعين على ادراك ما ترمي إليه . وقد وجد الانسان خير مساعد لها في الاشارات اليدوية والحركات الجسمية التي سدت فراغاً في اللغة الصوتية . واتسع نطاق اللغة تبعاً لارتقاء التفكير ومظاهر الحضارة واخذ الانسان يستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الاشارات . وتبعد اللغة عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة مثل التطورات الطبيعية التي تعتور الصوت وأعضاء النطق الانساني والعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات وما إلى ذلك . .

* * *

رأى جرجي زيدان أن النظرية الرابعة هي أقرب إلى المعقول ، وأكثر اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية ، ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها أو على صحتها وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الاخذ بها . وقد أخذ بها جرجي زيدان وحاول أن يطبقها على اللغة العربية مستعيناً بآراء أئمة فقه اللغة من العرب وبخاصة ابن جني .

القضيّة الأولى

« إن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هي تنوعات لفظ واحد »

كثيراً ما أشار أئمة اللغة إلى هذا النوع من الألفاظ ، وقد ارتأوا فيه مذاهب شتى لا حاجة لسردها في هذا المقام . أما الاستقراء والمقابلة فقد أثبتا أن هذا التقارب لم يكن عبثاً بل هو دلالة قوية على أن هذه الألفاظ ليست إلا تنوعات أصل واحد وأن هذه التنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمي الاعتبار هما : القلب والابدال .

القلب

هو عبارة عن تقديم أو تأخير أحد حروف اللفظ الواحد مع حفظ معناه أو تغيره تغيراً طفيفاً ، وهو أقل وروداً من الابدال . ومن أمثلته قولهم بمعنى داحد . لَطم ولَمَط . وذَبح وبذَح . وبعزَق وزَعبق . والبهلق والبلهق (المرأة الحمراء جداً) . وجذبَ وجبذَ . ورفأ وأرفَ . وتبرعصَ وتبعرص . . بمعنى اضطرب . وعفلطَ وعلفطَ (خلطَ) وملجَ ولَمجَ . وبرشق اللحم وشبرقهُ وشربقهُ بمعنى قطعهُ . وسكبَ وسبكَ . ويقال بشغت الأرضْ وبغشتْ أي أمطرت قليلاً . وفقاهُ يفقوهُ بمعنى قفاهُ يقفوهُ . وضبَّ وبضَّ بمعنى سالَ وكذلك صبَّ وبصَّ . وبضعَ وعضبَ وبعضَ جميعها بمعنى قطعَ . ويقال بِضع أو بعض أيام والفرق بالمقدار فقط . والقبطُ والقطب الجمع باليد . وقطبَ الوجهَ وقبطهُ بمعنى واحد . وبكعَ

وكبعَ بمعنى قطعَ . ويقال نضب الماء ونبضَ غارَ . ولعسَ ولسَع تدلان على نوع واحد من المعنى وهكذا في ما بقي . هذا ولا يخفى أن كثيراً من الألفاظ المقلوبة تخسر معناها الأصلي بالاستعمال فلا يعود يمكننا الجزم بأنها مقلوبة . .

أما سبب القلب فهو في الغالب الميل لتخفيف اللفظ أو للتفنن فيه ، ويحدث في الغالب اعتباطاً . ومثل ذلك كثير الحدوث بين عامتنا فإن معظمهم يقولون « رعبون » في « عربون » . و« اجر » في « رِجل » . وبعض أبناء اللغة يقولون « أطعى » بدلا من « أعطى » . والسوريون ولا سيما البيروتيون يقولون « اجا » في « جاء » وكثيرون منهم لا يميزون بين « قعدَ » بمعنى جلس و « عقدَ » بمعنى ربط فيخلطون بينهما وقد قلَّ بينهم من يلفظ كلمة « زَوْج » على حقها فإن معظمهم يقولون فيها « جوز » وهم يقولون « زَقفَ » بمعنى « صفق » فوقع في هذه اللفظة القلب والابدال معاً .

الابدال :

أما الابدال في ألفاظ اللغة فأعظم أهمية لأنه أوسع دائرة وأشد تأثيراً . وهو عبارة عن ابدال حرف من كلمة ما بحرف يقرب منه لفظاً . ويحصل الابدال غالباً بين الحروف التي هي من مخرج واحد أو مخارج متقاربة .

وتقسم الحروف باعتبار مخارجها إلى حلقية ، ولسانية حلقية ، ولسانية سنانية[١] وسنانية أو صفيرية وشفوية[٢] . والابدال يحصل بين أحرف كل

---

(١) سنية

(٢) مخارج الحروف العربية :

عـ ، هـ ، من أقصى الحلق ـ ع ، ح من وسط الحلق ـ غ ، خ من أدنى الحلق إلى الفم ـ ق من أقصى اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك ـ ك من أقصى اللسان من اسفل مخرج القاف قليلاً وما يليه من الحنك ـ ج ، ش ، ي من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك ـ ض من =

مخرج وبين مخارج مختلفة الأقرب فالأقرب . وهاك ترتيب الحروف باعتبار قابليتها للابدال ع ء هـ ى ح خ غ ق ك . ل ر ن . ض ط د ت . ج ش ث س ص ز ظ ذ . ف ب و م .

وقد يقع الابدال بين الأحرف المتقاربة في حكاية أصواتها ولو كانت من مخارج متباينة كالتبادل الحاصل كثيراً بين الميم والنون لأن السامع قد يخلط بينهما والعامة قد أبدلت ميم الجمع نوناً ، وهذه أبدلت ميماً في أماكن كثيرة . ومن هذا النوع التقارب الحاصل في حكاية أصوات الفاء والخاء والثاء ، كقولهم ثلغ وفلغ بمعنى شقَّ . . فإن الأذن لا تكاد تفرق بين لفظيهما ، وكذلك الحثالة والحفالة (الردى من كل شيء) واغتثت الخيل واغتفت أصابت شيئاً من الربيع . ومن هذا القبيل الاشتباه بالسمع بين صوتي الكاف والتاء ، كقول بعض العامة « تان » في « كان » .

أما الأدلة على قابلية الحروف للابدال فكثيرة ، منها ما قد طرأ على اللغات السامية بعد تفرقها لأنه من المقرر أنها ـ أي العربية والعبرانية والسريانية ـ كانت لغة واحدة تتكلم بها أمة واحدة تحت لواء واحد ، وأنها بعد أن قُدر للناطقين بها بالفراق أخذت تتنوع تبعاً لمقتضيات أحوال كل

= أول حافة اللسان وما يليه من الاضراس ـ ل من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ـ ن من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا اسفل اللام قليلاً ـ ر من مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا العليا ـ ط ، د ، ت من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مصعداً إلى جهة الحنك ـ ص ، س ، ز من بين طرف اللسان فويق الثنايا السفلى ـ ظ ، ذ ، ث من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ـ ف من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ـ و ، ب ، م مما بين الشفتين . .

وأضاف علماء اللغة القدامى من العرب صفات للحروف لأن المخرج يشترك فيه أكثر من حرف ولا يكفي لمعرفة الحرف وتمييزه تحديد مخرجه فقط بل لا بد من تحديد صفة أيضاً فوصفوها بالمجهور والمهموس ووصفوا كلاً منها بالشديد والمتوسط والرخو ثم قسموا الحروف إلى مستعلية ومستقلة وسموا الحروف المجهورة الشديدة بحروف القلقلة وبعض الحروف المستعلية « ض، ط ، ص ، ظ » سموها بالمطبقة .

فريق منهم ، فوصلت إلينا على ما نشاهدها . وهذا الاختلاف قد جرى على ناموس الابدال ، ويكاد يكون قياسياً بدليل ثبوت النسبة بين الأحرف المتبادلة . . لأن ما كان من الألفاظ من أصل واحد فيها جميعها ، نرى أنه إذا كان أحد مقاطع اللفظة العربية « ثاء » مثلاً يكون في مكانها في العبرانية « شين » وبالسريانية « تاء » نحو « وثب » العربية فإنها في العبرانية « يشب » وفي السريانية « يتب ». و « ثدى » في العربية فإنها « شدا » في العبرانية و « تَدا » في السريانية . وإذا كان ذالاً في العربية كان زاياً في العبرانية ودالاً في السريانية كَذكَر و « زكر » و « دكَر ». والألف في العربية والسريانية هي هاء في العبرانية مطلقاً نحو « ما » الموصولة في الأوليين فهي « مَهْ » في الأخيرة . والسين العربية شين في أختيها نحو « سأل » فإنها فيهما « شال ». والغين العربية عين فيهما ، فالعرب يقولون « غرب » والعبرانيون والسريانيون يقولون « عَرب » بالعين . والخاء العربية حاء فيهما ، فنحن نقول « خرِب » وهم يقولون « حرب ».

وأمثال هذا التبادل كثيرة عادية ، وفي الغالب قياسية كما رأيت بحيث يكاد المتكلم باحداها يفهم ألفاظ الأخرى فهماً تاماً ، ولا يكون على شيء من أمرها بشرط اطلاعه على ناموس هذا التغيير[1] . وفي العبرانية

---

(١) تغيرات الحروف نسميها الآن قوانين صوتية وقد سماها قدماء العرب أصولاً مطردة . وهذه التغيرات تحدث في اللغات السامية بغير استثناء . وأن وجدت استثناءات قليلة فيجب أن يكون لها سبب خاص . وهناك تغيرات اتفاقية وهي لا تحدث في كل كلمة يقع فيها الحرف بل في بعضها فقط ولا قانون لحدوثها بل هي في الظاهر حدثت اتفاقاً وفي الباطن لا بد أن يكون لحدوثها أو عدم حدوثها سبب لا نعرفه . .

والتغيرات المطردة منها مطلقة ومنها مقيدة بشروط . أما المطلقة فمثل أبدال الياء في اللغة السامية الاصلية فاء في العربية فليس لهذا القلب من شرط صوتي يقيده ، وأما المقيدة فمثالها أن الميم الأصلية في أواخر الكلمات في اللغة انسامية الاصلية صارت نوناً في العربية وذلك أن قلب الميم نوناً مطرد من حيث أنه حدث في كثير من الكلمات ولكنه مقيد من حيث أنه اقتصر على أواخر تلك الكلمات فقط ولم يتعداها إلى أوائلها ولا اواسطها ومثال ذلك التنوين في العربية فإن أصله ميم في السامية الأصلية وهي على هذه الصورة في الاكدية والسبئية . وقليل=

والسريانية ستة أحرف يستعمل كل منها لمقطعين من مخرج واحد وهي :

= من الكلمات لم يطرأ على أواخرها هذا التغيير لسبب خاص مثل بقاء الميم في الضمائر أنتم وهم وسبب ذلك أن الميم فيها لم تكن في الاصل نهائية بل كانت انتمو وهمو بالواو ، وعلة التغيرات المطردة الأولية لا نعرفها معرفة يقينية إلا في بعض الحالات منها امتزاج لغتين ومنها ذوق العصر ، أما العلة الثانوية الصوتية وبخاصة في التغيرات الاتفاقية وبعض المطردة المشروطة فنعرفها ، مثال ذلك التشابه والتماثل وهو أن حروف الكلمة مع توالي الزمن كثيراً ما تتقارب بعضها من بعض في النطق وتتشابه والتشابه إما كلي وإما جزئي وهو في الحالتين إما مقبل وإما مدبر وإما متبادل . والتشابه إما أن يكون في كلمة واحدة إذا تلاحق فيها حرفان متشابهان وإما أن يكون بين كلمتين يتشابه فيهما أخر حرف من الكلمة الأولى بأول حرف من الكلمة الثانية . والتشابه من أهم العوامل التي سببت ابدال الحروف وهناك نوع آخر من ابدال الحروف وهو التخالف . ويحدث التشابه بين الحروف المتصلة وبتدوين الحروف المنفصلة . أما التخالف فهو على العكس من التشابه ويرجع سبب التشابه إلى ناحية نفسية وعلى الأكثر إلى الاعصاب والعضلات وكيفية حركتها لأن التشابه يراد به تسهيل النطق واختصاره أما التخالف فسببه يرجع إلى الناحية النفسية مثله في ذلك الخطأ في النطق فالناس يخطئون في النطق عادة إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض لأن الانسان يتصور الحركات اللازمة على ترتيب كلمة قبل النطق بها ويصعب عليه اعادة تصور بعينه بعد حصوله بمدة وجيزة ، ومن هذا ينشأ خطأ الانسان إذا أراد أن ينطق جملة تشتمل على كلمات تتكرر وتتابع فيها حروف متشابهة .

والتخالف نوعان : منفصل ومتصل ، فالمنفصل ما كان بين حرفيه فارق والمتصل ما تجاور فيه الحرفان وهو على الأخص في الحروف المشددة .

وهناك تغير آخر أصله قريب من أصل التخالف وهو التقديم والتأخير أي أن حرفاً من حروف الكلمة يقدم ويؤخر مكانه آخر وسببه أن ترتيب الحركات في التصورات أسهل من تغيرها الموجب للتخالف .

كل هذا عن ابدالات الحروف في اللغة عامة أما اللغة العربية ففيها بعض حروف كثر ابدالها عن غيرها وهي مجموعتان :

الأولى الحروف الصوتية المحضة ، والثانية الهمز وحروف اللين أما الحروف الصوتية المحضة وهي ل ، ر ، ن ، م فيتماثل بعضها بعضاً من ناحية أن الغالب على نطقها كلها الصوت الناشىء عن اهتزاز الاوتار الصوتية في الحنجرة ولهذا السبب كثيراً ما يستبدل بعضها من بعض أو تقدم أو تؤخر .

أما حروف اللين والهمز فكثيراً ما يحذف الهمز ويبدل واواً أو ياء أو بغير عوض . وأقدم ما حدث ذلك في اللغة السامية الأصلية . وأقدم قانون صوتي لهذا الحذف هو أنه إذا توالى همزتان أولاهما في أول مقطع والثانية في آخره حذفت الثانية ومدت الحركة قبلها . ثم أتى النوع الثاني وهو أنه إذا وقعت همزتان في أول مقطعين متتاليين خففت الثانية . وهذا النوع قسمان : منه ما =

ب ج ، ك ، ف ، ت فالأول يلفظ كالباء العربية أو الفاء الفارسية ف ، والثاني إما جيماً افرنجية قاسية كما في Ga أو غيناً عربية ، والثالث إما دالاً عربية أو ذالاً ، والرابع إما كافاً أو خاءً ، والخامس إما فاء عربية أو باء فارسية « ب »، والسادس إما تاء أو ثاء . ويشاهد الابدال في اللغة الواحدة من

= يكون مقطعه الأول من الهمزة المتحركة فقط ، ومنه ما كان مقطعه الأول من الهمزة المتحركة وحرف ساكن .

وتخفيف الهمز من باب التخالف وسبب الحذف والابدال منه توالي حرفين متماثلين ، لكن يختلف هذا التخالف عن الأنواع الأخرى بأن نتيجته تسهيل النطق أكثر مما لو حذف أو أبدل أي حرف آخر إذ أن الهمزة أصعب اخراجاً من غيرها من الحروف إذ ينبغي لاخراجها اغلاق فم الحنجرة ، وهو مفتوح في غيرها ، فينقطع الزفير المتواصل الخروج أثناء الكلام .

أما الواو والياء فيسهل اتحادهما بالحركات إلى حركة واحدة ممدودة والاتحاد نوعان : الأول اتحاد الواو أو الياء الساكنة مع ضمة أو كسرة سابقة لها . والثاني هو اتحاد الحركة السابقة للواو أو الياء بالحركة التالية لها مع حذف الواو أو الياء نفسها . وللواو والياء انقلابات غير الاتحاد منها أنهما في بعض الحالات تحذفان إذا وقعتا بعد حرف ساكن . وحذف الواو والياء يشبه التخالف وذلك أن حركة الواو هي الضمة وحركة الياء هي الكسرة فيتتابع حرفان متماثلان . ومنها قلب الواو ياء وقلب الياء واواً . وقد تستبدل الواو والياء من الهمزة وأكثر هذا التغيير اتفاقي . وابدال الواو أو الياء بالهمزة إذا وقعت بعد فتحة ممدودة مطرد قديم حدث في اللغة السامية الأصلية ونجده في الاكديةوالارامية .

وهاك جدول يبين التبادل المطرد في اللغات السامية .

	غير مطبقة								مطبقة			
	مجهور			مهموس								
السامية	د	ذ	ز	ت	ت	ش	ش	س	ط	ط	ص	ض
الاكدية	د	ز	ز	ث	ش	ش	ش	س	ط	ص	ص	ض
العبرية	د	ز	ز	ت	ش	ش	س	س	ط	ص	ص	ض
الآرامية	د	د	ز	ت	ت	ش	س	س	ط	ط	ص	ع
العربية الجنوبية	د	ذ	ز	ت	ث	س	ش	س	ط	ظ	ص	ص
الحبشية	د	ز	ز	ت	س	س	ش	س	ط	ص	ص	ص
العربية الشمالية	د	ذ	ز	ت	ث	س	س	س	ط	ظ	ص	ص

هذه باختلاف أدوارها وأزمنتها من ذلك في العبرانية « زعق » و « سحق » كانتا تلفظان في أول أدوارها « صعق » و « صحق » ومن قواعد اللفظ في اللغة الاشورية أن الأحرف السنانية (س ص . . .) متى وقعت قبل أحد الأحرف اللسانية (ت د ط . .) تقلب لاماً. وأن اللسانية السنانية متى وقعت قبل « س » تقلب سيناً أو صاداً ولا فرق في هذه اللغة بين الميم والواو لفظاً ، وحرف واحد يدل على كليهما .

ومن الأدلة على وقوع الابدال أيضاً ما نشاهده في العربية من الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى وهي كثيرة ، تقتصر على ذكر بعضها ليقاس عليها . منها قولهم : بَتك وبَشك بمعنى قطَع ولنانَتاً ونشأ بمعنى واحدوبَرتك وبَرشك بمعنى بتكَ . ويقال ابثعرَّت الخيل وابثأرت وابذعرتَّ أي ركضت تبادر شيئاً تطلبهُ . والجبيس والضبيس بمعنى الجامد الثقيل الروح . وبذَّ وبزَّ نهب، وبثَّ وبسَّ فرَّق، ويقال بلج الماء بمعنى برجَ. ونَبج الكلب ونَبح. ويقولون بمعنى السير الشديد أمج وعمج . وهَمج وهبشَ أي ضربَ وكذلك خبقَ وحبقَ والحبقر والعبقر بمعنى البرد (حب الغمام) والظاهر أن الأولى هي الأصل لأنها مركبة من حب وقرٍّ أي برد وكان يقصد بها « حب البردْ » ثم أبدلت الحاء عيناً بالاستعمال فصارت « عبقر ». ولحسَ ولهسَ ولعسَ بمعنى واحد ومثلهُ كسر وقصر . وبرقَ وبلقَ بمعنى شقَّ . ونحزَ ومحزَ ووكزَ بمعنى واحد. ويقال خبَّ الرجل وغبَّ منَع ما عندهُ وقد أتى بهذا المعنى أيضاً هفتَ وخفضَ وهبَط وغمَط وغمض . وضبع في المكان أو قبَع أو قمَع أقام ويقال غبنَ الثوب وخبهُ وكبَنهُ إذا عطفهُ وخاطهُ . وبخسَ عينه وبخزها . والبصط كالبسط في جميع معانيه . وبصعٌ من الليل بمعنى بضعٌ . ويقال بَزق وبسَق وبصق بمعنى واحد . وأفلط على لغة تميم كأفلتَ وفلغ رأسهُ أو ثلغهُ بمعنى شدخهُ وهكذا أيد وأكد وقصم وقطَم وقضم وقشمَ . وتسربلَ وتسغبَل سواء في المعنى . وكذلك الراية والغاية والبلاغة

والبراعة وغنى وقنى . وفي العربية من هـذه الأمثال مـا يكاد لا يقـع تحت الحصر .

فقد ثبت مما تقدم أن الابدال واقع . أما أسبابه فهي في الغالب نتيجة علة طبيعية في أعضاء النطق في أول الأمر ، ثم بالاستعمال تحفظ التنوعات وربما خصصوا كل تنوع لفظي بتنوع من المعنى الأصلي ، ويشبه ذلك ما حدث في اللغة العامة بمصر . فانهم شقوا من لفظ « ثقيل » بالابدال ثلاثة ألفاظ لكل منها معنى مستقل فاللفظة الأصلية ثقيل بالثاء ومعناها معلوم . فأبدلوا الثاء سينا فقالوا « سقيل » ومعناها عندهم ثقيل الروح . وأبدلوها أيضا تاء وقالوا « تقيل » ويريدون بها ثقيل العقل أو الرزين . وقد حصل هذا التغيير اعتباطاً . ويقال نحو ذلك في « ثبات » فقد شقوا منها «سبات» . بالسين بمعنى الصبر و «تباب» بالتاء بمعنى البلادة وثقل الروح . يساعد على حفظ هذه التنوعات افتقار اللغة في أول أدوارها للألفاظ ولأنها
يساعد على حفظ هذه التنوعات افتقار اللغة في أول أدوارها للألفاظ ولأنها
لم تكن محدودة مدونة والابدال جار في كل آن وزمان فكم من الأمم الذين لا يستـطيعون لفظ الـراء راء كما نلفـظها نحن فيلفظونها قـريبـة جـداً من الغـين . ومنهم القسم الأعـظم من الفـرنسيـين والانجليـز وجميـع قـاطني المـوصل وجـوارها . ومن عـامتنـا من يلفـظهـا لامـا وهم في الغـالب من الأحـداث ، وكثيـرون يستحيـل عليهم التلفظ بـالثـاء أو الـظاء أو الـذال فيلفظونها تاء أو سينـا وضاداً أو طـاء ودالاً أو زاياً . ويقـول السوريـون في ظل « ضل » بلفظ الـظاء ضاداً ، وبـالعكس في ضبط فإنهم يقـولون فيهـا « ظبط » وقد أبدلـوا ميم الجمع نـوناً فهم يقـولون « لهن وعليهن » في لهم وعليهم و « بينهن » في بينهم كما سبقت الاشارة . وأهالي بيروت ودمشق لا يلفـظون القاف إلا همـزة مفخمة ، والمصـريون أعـرق في ذلـك فيقـولـون « آل » في قـال و « أميص » في قميص . وأغرب من ذلـك استبدال بعض عـامتنا الحـاء بالتـاء ، فيقولـون « صفتَ » في « صفـحَ » أو الكـاف همـزة

فيقـولـون « أأل » في أكـل و « آسـة » في كـاسـة ، وبعضهم يعكس الأمـر فيلفظ الهمزة كافاً كقولهم سكلَ في سأل .

وطالما قيل لنا أن بعض سكان الباديـة يلفظون الكـاف شيناً فيقـولون « بيتش » في بيتـك ، وهذا مـا يدعى لغـوياً بـالكشكشـة وبعضهم يقـول « انطى » في أعطى أي بـابدال العـين نونـاً ، والبعض لا يستطيعـون لفظ الكاف إلا تاء فيقولون « تان » في كان ، وهكذا في كثير مما لا يسعنا المقـام أستيفاؤه .

فما المانع من حصول مثل هذه التنوعات في اللغـة قبل أن دونت ، إذ تكون أقدر على حفظها لما سبقت الاشارة إليه . وإنه نظراً لكثرة استعمالها اتخـذها الجـامعون ألفـاظاً أصليـة وهم في افتقار إليهـا ، لأنهم كـانـوا قـد خصصـوا كل لفظ حـادث بمعنى حادث ، وإن تكن جميـع هذه التنـوعات قابلة الرد بالاستقراء إلى أصل واحد لفظاً ومعنى . أما بعد أن دونت اللغة وكثرت فيها التآليف ووضعت لها الـروابط ، فقد قلَّت قـابليتها لحفظ هـذه التنوعات مدونة فبقيت محصورة بين العامة .

القضيّة الثانيّة

« إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في
غيرها إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها »

(يشتمل هذا النوع من الألفاظ على الحروف وما يشبهها وأحرف الزيادة الداخلة على الأفعال والأسماء في الاشتقاق) والدليل على ذلك أننا إذا استقرينا هذه الألفاظ في لغات كثيرة متفاوتة تهذيباً ، نرى أنها تقرب من الدالة على معنى في نفسها بقدر ما تبتعد عن الارتقاء والتهذيب حتى نصل أخيراً إلى أدنى اللغات ، فنراها خالية من الأدوات والحروف على الاطلاق ، ولكنها تستخدم بعض الأفعال أو الأسماء لقضاء وظيفتها . وإيضاحاً لهذه القضية أذكر بعض الأمثلة متدرجاً من اللغات الدنيا إلى اللغات الاجنبية المهذبة ثم اللغات الشرقية عموماً ، وأخيراً العربية خصوصاً .

إن الصينيين كما سبقت الاشارة في غنى عن هذه الأدوات ، فيستعيضون عنها بالأفعال والأسماء فيعبرون عن حرف الجر « في » بقولهم « وسط » فيقولون مثلاً « كُوشنغ » ومفادها حرفياً « مملكة وسط » ويقصدون بها ما هو في لغتنا « في المملكة » ولهم في الباء السببية طريقة غريبة فهم يقولون « شَاجِن أي تِنغ » مفادها حرفياً « قتَل رجل استعمل عصا » ويقصدون بها « قتل الرجل بالعصا » ومن قاطني أواسط افريقيا قبائل تُعرف بقبائل « مندنجو » إذا أرادوا تأدية معنى « على » قالوا « كنغ »

أي عنق أو « في » قالوا « كونوا » أي بطن فيقولون لما هو في لغتنا « ضع الكتاب على الطاولة » مثلاً « ضع الكتاب طاولة عنق » وهكذا « في ». وأدوات الجمع والتأنيث والتذكير والصفة وما شاكل في اللغات الصينية ، وهي في الغالب أفعال أو أسماء ذات معان مستقلة .

ومن لغات بعض جزائر المحيط ما لا أدوات فيها لتمييز الجنس أو الحال أو العدد أو الزمن أو الشخص أو ما شاكل ، والمشهور من هذا النوع البولينية . والقياس يقتضي أن لا يمر على هذه اللغات مدة من الزمن حتى لا يعود ممكناً تمييز أصل هذه الكلمات فيحسبونها كذا أنزلت كما هو ظن البعض في لغتنا .

وكان المصريون القدماء يعبرون عن « من » في قولنا « ساعة من ذهب » بلفظة « نسوْ » ومعناها الأصلي « لسان » ولا ندري أي علاقة بين هذين المعنيين حتى استعملت لهما لفظة واحدة ، ولعلهم تصوروا في اللسان صفة الخروج فاستعملوه بمعنى « خَرج من » أي « تكوَّن من » وهو المقصود بقولنا « ساعة من ذهب » . وعندهم « خِم » ومعناها حرفياً « غير عارف » ويستعملونها بمعنى « بدون »[1] .

والباحث في الطائفة الارية يرى أمثالاً لا تحصى جميعها تشهد بصدق قولنا وصحة قضيتنا . ويساعد على ذلك سهولة استقراء أدواتها لتوفر المواد اللازمة لذلك ، وهي اللغات القديمة أمهاتها ، منها اللاتينية والجرمانية القديمة واليونانية والسنسكريتية . وأكاد لا أحتاج إلى ذكر شيء من هذا القبيل نظراً لاشتهار أمرها ، لكن لا بد لي من إيراد بعض الأمثلة زيادة للإيضاح .

---

(١) « نسو » ليس معناها الأصلي لسان . وإنما مكونة من حرف « ن » ويقابله في العربية « ل » وضمير الغائب « سو » أي له أو ما يخصه . و « خم » بالمصرية القديمة « م . خم » بدون . ومعناها الأصلي : « ما لا يعرفه أحد » .

قلما يخطر للمتكلمين بالانجليزية أن Such مثلاً ومفادها « كذا » منحوتة من أصلين يقربان من So— Like ولولا وجود اللغة الانجلوسكسونية أم الانجليزية ، لتعذر استقراؤها . فهي في تلك اللغة Swyic وفي أختها الجرمانية[1] Soich وجميعها بمعنى واحد . وهكذا في Which مفادها « أي » وهذه يمكن تتبعها على الطريقة عينها إلى ما يماثل Who Like وهي في الانجلوسكسونية Hwgie وهكذا الحال في If حرف شرط فإنها تُرد إلى Gif في الانجلوسكسونية و Giveفي الانجليزية أي « أعطى » فكأنهم يقصدون بقولهم If You Come ما هو الأصل :Give That: You Come ولكثرة الاستعمال نحتت إلى If واستغنى عن That فبطل استعمالها فبقيت If حرفاً لا يعرف عنه إلا كونه يستعمل للشرط . وهكذا لو بحثنا عن Iy الاداة التي تلحق أواخر الأسماء فتحولها إلى نعوت والنعوت فتجعلها ظروفاً نحو God اله Godly الهي Generous كريم Generously كرماً فقد استطيع تتبعها إلى Lic الانجلوسكسونية وهي في الانجليزية Like أي « مثل » وفي الجرمانية Lich وفي السويدية Lig وفي اليديش Lyk وجميعها بمعنى واحد فعلموا أن Generously كرماً أصلها Generous— Like « مثل كريم » وهكذا فيما بقى .

أما اللغات الشرقية فتتبع ألفاظها أصعب من المتقدم ذكرها نظراً لقلة المواد اللازمة ذلك كما هو معلوم . . بيد أننا لا نعدم وسيلة في تقديم بعض الأمثلة تقرباً من المقصود .

يستعمل العبرانيون (عِم) والسريانيون (عَمْ) لما هو في لغتنا

(١) اللغات الجرمانية تشمل ثلاث شعب :

١ ـ الجرمانية الشرقية وهي القوطية .

٢ ـ الجرمانية الشمالية وهي لغات ايسلنده والدانمرك والسويد والنروج .

٣ ـ الجرمانية الغربية وتشمل الانجليزية ـ السكسونية (الانجلوسكسونية) والانجليزية الحديثة والهولندية واللغات الالمانية . . . الخ والمؤلف يقصد هنا الالمانية .

(مَعْ) حرف عطف واللفظة عينها في العبرانية وما يقاربها في السريانية تستعمل بمعنى شعب والعم الشرعي . فيستدل من كل ذلك أن الأصل فيها معنى الاجتماع والاتحاد ، فاستعملوها اسماً وأداة عطف كما رأيت . ولا يخفى أن (مَعْ) مقلوبة عن (عَمْ) وعند العبرانيين (مَدُوع) بمعنى « لماذا » مركبة في الأصل من (مَهْ) الموصولة و (يَدُوع) علم . وهم يعبرون عن قولنا « حسب » بقولهم (لفى) وهي مركبة من حرف الجر « ل » و (في) فم . وعندهم بالمعنى عينه (كِفى) من كاف التشبيه و « في » المتقدم ذكرها . وكانوا يستعملون نحو الجيل الثاني عشر قبل المسيح (أشرل . . .) مركبة من (أشِرْ) الذي و (لام الاضافة) بمعنى خاصة أو ملك وبعد ذلك بأجيال اختصروا لفظها حتى صارت تلفظ وتكتب (شلْ) بالمعنى عينه ، فلو لم تحفظ لنا التوراة لغة ذلك العصر لما تيسر لنا تتبع « شِل » إلى « أشرل . . . » .

والسريانيون يستعملون (مِكيل) بمعنى اذن وهي تحل إلى (من) حرف جر و (كيل) مفادها « قياس الزمن » ولديهم « هشا » بمعنى الآن مركبة من (ها) للتنبيه والاشارة و (شعَا) ساعة و (أيكنا) كيف مركبة من « أي » الاستفهامية و (كنا) وهذه أصلها « كهنا » من كاف التشبيه (هنا) هذا أو هذه تحل إلى « ها » التنبيهية و (نا) الاشارة بمعنى « ذا » فكأن الأصل في « أيكنا » « أي كهانا » . وأغرب من ذلك إنهم ركبوا من « هشا » المتقدم ذكرها و « عدْ » حتى و « ما » الموصولة ما مفادهُ « حتى الآن » لكنهم اختصروا في لفظها حتى صارت (عَدْ مشْ) على أن الأصل فيها « عد ما ها شعا » فتأمل .

والاشوريون كانوا يستعملون كلمة « قلب » لما هو في لغتنا « وسط » وكثيراً ما نسمع بعض العامة يقولون « في قلب البيت » ويقصدون في

وسط البيت[١] . ويستعمل المالطيون « تع » للاضافة كما يستعمل الفرنسيون De والانجليز Of ، وعند البحث عن أصلها نرى أنها بقية « متاع » التي لا تزال تستعمل بين عامتنا بمعنى خاصة أو ملك . والمصريون أكثر استعمالاً لها وقد تصرفوا في لفظها فقالوا فيها « بتاع » .

فقد رأيت في ما تقدم أن اللفظة الواحدة تحل إلى لفظين فأكثر ، وإنه بتركيب لفظين فأكثر يحصل لفظ جديد أقل أحرفاً من مجموع أحرفها ، وقد أشرت أن هذه الألفاظ تتحول إلى لفظ واحد بالنحت . وهاك بعض ما يتعلق به زيادة للإيضاح . .

النحت [٢]

النحت ناموس فاعل على الألفاظ ، وغاية ما يفعله فيها إنما هو

---

(١) هذا الاستعمال معروف في اللغة المصرية القديمة « م . حد . ايب » ومعناها : في قلب « أي في » أو في وسط ، وهي في لغة العامة من الاصل المصري .

(٢) قد تقاوم الكلمات القصيرة الانحرافات التي تصيب الكلمات الطويلة باطراد . والكلمات الطويلة على العكس من ذلك ، تقدم لنا في بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها . هذه بوجه خاص هي الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثم يمكن فهمها قبل النطق بها إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفي نفسه من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها في صورة مختصرة . فالبلى الصوتي واضح فيها بدرجة خاصة . هذه الألفاظ في عمومها إما أدوات مساعدة في اللغة ، وأما عبارات محفوظة متداولة ، ولذلك ليست في حاجة إلى وضوح النطق الذي تقتضيه الرغبة في الافهام . ويوجد في كل اللغات أدوات وحروف جر وحروف وصل أصلها في غالب الأمر كلمات قائمة بنفسها تحولت إلى أدوات نحوية . وقد جرت محاولات لتفسيرها بنظرية سرعة الكلام فتحتفظ اللغة تبعاً لهذه النظرية بالصيغة السريعة (التي تؤدي إلى النحت) وبالصيغة البطيئة (النطق الكامل) . ولكن هذا التفسير لا يقنع أحداً . . فالسرعة في اخراج الكلام تختلف من لغة إلى أخرى ، ومن غير الصواب أنه توجد في داخل اللغة نفسها صيغتان في آن واحد وأنه يمكن استخدام هذه أو تلك تبعاً لسرعة المحادثة . والواقع أن هناك كلمة كاملة وهي موجودة في الفكر ، وكلمة مختصرة وهي التي تنطق بها الاعضاء . ونشأت الصيغة المختصرة من اتجاه في اللغة طبق إلى أبعد الحدود ، وهي تبين إلى =

الاختصار في نطقها تسهيلاً للفظها ، واقتصاداً في الوقت بقـدر الامكان . وهذا الناموس لم تنجُ من فتكه لغة من لغات البشر أدناها وأسماها بـل قد جرى فيها على السواء من أول نشأتها ، ولم يزل حتى الآن ولن يزال إلى ما شاء الله . ولا يخفى أنه مهما كان من عظيم أمره وكيفما تنوعت طرق عمله ليس لـلانسان في ذلـك يد اختيـارية ، فـالنحت جار في الألفـاظ عن غير قصد من الناطقين.

وهو جار في لغة عامتنا على كيفية ربما أفـادت الاشارة إليهـا ، إذ منها يظهر مقدار ما لهذا الناموس من عظيم التأثير في ألفـاظ اللغة ، وتعلم أنـه ليس عليه من مستعظم فأقول :

يستعمل الدمشقيـون لفظة « شلون » بـامالـة الفتح نحـو الضم بمعنى كيف لـلاستفهام . فلو فـرضنا أن لغـة عامتنـا جُمعت في هذه الأيـام بغيـة حفظها لغة كتابية، وأن أحد علماء اللغة في القرن القادم أو ما بعده قصَد البحث في ألفاظ اللغة بحثاً تحليلياً . . فوصل إلى هذه اللفظة ، مـاذا ترى يكون رأيه فيها . لا أظنه إلا مرجحاً كونها مركبة من أصلين فأكثر . وربما اهتدى بعد اجهاد الفكرة إلى أنها مركبة من « لونْ » والشين ، ومَن تحليـل معناها يتبين له أن هـذه الشين تتضمن معنى الاستفهـام . . إذ أنه يقصـد

= أي حـد يصل تـأثير الاتجـاه الصوتي في اللغـة إذا لم يعقه عـائق ، فهي في الواقـع من الصيغ المتطرفة في اللغة .

ومن العسير أن تكون عناصر الكلمة الصوتية متساوية القيمة في داخلهـا ، فمنها القوي ومنها الضعيف ، منها ما يسود ومنها ما يساد ، ومنها ما يقاوم آثار العوامل الهـدامة ومنهـا ما يستسلم لها بسرعة . السيادة والغلبة هما الصفتان الجوهريتان اللتان على مؤرخ اللغة قبل كـل شيء أن يعـين حدودهمـا وأسبابهـا في داخل النـظام الصوتي للغـة التي يدرسهـا . والواقـع أن التكوين الصوتي لكل لغة يقضي بوجود أنواع من السيادة ومن المقاومة الخاصتين . ولا يمكن أن تختلف اللغات بعضها عن بعض في التطور الصوتي إلا بصراع ينشأ بين الاصوات من جراء التوازن . غير أنه فيما عدا التأثيرات الخاصة بكل لغة ، توجد تأثيرات عـامة تـظهر في كـل اللغات وهي نتيجة لاتجاهات طبيعية فسيولوجية ونفسية معاً .

من استعمالها مع « لونْ » الاستفهام عن الكيفية . لكنه عند ذلك لا يكون قد فعل شيئاً لأنه لم يزل جاهلاً معنى هذه الشين الأصلي . فهذا إذا كان ممن يذهبون إلى أن الألفاظ كذا أنزلت ، لا يرى بدأً من التسليم أن هذا الحرف إنما وضع للاستفهام . لأنه يراهُ قد ورد كثيراً في لغات بيروت ولبنان ، كقولهم « شسمك » بمعنى ما هو اسمك وما شاكل . وإن كان ممن يعتقدون الخلاف ويعلمون أن جميع الأدوات الدالة على معنى في غيرها ، إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها ، يأخذ في البحث عن ألفاظ تتضمن هذا المعنى وهذا الحرف ، وربما عثر بعد العناء العظيم على لفظة « شو » التي يستعملها البيروتيون بمعنى « ماذا » فيحكم أن تلك الشين منحوتة منها . وهناك تنقطع سلسلة بحثه فيقف متحيراً آسفاً على ما خسرته اللغة من الألفاظ التي هي حلقات ضرورية لاستقراء أصل مثل هذه الكلمات ، فيتوقف عن البحث وهو على يقين أن ثمَّ حلقات قدِّر فقدانها ، ولولا ذلك لتيسر لهُ الاستقراء كما يشاء . أما نحن الآن نظراً لبقاء تلك اللغة متداولة بيننا ولدينا منها لهجات عديدة ، فيسهل علينا تتبع هذه اللفظة إلى أصلها تماماً .

فإن اللبنانيين يعبرون عن « شو » البيروتية بقولهم « آيش » وبعضهم يلفظها « ايشو »، وبعض البيروتيين تصرفوا بها على طريقة غريبة فقالوا « شُونُّوه »، والسودانيون يقولون « شُونُو »، فمن المقابلة يتضح جلياً أن الأصل فيها جميعها عبارة مؤلفة من ثلاثة ألفاظ مستقل احدها لفظاً ومعنى وهي « أي شيء هو ». وهنا يعرض لدينا سؤال آخر ، وهو هل يمكننا استقراء إحدى هذه الألفاظ إلى أكثر من أصل واحد . والجواب أننا لحد معرفتنا الحاضرة ، يصعب علينا ذلك ويلوح لي أن بعضها قابل ، وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذا الفصل . والخلاصة ، أفلا يستغرب ذلك اللغوي إذا قيل له أن هذه الشين منحوتة أصلاً من ثلاثة ألفاظ مستقل أحدها عن الآخر لفظاً ومعنى .

وهكذا لو سألنا عن «ليش» المستعملة بمعنى لماذا، فأننا نراها مؤلفة من لام الاضافة و « ايش » المتقدمة الذكر . . فكأن الأصل فيها « لأي شيء هو » والبيروتيون يقولون « بدِّي » بمعنى أريد وهي منجوتة من « بِودي » وبعضهم يقول « ماش » أي لا شيء وهي منحوتة من « ما شيء » وهم يستعملون « شحو » للتنبيه بمنزلة « ها هو » والأصل فيها « اقشعهُ » ولم نكن لنعلم ذلك لولا أن بعض الذين يلفظونها يقربونها من الأصل نوعاً فيقولون « شَعو » . والمصريون يعبرون عن نفي الحال بقولهم « مُشْ » وبعضهم يلفظها « ماهوش » تقرباً من الأصل الذي هو « ما هو شيء » . واللبنانيون يعبرون عن قولنا « الآن » بقولهم « اسا » ويلفظها بعضهم « هسَّع » ويقول فيها السودانيون « حسَّع » والأصل فيها « الساعة » أي هذه الساعة . ومن هذا النوع قولهم « لِسَّا » وأصلها « للساعة »[1] والبيروتيون يقولون « هلأ » بمعنى الآن وبعضهم يلفظها « هلَّق » والدمشقيون يلفظونها « هالقيت » بلفظ القاف همزة مفخمة واللبنانيون يلفظونها أقرب للأصل من الجميع فيقولون « ها الوقت » والأصل فيها هذا الوقت أو « ها الوقت » . ويستفهم البيروتيون عن الكمية بقولهم « قدِّيش » ولا يقصدون بها إلا « كم » على أن الأصل فيها « قدر أي شيء » وهكذا الحال في « كمان » المستعملة بمعنى أيضاً فيها « كما أن » .

وهكذا لو تتبعنا سائر الألفاظ العامة . . فتأمل كيف يفعل النحت على الألفاظ فيمسخها مسخاً ، ولا يبرح من بالك أنه يختلف في المعنى الواحد باختلاف الأحوال ، كما شاهدت في شووايش وايشو وغيرها . ولا أظنك ترتاب بأنه كان يفعل مثل هذا الفعل على اللغة قبل أن بوشر في جمعها بأزمان . وعليه فلا تعجب إذا ذهبنا إلى أن الألفاظ الدالة على معنى

(١) وأهل ليبيا يلفظونها « لسع » .

في غيرها إنما هي بقايا ألفاظ ذات معان في نفسها ، ولو تعسر علينا استقراء جميعها . .

قد مررت مر المسرع على اللغات الاجنبية ولغة عامتنا ، فذكرت منها بعض الأمثلة . . فهلمَّ ننظر في العربية الفصحى لعلها تُسعف فتعطينا أن نبين شيئاً من أُصول هذه الأدوات ، وبالله التوفيق .

إن الحروف المنطوية تحت هذه القضية هي أحرف الجر والعطف والمشبهة بالفعل والمشبهة بليس وحروف الاستثناء والاستفهام والنواصب والجوازم والحروف المبنية وأحرف الزيادة .

فمن هذه الحروف ما لا يزال ملموحاً فيه معناها الأصلي الذي كانت تدل عليه قبلما قُدر لها فقدانهُ والاشتغال في ما لغيرها . منها قولنا « خلا » و « حاشا » الاستثنائيتين وكذا « عدا » فإنها مأخوذة من عدا يعدو أي تجاوز . وهكذا الحال في « على ». وكثير من الأفعال والحروف قلما يُنظر عند استعمالها حروفاً إلى كونها أفعالاً أو أسماء ، ولو لم تكن الأصول المشتقة هي منها كثيرة التداول بيننا لما كنّا نحسبها إلا حروفاً أو طروفاً جامدة. مثال ذلك قولنا «داخل البيت» لا نقصد به اعتياديّاً إلا «في البيت» وهكذا « خارج البيت » وقولنا « نحو البيت » لا نفهم به غالباً إلا « إلى البيت » مع أنها مشتقة من نحا ينحو أي قصد ومن مشتقاتها ناحية وقس عليها .

ومنها ما لم يعد تتبعها سهلاً لأنها خسرت بعض حروفها لكثرة الاستعمال ، وهذه إما أحرف مفردة كالباء واللام والكاف والواو والفاء والتاء أو غير مفردة وهي ما بقي منها .

فالباء حرف من حروف الجر يستعمل لافضاء معاني الأفعال إلى

الأسماء ، وهي تأتي لأربعة عشر معنى : الالصاق والتعدية والاستعانة والسببية والمصاحبة والظرفية والبدلية والمقابلة والمجاورة والاستعلاء والتبعيض والقسم والغاية والتوكيد . ومعلوم أنه لا يمكن أن تكون جميع هذه المعاني أصلية فيها ، وأظن لا سبيل لنا إلى معرفة ما وضعت للدلالة عليه في الأصل إلا مقابلتها بالباء المستعملة في اخوات العربية وإذ ذاك نرى أن الباء لا تستعمل في سائر تلك اللغات إلا للظرفية فيرجح أن هذا هو الأصل في دلالتها عندنا . وما بقي من المعاني ليس إلا تفنناً عربياً . فهل تساعدنا هذه النتيجة في تتبع أصلها ـ نعلم بالاستقراء أن هذه الباء هي بقية كلمة ذات معنى مستقل هي (بيت) بدليل أن هذه الأخيرة مستعملة في السريانية ، بمعنى في أو بين ، فيقولون (بيت قبورا) أي في أو بين القبور ولنا (بي) وهي حلقة موصلة بين « بيت » والباء قد وردت في التلمود والترجوم بمعنى في البيت ، وهي في السريانية مجزوم « بيت » وتفيد الظرفية . فيكون لنا اذن سلسلة تامة الحلقات ، وهي « بيت » ثم « بي » ثم « ب » فيرجح أن الباء هي بقية « بيت » ونظراً لورود « بي » الكلدانية بمعنى الظرفية لا مانع من أن تكون « في » العربية مقلوبة عنها .

واللام كالباء تستعمل لمعان كثيرة ، ومن المقابلة يتضح أن الأصل في دلالتها الاضافة والقصد أي أنها تتضمن معنى إلى ، وهي تقوم مقامها في العربية والسريانية ، ومما يؤكد ذلك أن « إلى » قد فقدت من السريانية تماماً ، أما العبرانية فتحولت إلى « ال » ثم « ل »، فيرجح بل يؤكد أن هذه اللام بقية « إلى ». ورب قائل من أين أتيت بهذه الدلالة فأجيبهُ : يظهر أن الأصل في معنى « إلى » الجهة والناحية كما هو الحال في « نحو » بدليل كون هذه اللفظة ، في العبرانية جمع ما مفاده جهة أو ناحية وفي العربية « اليه » بمعنى جهة أو ناحية . والظاهر أن الأصل في « إلى » لفظ يقارب « اليه » أو هي نفسها ، وكأنهم كانوا يقصدون بقولهم « ذهب إلى المدينة » ما يفيدهُ قولنا « ذهب نحو المدينة ».

والكاف يظهر من المقابلة أن الأصل في مؤداها التشبيه ، بدليل كونها هكذا في بقية اللغات الشرقية . أما أصلها فيظهر أنهُ فُقد من العربية وحفظ في اخواتها . فهي في العبرانية بقية (كن) مفادها « كذا » وربما يقصدون بقولهم « زيد كالأسد » زيد كذا الأسد . و « كِن » هذه منحوتة من « أكن » في العبرانية بمعنى « حقيقة » في الكلدانية (هكين) أو (هَكِى) وقد شق العبرانيون من « أكن » أيضاً « أك » ظرفاً يفيد التأكيد . وشق السريانيون من « هكن » (أيك) تُلفظ « آخ » بمعنى كاف التشبيه وربما كان في « كنا » العربية ما يلمح فيه هذا المعنى .

فبناء على ما تقدم يرجح أن كاف التشبيه هي بقية أصل يقابل « أكن » العبرانية ، فُقد من العربية ولم يزل محفوظاً فيها مركباً مع لا النافية أعني به « لكن » قال بعض أئمة اللغة أنها تفيد الاستدراك فكأن أصل مؤداها « لا حقيقة » بنفي ما ذكر وتأكيد ما هو آت . هذا ولا غرو إذا شوهد ثم شيء من الاختلاف بين مؤداها الأصلي وما هي عليه ، فإن الاستعمال لا يزال يفعل عليها حتى الآن إذ أن العامة تستعملها بمعنى « اذن » فيقول البيروتيون « شو بعمل لكن » بمعنى « ماذا أعمل اذن » فسبحان الذي يغير ولا يتغير .

والواو تستعمل لما ينيف على ٣٥ معنى جميعها ترد إلى الاستصحاب والاستئناف ، وعليه يرجح كونها منحوتة من أصل حفظ في العبرانية وهو « وَوْ » متعد مفاده وصل و « سمَّر » . ويرجح أيضاً أن الفاء[١] مقلوبة عن هذه الواو لأن هذه الأخيرة تؤدي معنى كليهما في العبرانية والسريانية فهم يقولون « آمن وتحيي » لما هو في لغتنا آمِن فتحيي . ولا يصعب تبادلهما لأنهما من مخرج واحد . أو أنها بقية «فاء» بمعنى عاد .

---

(١) هناك تعليل لأصل الفاء وهو أنها نحتت من كلمة « قفا » في قولك جاء فلان قفا فلان قفا فلان .

أما « التاء » ونقصد بها هنا تاء القسم ، فقد قال الزمخشري في « تالله لأكيدن أصنامكم» الباء أصل أحرف القسم، و «الواو» بدل منها و «التاء» بدل من «الواو»، وفيها زيادة معنى التعجب، كأنه يتعجب من تسهيل الكيد على يده. اه[1].

وما بقي من الأدوات مما لا يلمح فيها معناها الأصلي ، فمؤلف كل منها من حرفين فأكثر . ومن هذه ما هو مركب من أداتين فأكثر نحو « الا » من « أن لا » بالادغام و « ألْم » من همزة الاستفهام و « لم » النافية ، وهكذا في « حيثما » و « كأي » و « كذا » و « كيفما » و « اذما » و « لولا » وما شاكل .

ومنها ما يظهر بسيطاً لكنه قابل الحل إلى غير أصل واحد نحو « الآن » فهذه تحل بسهولة إلى « أل » التعريف و « آن » بمعنى الوقت وبجملتها تفيد « هذا الوقت » وكذلك « بين » فإنها مركبة من باء الجر و « أين » ظرف مكان . و « لكن » قد تقدم أنها مركَّبة من لا النافية و « كن » بمعنى « كذا » . و « ليت » تحل إلى « لا » النافية و « ايت » الدالة على الكون المطلق في السريانية ، وقد أبدلت في العربية « بأيس » كما سترى في محل آخر . و « منذ » تحل إلى « منْ » و « إذ » . ومثل ذلك « عند » فإنها مركَّبة من « عنْ » و « يد » بدليل كونها كذلك في أخوات العربية ، حيث لا تزال تستعمل مكتوبة كل على حدة أي « على يد » . واللام والنون تتبادلان بسهولة كما لا يخفى . فإن العامة تقول في العام الأول « عَاملَاول » و « عَامنَاول » . وهكذا في « لدى » فإنها على الأرجح مقلوبة عن « لِيد » لأنها تتضمن معنى عند تقريباً . و « كم » لا ريب في كونها منحوتة من « كاف » التشبيه و « ما » الموصلة لأنها في أخوات العربية

---

(١) وتعليل تاء القسم ربما دلنا عليه القسم في مصر ، في قولك وحياة ربنا فالتاء منحوتة من لفظة « حياة » .

«كما»، فكأن الأصل في مؤداها الاستفهام عن الماهية أي انه كان يقصد بها ما مفاده «مثل ماذا» وبالاستعمال خصصت للاستفهام عن الكمية العددية كما حدث في « قدّيش » المتقدم ذكرها . و « مهما » أصلها « ما وما » وهي في العبرانية « ما ومه » أي مؤلفة من ما الموصلة معطوفة على نفسها وكان المراد بها في بادىء استعمالها المبالغة في معنى « ما ». « ولن » منحوتة من لا النافية وأن المصدرية فقصدوا بها في بادىء أمرها نفي المصدر الذي يلمح فيه معنى الاستقبال ، ثم أطلقت لنفي الاستقبال ، وربما كان الأصل في « لم » كذلك « لا ام »، لكنها قد تنوع معناها بحيث يعسر الحكم عليها قطعياً . ويقال بالاجمال أن جميع الأدوات التي تفيد النفي على أنواعه تكون إما تنوعاً للأداة الأصلية « لا » أو مركبة منها وأصل آخر .

أما « لدُن » فهي « لدَى » بعد أن أدخلت عليها النون التي هي من تفننات العرب ، فيلحقونها بأواخر الكلم للترخيم كالتنوين وكما هو الحال في « من » الموصلة فإنها و « ما » من أصل واحد بدليل استعمال الاشوريين هذه الأخيرة بمقام الاثنتين ، وفي العبرانية لنا (مه) اداة الموصل لغير العاقل و (مي) للعاقل . ولم يزل العرب حتى الآن يتفننون باضافة النون في أواخر الكلم ، فإن السودانيين منهم يقولون « كيفن » بدلاً من كيف و « متين » في متى . و « متى » نرجح أنها مركبة من « ما » الاستفهامية ، وأصل آخر يفيد الاشارة ربما كان « ذا » لأنها هكذا في العبرانية والسريانية ، فيقول السريانيون « مادَاتا »أي متى أتى ، وبدلاً من « مادَ » السريانية يستعمل العبرانيون « ماش » مركبة من ما الموصولة والشين التي هي بقية اسم الموصول « أشر ». والدال السريانية هي أداة الموصول بنفسها .

فبعد هذا التجريد قلّت الأصول الناشئة عنها هذه الأدوات وأمكن

حصرها في عدد قليل جداً أهمها : « لا » و « ان » وأخواتها و « أو » و « ما » الموصولة و « من ».

أما « لا » النافية فيظهر أن النطق بها للنفي طبيعي لوجودها في سائر اللغات على السواء بمعنى واحد ، فإنها في اللغات الشرقية « لا » وفي الطائفة الآرية أو أحد تنوعاتها ، والنسبة اللفظية بين هذين اللفظين واضحة لأن اللام والنون من أكثر الأحرف تبادلاً لتقارب مخرجيهما كما مر عليك . والنتيجة أن أحد هذين المقطعين أصلي فيها والآخر مبدلٌ منه . وعندي أن النون هي الأصل بدليل أكثرية ورودها عموماً ، فهي عمومية في اللغات الآرية لأنها في اللاتينية وفروعها Ne و Nemo و No و In و في اليونانية Ni وفي السنسكريتية An و Na, و No, وفي الجرمانية Nie و Nein وفي الانجليزية No و Un, و Not, و Nay, وفي الفارسية « نا » أو « نه » و في القبطية An قد أبدلت لاماً في اللغات الشرقية لكنها تركت أثراً يشير إلى سابق وجودها . فلنا في العبرانية (أين) بمعنى العدم المطلق ومثل ذلك (أوِن). وفي العربية لنا « نَهنهْ » و « نأنأ » بمعنى كفكف وأبطل . ولا يخفى أن الأصل في هذين الفعلين « نا » أو « نه » كما في الفارسية وضوعفا للمبالغة كما اعتاد العرب في مثل هذه الأحوال فإنهم يقولون « عَنعنَ » فلان أي أكثر من ذكر حرف الجر « عَنْ » .

ولا نكتفي بذلك بل نسأل أنَّ لهذه اللفظة الدلالة السلبية وهل وُجدت كما هي ، أم نحتت عن أصل سابق لها . والجواب على ما أرى أن هذا المقطع من المقاطع التي ينطق بها الانسان غريزياً للنفي ، وإلا لما تأتى للصدفة إيجادها على هذه الصورة من المطابقة في سائر اللغات . والنفي في أبسط أحواله يحصل بمجرد رفع الصوت كما لو أردنا تقديم تفاحة إلى طفل مثلاً ، وقصدنا توجيه ارادته لأخذها فأننا نناديه بصوت منخفض قائلين : « تفاحة تفاحة »، لكن لو أردنا زجره عن أخذها لرفعنا صوتنا قائلين أيضاً: « تفاحة تفاحة » بانتهار فيفهم قصدنا . ويتضح

ذلك في معاملتنا الحيوانات التي دوننا في الفهم ، فإننا إذا أردنا استدعاء الهر مثلاً نناديه بصوت معتدل : « بس بس . . . » فيأتي آمناً فاهماً مرادنا ولو أردنا طردهُ من أمامنا لما احتجنا إلا لنفس الصوت مرتفعاً مصحوباً بنبرة تهديدية . (ومن طرق النهي في اللغة الاشورية الحاق صوت تهديدي ، هذه حكايته (اه) بصيغة الأمر ، فيقولون في الأمر مثلاً افعل ، وفي النهي اه افعل . . .) ولا يخفى أننا نستعمل مع رفع الصوت لزجر ذلك الطفل صوتاً غتمياً حاصلاً من اطباق الفم واخراج الصوت من الأنف ، إذ يسمع متوسطاً بين الميم والنون وربما قلده البعض بقولهم : « هِم » أو « هن »، وتستعمله العامة لزجر الأولاد عن أخذ شيء ما ، والأطفال تفهم بالبديهة دلالة هذا الصوت على النهي . ولا يبعد أن يكون هو الأصل لجميع تنوعات النفي المتقدم ذكرها . ويؤيد ذلك كون هذا الصوت الغتمي يستعمل في اللغة المصرية القديمة بمنزلة « لا » الناهية عندنا[١] .

أما علاقة هذا المقطع بما قصد به فموكولة بالصورة الذهنية . كما أننا نقصد برفع الرأس نحو الوراء السلب أو الرفض ، وباحنائه نحو الصدر الايجاب أو القبول ، ولا سبيل للتعليل عن هذه الاشارة ونسبتها إلى ما قصد بها على أننا نجريها طبيعياً عن غير علم منا .

ومن غرائب النفي والايجاب مما لا يمكن التعبير عنه تعبيراً واضحاً ما يستعمله بعض عامتنا علامة للسلب ، وهو صوت يحاكي السين أو الصاد ، ويحصل بالصاق اللسان بسقف الحلق ثم سلخه عنه بطريقة تحاكي لمص أو « تسء » والسودانيون يستعملونه أيضاً وعندهم صوت آخر يقصدون به قولنا « نعم » أو « مليح »، والتعبير عنه بالكتابة تعبيراً

(١) في المصرية القديمة « ن ن » بمعنى لا ـ لا يوجد ، « م » بمعنى لا وفي الاشورية يأتي النفي بصيغة (ai) ويقابله في الحبشية القديمة (أي) وفي المصرية القديمة (ijj أيي) بمعنى لا .

واضحاً صعب جداً . وهو يحصل بالصاق اللسان بسقف الحلق كالمرة الأولى وجعل الهواء يمر بعنف في الجهة اليمنى نحو القصبة . ومهما يكن من أمر هذه الأصوات وصعوبة التعبير عنها فهي موجودة واستعمالها جار بكثرة بين ألوف من الأمم . على أننا لم نسمع بوجود حرف يدل على لفظها فالظاهر أنها حديثة العهد[1] .

هذا ولا يخفى أن ما صح على « لا » يصح على كل تنوعاتها الناهية والنافية ، أما « لو » فلكونها شرطية وتستعمل حيثما قصد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، ونظراً لورودها في كتب اللغة مراراً للتمني بمعنى ليت وأحياناً للعرض بدلاً من « ألا » أرجح كونها و (لو) السريانية شيئاً واحداً ، وهذه الأخيرة منحوتة من (لا) والماضي من فعل الكون الذي هو في تلك اللغة (هوا) فكان الأصل في استعمالها للتمني كقولهم « لو نميتُ التعصب فنحيي الوطن فكاننا قلنا ليتنا نميتُ الخ » أو العرض بمعنى « ألا » نحو « لو تنزل عندنا فتصيب خيراً » والمقصود « ألا تنزل . . . » وجملة القول أن « لو » تعد من مركبات « لا » السابقة الذكر .

أما « انْ » و « ان » واخواتها و « أن » و « أم » فمن أصل واحد هو احداها والدليل على ذلك أن في سائر اللغات الشرقية لفظة واحدة هي (ام) في العبرانية و (ان) في السريانية و (أم) في الحبشية تقوم مقام جميعها استفهاماً واشارة وشرطاً وتوكيداً واستداركاً .

وإذا سلمنا بوحدة أصلها يخطر لنا السؤال عن كيفية احتوائها على كل هذه المعاني والدلالات . وعند ذلك يتبين أن الأصل في دلالتها التوكيد والتحقيق فتفرع عنه الاستفهام ، وهو طلب التحقيق والاشارة وهي التحقيق بعينه ، والشرط ويقصد به حسب تعريف النحاة ترتيب

---

(١) تستخدم اللغة الحبشية القديمة كلمة « أوه » بمعنى نعم وأصلها صوتي .

وقوع أمر على وقوع أمر آخر، فكأنهم كانوا يقصدون بقولهم «إن قام زيد أقم » أي متى تأكد قيام زيد تأكد قيامي . أما الاستدراك فهو العدول عن الخطأ إلى الصواب ، وفيه معنى التحقيق وهكذا فيما بقي من مدلولات هذه الألفاظ .

أما الاختلاف اللفظي بين هذه الأدوات فلا يعتد به نظراً لسهولة التبادل بين الميم والنون ، كما قد مر في محل آخر وكما هو الحال في « ذنب » العربية فإنها مبتدلة من « ذمب » في اللغة الاشورية والعامة تقول «انتلى» عوضاً عن « امتلأ » . أما من قبيل الاسبقية بين الميم والنون فالأرجح أنها للميم لأنها من الأحرف السهلة النطق وهي كما أشرنا في أول هذا الكتاب من الأحرف المتفق وجودها في سائر لغات البشر . ولا يخفى أن الأطفال في أول أدوار حياتهم أول ما يتلفظون بها فينادون بها أقرب الناس إليهم (أمهم) ويطلبون أول وأهم احتياجات عيشهم فيقولون (مما) يقصدون الخبز ، ومن الغريب اتفاق وجود اسم الوالدة في كل لغات البشر بلفظ واحد تقريباً والمقطع الأصلي فيه الميم .

وأغرب من ذلك أن الميم في اللغة المصرية القديمة تستعمل حيثما احتيج إلى ربط معنى بآخر ، فتكون حرف جر فتقوم مقام « من وإلى وعن وعلى وفي » أو حرف عطف عوضاً عن « الواو » أو ظرفاً فتقوم مقام « بين وحيثما وغيرهما » أو حرف تشبيه بدلاً من « كما ومثل »، وللتحقيق عوضاً عن « أن وأخواتها »، وتركب مع غيرها من الأدوات فتولد أدوات عديدة لمعان شتى ويستعملونها قبل الأسماء بدلاً مما هو في لغتنا تنوين النكرة فيقولون مثلاً Au— a Em Sera أي « كنت ولدا » فترى أن Au— a تفيد « كنت » و Sera ولد و Em للتنكير . فيظهر أن بينها وبين نون التنوين عندنا نسبة لفظية ومعنوية كما ترى . ويؤيد ذلك أن هذه الميم تستعمل في

---

(١) كنت ولد : iw— em— sa كنت im ولد sa .

اللغة الاشورية والعبرانية لبناء الظروف فيضيفونها إلى آخر الأسماء فتصير ظروفاً .

وقصارى الكلام يقرب للعقل أسبقية الميم وكونها هي الأصل في كل هذه التنوعات اللفظية ، كما أن معناها الأصلي الذي هو التحقيق أو التأكيد هو الأصل لكل تنوعاتها المعنوية .

والسؤال الأخير الذي لا مناص من مخامرته الذهن هو . أنَّى لهذا الحرف من الدلالة . ولا ريب أن في الاجابة عليه صعوبة على أني أرجح كل الترجيح أنها و « أمن » في اللغات الشرقية من أصل واحد ولعل الميم هي من الأحرف الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً للتحقيق .

(ربما لاحظ المطالع بين هذه الميم والنون التي تبرهن كونها أصلاً لجميع تنوعات النفي مشابهة لفظية ومناقضة معنوية ، ولا يستغرب استعمال إحداهما في أول الأمر لكلا المعنيين أعني للتحقيق ، والنفي بتمييز نوع المعنى بدرجة نغمة الصوت كما سبقت الاشارة) .

هذا ولا يفوت القارىء أن « ما » الموصولة وتنوعاتها لفظاً ومعنى تنطوي تحت هذا الباب لأنها مقلوب « ام » المتقدم ذكرها ولأن « ما » في الاشورية تقوم مقام « أم » و « ما » العبرانيتين أي انْ وأنْ وأنَّ وأخواتها ، وأم وما الموصولة ومركباتها في العربية وقولنا « أن هذا إلا ملك » يضاهي قولنا « ما هذا إلا ملك » .

أما « ما » النافية[1] فإما أن تكون مبدلة من « لا » أو « نا » وإما أن

---

(١) أقدم أدوات النفي في العربية « لا » ويقابلها في الاكدية والارامية « لا » وفي العبرية « لو » ، وفي الحبشية « ال » ولم نعرفها إلا مركبة في كلمتين : « البو » أي لا يوجد به و « اكو » وأصلها « الكو » بمعنى لم يكن . ويقابل « ال » الحبشية حرف مماثل في العبرية والآرامية القديمة و « ال » في الاكدية . ويرجح أن اللغة السامية الاصلية كانت تحتفظ بالصيغتين « لا » و « ال » =

تكون قد اكتسبت دلالة النفي بالمجاورة بمعنى أن الاشوريين مثلاً استعملوا « ما » الموصولة مع « لا » النافية كلمة واحدة مدة للنفي ، ثم صاروا يستعملونها وحدها ويقصدون بها النفي . وقد جرى مثل ذلك في اللغة الفرنسية ، فالفرنسيون يقولون Personne ويقصدون بها ولا شخص على أن معناها الأصلي شخص .

أما « أو » فالظاهر أنها و « أي » من أصل واحد لتقاربهما لفظاً ومعنى ، ويؤيد ذلك كونها في اللغات الشرقية أخوات العربية واحدة هي « أو » فهي الأصل في العربية أيضاً . وهي تستعمل فيها لأحد عشر معنى : الشك والابهام والتخيير والاباحة والجمع المطلق كالواو ، والاضراب والتقسيم والاستثناء ، بمعنى إلا أو بمعنى إلى أن ، والتقريب

= وأصلهما واحد . ويحتمل أن يكون سبب تخالفهما لفظاً تأثير قواعد الوصل والتركيب اللفظي في الجملة . ويدل على ذلك تخالف وظائفهما في الاكدية والعبرية فإن « لا » في الاكدية للنهي و « ال » للنفي وفي العبرية على العكس من ذلك فإن « لو » للنفي و « ال » للنهي . وقد تعودنا هذا التضاد في الاكدية وفي كثير من قواعدها بالنسبة للغات السامية الأخرى ، ففي الاكدية مثلاً يؤخر الفعل على فاعله ومفعوله وهو بخلاف ذلك في اللغات السامية الغربية .

وقد اشتقت العربية من « لا » أدوات أخرى للنفي لا توجد في سائر اللغات السامية ، إلا « ليس » المركبة من لا واسم معناه الوجود . واشتقت العربية من « لا » و « لم » وربما كانت مركبة من لا وما الزائدة و « لن » مركبة من « لا » و « ان » .

ولم تقتصر العربية على اشتقاق حروف للنفي من « لا » بل اخترعت للنفي أدوات جديدة وهي ما وأن وغير . فإن (ما وأن) يحتمل أن يكون أصلها الاستفهام وهذا ظاهر في ما فهي ما الاستفهامية بعينها وأن صعب تصور الطريقة التي سلكتها من معنى الاستفهام إلى معنى النفي . أما « أن » فربما يقابلها حرف النفي في الحبشية « أي » الذي يظهر أن أصله أن ثم قصرت للساكن بعدها . و « أي » و « أن » تقاربان « أي وأين » فربما نشأ قلب الحركة المركبة من الفتحة والكسرة كسرة بسيطة ممدودة عن تأثير أحوال التركيب اللفظي في الجملة . ويمكن أن تكون « أن » أصل معناها أين والتوصل من هذا المعنى إلى معنى النفي سهل . أما « غير » فتعد بين أدوات النفي عطف (ولا) عليها نحو (غير المغضوب) عليهم ولا الضالين وهي اسم معناه يختلف عن الشيء الذي أضيفت إليه ، فالشيء الموصوف به ليس بالشيء المضاف إليه ، وهذا هو معنى النفي .

والاشتباه والشرطية نحو لأضربنه عاش أو مات . ومعلوم أن هذه الدلالات لا يمكن أن تكون جميعها أصلية ، ويستنتج من المقابلة أن الأصل في دلالتها الموافقة والمساواة بين أمرين ، وعند ذلك يتبين لنا أنها بقية لفظة ذات معنى في نفسها فُقدت من العربية وحُفظت في أخواتها ، فهي في السريانية (أوي) طابق أو وافق في العبرانية (أوَه) اختار فيرجح أن هذه اللفظة هي الأصل نظراً لتوافق المعنى واللفظ واجتماع معنى الموافقة والاختيار معاً إذ إليهما تعود جميع تنوعات دلالة « أو » .

أما « مِن » فتأتي لمعان خمسة عشر يُرد جميعها إلى التبعيض و (مِن) في العبرانية جزء أو قسم ، فربما كانت مشتقة من أصل يفيد قولنا قَسَم أو جزَّأ .

وهكذا فيما بقي من الأدوات فإن معظمها قابل الرد بالاستقراء إلى أصله بشرط اعتبار فعل النحت وقابلية الألفاظ للتغيير والتنوع دلالة ولفظاً .

وبقي علينا النظر في أمر أحرف الزيادة وفي هل هي بقية ألفاظ ذات معنى في نفسها فنقول :

إن فائدة هذه الأحرف محصورة فيما يحصل من الاشتقاق والتصريف في الأفعال والأسماء ، فتدخل عليها وتنوع في معناها تنويعاً يختلف باختلاف ذلك الحرف .

وقبل الشروع في استقرائها أذكرُ شيئاً عاماً يتعلق بأصل هذه الزيادة :

إن الاشتقاق والتصريف حادثان في اللغة . أعني إذا تتبعنا البحث في أحوال اللغات من أسماها إلى أدناها نرى مميزات المشتقات تقل فيها حتى تنتهي إلى لغات لا أثر فيها للاشتقاق مطلقاً ، ومن هذه اللغات ما لا فرق فيه ، ليس فقط بين الماضي والمضارع والمفرد والجمع والمذكر والمؤنث ،

بل لا دليل على وجود مميز بين الاسم والفعل والحرف كما مر في غير هذا المقام .

واللغة عند أول ارتقائها تأخذ في استعمال ما لديها من الألفاظ ، لمعان تخطر للمتكلم ولم تكن في ذهنه من ذي قبل ، فيركب وينحت عن غير قصد ، وينوع في اللفظ والمعنى وهو لا يدري . ولا ينتبه بعد زمن إلا وقد توفر لديه من الفعل أنواع ومن الأسم كذلك . وعلى هذا النسق تولد الاشتقاق الفعلي فكان لنا منه أوزان عدة ، وكذلك التصريف الاسمي فكان لنا به مميزات الجنس والعدد . والاختلاف الحاصل بين اللغات المرتقية في كيفية هذا الاشتقاق ونوعه يؤيد ذلك . فإن في بعض هذه اللغات أزمنة فعلية لا أثر لها في البعض الآخر فهي في اللغات الشرقية اثنان ماض ومضارع ، وفي اللغات الارية نحو العشرة ، وكل من هذه يختلف عن كلٍ من ذينك الاثنين . أي ولو وجد زمن ماض في الفرنسية أو الانجليزية مثلاً لا يكون في كل طرق استعماله كالزمن الماضي في العربية تماماً . والعالم بشيء من أحوال هذه اللغات يتأكد ذلك يقيناً ، ثم أن من الصيغ الفعلية ما هو اساس هذه اللغة ومستغرب وروده في غيرها، فإن الصيغ المزيدات في العربية هي أصل المشتقات وعليها عمل عظيم في تنويع المعنى الأصلي ، إذ تكسبه خواص تختلف بين مبالغة وتعدية ومطاوعة ومشاركة ، ومبادلة مما لا يمكن التعبير عنه في اللغات الآرية إلا بألفاظ خاصة ذات معان مستقلة . فنحن نعبر عن حصول الضرب بين قوم على التبادل بقولنا « تضاربوا » ولا يكفي لتأدية هذا المعنى في اللغات الآرية أقل من أربع كلمات . فالانجليز يقولون بالمعنى عينه Each Other They Have Beaten والفرنسيون Ils Se Sont Frappés أو Ils Ont Frap- pé Les Uns Les Autres ولا يخفى أن اللغات السامية الأخرى تقرب من الارية من هذا القبيل . وهكذا فيما بقي من صيغ المزيدات ، ونرى من الجهة الأخرى أن من أنواع الاشتقاق والتصريف في الطائفة الآرية ما

تفضل به طائفتنا ، كالحاق بعض الأدوات في أوائل الأصول أو أواخرها للتعبير عن تكرار الفعل أو نفيه ، أو غير ذلك مما لا يسعنا تأديته إلا باضافة ألفاظ مستقلة كقول الفرنسيين Venir المجيء و Revenir المجيء ثانية Comprendre الفهم و Mal comprendre اساءة الفهم وقول الانجليز Understood فهم و Misunderstood ساء الفهم وهكذا في كثير مما لا يسعف المقام في استيفائه .

والتصاريف الاسمية لا تقل اختلافاً عن الفعلية ، وهي تقوم بتمييز الفعل والعدد والنسبة والتصغير . والجنس في اللغات السامية وبعض اللغات الأخرى نوعان فقط ، مذكر ومؤنث ، أما في اللاتينية واليونانية وغيرهما من الطائفة الارية فثلاثة ، مذكر ومؤنث وجنس آخر يدعونه بلغتهم Neutrum أما العدد فبالعكس فأنه ثلاثة في العربية وأخواتها وفي اليونانية أي مفرد ومثنى وجمع ،واثنان في معظم الطائفة الآرية أي مفرد وجمع . وزد على ذلك أن ما يعتبر في هذه اللغة مذكراً ربما اعتبر مؤنثاً في تلك وبالعكس فإن لفظة « بيت » مثلاً مذكرة في العربية ومؤنثة في الفرنسية و Neutrum في الانجليزية .

فمما تقدم يتضح أن الاشتقاق والتصريف حادثان في اللغة ، وإنهما يتبعان كل أمة حسب بيئاتها . والأصل في دلالة الألفاظ أن تكون بسيطة ، ثم تتنوع دلالة وتتكاثر لفظاً بمقدار درجة ارتقاء تلك اللغة ، فإذا صحت هذه المقدمة ينتج أن العربية من أرقى اللغات بياناً .

اشتقاقات وتصاريف جديدة

والاشتقاق والتصريف دائما التولد في اللغة ما دامت حية ، فالمتأمل في لغة عامتنا مثلاً يرى هنالك مشتقات وتصاريف فعلية لم تكن في اللغة قبلاً أعني لم يتكلم بها العرب . منها قولهم « بَعرِفْ » بمعنى أعرف الآن وهي تدل على الحال ولا تتعداه ، فتخالف المضارع من هذا القبيل . ويتصرف

مع هذه الباء أي فعل كان ويشترط أن يكون على صيغة المضارع فتكسبه الدلالة الحالية ، فيقال « بعرف » للمتكلم و « بْتعرف » للمخاطب و « بْيعرف » للغائب الخ . وهناك صيغة أخرى تفيد الحال مع الاستمرار كقولهم « عمياكُلْ » وهي تفيد قولنا « آخذ في الأكل على الاستمرار » ومركبة من الصيغة المتقدمة الذكر بالحاق « عم » في أولها وقد ينوعون هذه الاداة فيقولون « مِنآكل » بابدالها « من » وحذف الباء والمعنى واحد في كليهما أعني الحال المستمر . وأهل العراق يقولون في هذا المعنى « قاآكل » أو « قا أكتب » ، وأهل مراكش يقولون « كا آكل » أو « كا أكتب » .

ويستعمل المصريون بمعنى الاستقبال القريب قولهم « حاشربَ » أي « سأشرب قريباً » ويصرفونها كما يتصرف المضارع مع سين الاستقبال ، فيقولون حاشربَ . حنَشرب . حيَشرب . حتَشرب . . الخ .

ويقول أهل مراكش بهذا المعنى « ماش اشرب » أو « غاد اشرب » ويصرفون الفعل معها مثل تصريفه مع الحاء .

فإذا نظر أجنبيٌّ في هذه الصيغ المحدثة في لغة العامة وهو لا يعرف إلا اللغة الفصحى ، فإنه يحكم لأول وهلة أن الباء و « عم » و « من » و « الحاء » و « قا » و « كا » ، إنما هي أدوات مثل أحرف المضارعة وسين الاستقبال وما شاكل ، ولا يخطر له أنها بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها . أما نحن الآن فنظراً لكثرة المواد العامية لدينا ولسهولة حصولنا على حلقات موصلة بين هذه البقايا وأصولها يسهل علينا استقراؤها ، وتتبعها إلى تلك الأصول : فإن عامة البيروتيين تقول بمعنى الحال والاستمرار « عمَّال آكل » وهي تؤدي معنى « عَم آكل » أو « مِنآكل » تماماً . وبالمقابلة يتأكد لدينا أن الأصل في هذه الاداة إنما هو « عمَّال » التي هي صيغة المبالغة من « عملَ » ، والتقارب في المعنى واضح . فتأمل كيف تحولت « عمَّال » إلى « عَمْ » وبالأخص إلى « مِن » ومن أهل بغداد من يقول « قاعد آكل » بدلاً

من « قا آكل ». ومن أهل مراكش من يقول « كائن آكـل » بدلاً من « كـا آكـل » فيستـدل من ذلـك أن « قـا » أصلهـا « قـاعـد » و « كـا » أصلهـا « كائن ».

أما الحاء فتتبعها أصعب لا سيما لمن كان بالنسبة إلى لغة عـامتنا مثلنـا بالنسبة إلى اللغة الفصحى ، وربما جزم باستحالته غـير متردد . لكننـا من مقابلة لهجة المصريين بلهجة السوريين يتيسر لنـا معرفـة أصلها بسهـولة ، لأن البيروتيين يقولون بمعنى الاستقبال القريب « رَحاشرب » أي سـأشرب واللبنانيون يقولون « رَايح اشرب » بـالمعنى عينه فمن مقـابلة هذه السلسلة « ح » ثم « رَحْ » ثم « رايـح » يتضح جليـاً أن الأصل في هـذه الحـاء هـو صيغة اسم الفاعل من فعل ذى معنى بنفسه هو « راح » أي مضى . وإمـا « مـاش » أو « غـاد » في لغـة مـراكش فـواضـح أن أصلهـا « مـاشي » و « غادي ».

فلا غرو بعد ذلك إذا حتمنـا أن أحرف الـزيادة إنمـا هي بقايـا ألفاظ مستقلة المعنى ، ولو لم يتيسر لنا تتبع جميعها إلى أصولها .

أما الباء الدالة على الحال فالوصول إلى أصلها عسرٌ ، وقد يتبـادر إلى الذهن أنها بقية لفظ « بدي » العامية ومعناها أريد وأصلهـا « بودي » وقـد سمعنـا لبعضهم تعليـلاً يجعلهـا منحـوتـة من « أبغي » ولكنـه لا يخلو من التكلف . عـلى أننا نحكم قيـاساً أن هـذه الباء بقيـة لفـظة ذات معنى في نفسها ، ولو استحال علينا التوصل إلى تلك اللفظة الآن على أننـا لا نقنط من امكان استقراء قسم عظيم من هذه الأحرف فنبدأ بالفعل :

مزيدات الافعال وتصاريفها

إن الأحرف المزيدة في الفعل الثـلاثي لتكوين صيـغ المزيـدات هي :

الهمـزة في أفعلَ ، والألف في فـاعل ، والتـاء في تفعل وتفـاعلَ ، والألف والتـاء في افتعلَ ، والألف والنـون في انفعـلَ ، والألف والسين والتـاء في استفعلَ فالألف في « أفعـلَ » تكسب الفعل الـلازم معنى التعدية يصعب تتبعهابدون تكلف فاضرب عنها صفحاً . أما الألف في فاعلَ وتفاعـلَ فقد حصلت بمد حركة الفاء ، قُصد بذلك باديء بـدء نوع من المبـالغة لتـوهم ذهني كما هو الحال في تضعيف عين « فعـل » مما سيـأتي في محل آخـر . أما التاء في تفعل وتفاعلَ و « ات » في افتعـلَ فتكسبان الفعـل معنى المطاوعـة الـذي يلمح فيـه شيء من معنى المجهول ، والمشتـرك بينها جميعهـا التاء .
ولكي نصل إلى الحقيقة يقتضي لنا الاستفهام عن أصـل هذه التـاء وكيف تأتت لها هذه الخاصة . وعند البحث والمقابلة في اخوات العربية يظهر لنـا أنها بقيـة « ات » أو ما يمـاثلها . وهي لفـظة من الألفاظ المـطلقـة لم تـزل مستعملة في العبـرانيـة بمعنى « ذات » ولا تقـع إلا مفعـولاً بهـا ، وهي في السريانيـة (يت) . وفي العربيـة « ذات » مركبـة مع « ذا » الاشـارية أمـا الأصل وحده فقد فُقد من لغتنا على ما يظهـر ، وهذه اللفـظة موجـودة في سائر اللغات بمعنى الكون المطلق كما سيأتي في شرح القضايا التـالية . أمـا المطاوعات التائية في العبرانية والسريانية فأقدر على تبيـين كونها هي أصـل المطاوعة في العـربية أيضـاً ، إذ أنها تكتب في كليهما ملحقـة في أول الفعل ففي الســريـانيـة (اتفعـل) بـزيـادة « ات » المتقـدم ذكـرهـا عـلى المجـرد الثلاثي ، وفي العبرانية قلبت الهمزة هاء فهم يقولون (هتفعل) فلنـا الآن « افتعـلَ » و « اتفعل » و « هتفعـل » بمعنى واحد وكلهـا تفيد المـطاوعـة .
ونـظراً لكون كـل من « اتفعل » و « هتفعـل » يقوم مقـام « تفعل وتَفـاعلَ وافتعلَ » يرجح كل التـرجيح أن الاداة المشتـركة بينهـا جميعاً هي « ات » . أما من قبيل مطابقة الـدلالة الحـاصلة من مجموع دلالـة « ات » و « فعلَ » دلالـة افتعل ورفيقـاتهـا ، فـواضـح لأنـه قـد تقـدم أن هـذه الاداة تفيـد « الـذات »، فكأنهم أول استعمـالهم هـذه الصيغـة كـانـوا يقصـدون بهـا

انحصار الفعل في نفس الفاعل ، فقالوا « ات قتل » بمعنى حصول القتل في نفس الفاعل ، وقد تنوع معناها بالاستعمال إلى المطاوعة التي تقرب كثيراً من المجهول لأنك تقول « جمعته فاجتمع »، وبكثرة الاستعمال تولد التنوعان الآخران .

أما من قبيل وضع التاء بعد الفاء في « افتعل » فيرد إلى ناموس القلب بسهولة . على أن بعض أهل مصر ينطقون بها كما في السريانية فيقولون « اتجمع » في اجتمع و « اترفتَ » في ارتفت . وأغرب من ذلك استعمالهم هذه الصيغة بدلاً من انفعل أيضاً ، فيقولون « اتكسر » بالتاء عوضاً من « انكسر » بالنون و « اتقطَع » في انقطع . وهذه الأمثال كثيرة الورود بينهم بحيث يكاد يقال أنهم أبطلوا صيغة انفعل وافتعل وابدلوهما باتفعل وكل ذلك من كلام عامتهم .

أما الألف والنون في « انفعل » فإما أن تكون « ات » بعد الابدال كما سبقت الاشارة لتقارب المعنى بين انفعلَ وافتعلَ ، ولكون الصيغة الأولى لا وجود لها في السريانية فتنوب عنها الثانية . أو أنها بقية « نفس » التي هي بمعنى « ات » تماماً وهي في العبرانية والسريانية « نفش » فما المانع من حصول النحت فيها بحيث خسرت حرفيها الأخيرين ويؤيد ذلك أن هذه الصيغة في العبرانية هي « نفعل » بمعنى المجهول تماماً فربما قصدوا بها بسابقتها . ولا عبرة في الهمزة الزائدة في انفعل .

واستفعل مزيد فيها « است » وهي تؤثر في معناها على كيفيات مختلفة ترد إلى الطلب والميل ، وعند ذلك يلزمنا البحث عن كيفية حصول هذه الأحرف على هذه الخاصية . وبالمقابلة يلوح لنا أنها بقية فعل فُقد من العربية ، وحفظ في السريانية بمعنى مال وهو « سطا » حيث قُلبت التاء طاء فهم يقصدون بقولهم « استقتل » مال إلى القتل أو أحب القتل وفي « استغفر » طلب الغفران وقس عليه . ومما لابأس من ذكره أن « است »

في التركية تفيد الارادة والطلب والسؤال والرجاء والرغبة والارتغاب .

وليست هذه كل مزيدات الأفعال في العربية وإنما هي ما غلب استعماله منها ، وهناك مزيدات كثيرة أهملت فاندثرت ، ومنها ما لم يبق منها إلا أمثلة قليلة حفظت في بعض المظان وهي نادرة . فمن مزيدات الثلاثي المهملة مما زيد فيه حرف واحد ما هو على وزن « تفعلَ » مثل ترمسَ وترفل أو « نفعلَ » مثل نرجس و « هفعل » مثل هلقم ، وهذا لا يزال شائعاً في العبرانية و « سَفعلَ » مثل سنبس بمعنى نبس . و « مَفعل » مثل مرحب بمعنى رحب ، و « فيعل » مثل بيصل و « فوعل » كحوقل ، وهاتان الصيغتان شائعتان على ألسنة عامتنا إلى اليوم مثل قولهم ، طيلق وطيلع وبيسع وقيعد وخوطر وزوبن وعورض ودوقر ـ أو على وزن « فاعل » مثل تأبل و « فنعل » كفرنص وغيرها . ومما زيد فيه « ثلاثة » أحرف افعلَّ كاعلوَّط و « افعونل » وغيرها . وقد أورد صاحب المزهر أمثلة كثيرة منها ـ ومن المزيدات التي حدثت في اللغة العربية بعد جمعها « تمفعل » مثل قولهم « تمعزز » و « تمخطر ».

ومما يزاد أيضاً في الأفعال نون التوكيد وهي تفيد تأكيد الطلب أو التمني ، وبعد البحث يظهر أنها بقية لفظة بمعنى « هلمَّ أو ليت » حفظت في سائر اللغات السامية إلا العربية فهي في العبرانية « نا » تستعمل للطلب والتمني فيقولون « شب نا » أرجو أن تجلس أو ليتك تجلس . وفي السريانية « نا » أو « ني » وهي تُعد عندهم من الألفاظ المهملة ومنهم من يخطئون فهمها . وفي السامرية « نا » أو « ني » وفي الحبشية تكتب « نع » وتلفظ قريبة من « نا » وهي تتصرف عند الحبشيين ويقصدون بها ما نقصد بقولنا « هلم ». والغالب أن هذه اللفظة مأخوذة من أصل يدل على حدث لم يعد مميزاً في اللغات الشرقية ، أما في المصرية القديمة فلنا Na تفيد المجيء ويرجح أن هذه الدلالة هي الأصل في الجميع . إذ أن هذه

التنوعات مهما تعددت لفظاً ومعنى ترد بسهولة إليها ، لأن التوكيد في العربية يستعمل للأمر والنهي والاستفهام والترجي والعرض والتحضيض والتمني والقسم ، وجميعها راجع إلى تأكيد الطلب والتمني ، ويجمعها قولك « هلمَّ » وهذه تقرب معنى من « جاء » على صيغة الانشاء ، فقولنا « هلمَّ نذهب » يضاهي قولنا « تعالوا نذهب » فكأن العبرانيين يقصدون بقولهم « شب نا » تعال اجلس أو هلمَّ اجلس . ويقصد العرب بقولهم «قُومَنْ» هلم قم أو تعال قم. أما التشديد فعارض على النون كما عوض في أن وأخواتها وكما سترى عند الكلام على المضاعف .

ومن اشتقاقات الفعل أيضاً اسم المفعول والفاعل ، واسم الآلة وجميعها إلا الثلاثي المجرد يصاغ بزيادة ميم في أوله ، والأصل في هذه الميم على ما يظهر الدلالة الموصولية ، ففي قولنا « مُكرِم » نقصد الذي يُكرِم أو مَن يكرِم ، وفي « مُكرَم » نقصد الذي يكرَم أو مَن يكرَم . فنستدل أن هذه الميم هي بقية « مَنْ » أو « ما » الموصولتين لأنها كثيراً ما وردت في العبرانية متصلة بالأفعال مجردة من النون . ويؤيد ذلك تطابقها لتلك الميم لفظاً ومعنى بحيث يمكنها القيام مقامها تماماً ، فإن « مِلقط » و « ما يلقط » بمعنى واحد . ثم أن اسم الزمان والمكان يحملان على هذا التأويل مجازاً . أما اسم الفاعل والمفعول في الثلاثي المجرد فحاصلان في الغالب بمد إحدى حركات الأصل .

ومن المشتقات الفعلية المضارع وهو يصاغ باضافة أحد أحرف المضارعة (الألف والنون والياء والتاء) في أول الماضي . وما هذه الأحرف إلا بقايا الضمائر المنفصلة إذ أن الألف والنون من مختصات المتكلم على اطلاقه ، والياء للغائب ، والتاء للمخاطب كما سيأتي في باب الألفاظ المطلقة ، وهي تقابل ضمائر الرفع المتصلة التي نحتت في الأصل من الضمائر المنفصلة .

وربّ قائل يقول : « كيف تفيد هذه الأحرف المضارع إذا ألحقت في أول الفعل ، والماضي إذا ألحقت في آخره ؟ » فالجواب : إن اللغة في باديء أمرها لم يكن فيها مشتقات فعلية ماض أو مضارع ، فكانت لفظة « ذهب » مثلاً تفيد مطلق الذهاب غير مقترن بزمان ، فإذا أراد المتكلم الدلالة على أن الذهاب حدث في زمن مضى ذكر أولاً الفعل ، ثم الضمير . فيقول مثلاً للمخاطب « ذهب انت » فكأنه بتقديمه الفعل لفظاً يشير إلى تقدم حدوثه معنى . وبعكس ذلك متى أراد الاستقبال فأنه كان يقدم الضمير فيقول : « انت ذهب » مؤخراً الفعل بالوضع بناء على تأخره في الحدوث . ثم خسرت الضمائر بعض أجزائها بالنحت لتخفيف اللفظ فوصلت إلينا على ما نشاهدها وقد جرى ما يماثل ذلك في صدر الاسلام ، فإن بعض القبائل كانوا يقولون : « انْ فعلتُ » بدلاً من « أنا فعلتُ » ، ويشهد بأن أحرف المضارعة هي في الأصل ضمائر حالة اللغات الأخرى المرتقية حيث يقوم فيها الضمير المنفصل مقام حرف المضارعة عندنا . فالأصل الدال على الذهاب في الانجليزية مثلاً Go فيصاغ منه الحال باضافة الضمير المنفصل في أوله ، فنقول في أذهب I Go ومفادها حرفياً « أنا ذهب » وفي تذهب You Go ومفادها حرفياً « انت ذهب » وهكذا في كثير من اللغات .

ومن هذا القبيل أيضاً صيغ الأسماء فإنها كثيرة في العربية وما أهمل منها أكثر مما بقي . فقد ذكر صاحب المزهر بضع عشرة صيغة مما أهمل أو بطل استعماله ، مثل فعالل فعوعل وفيعل وفوعل وفوعال وفعلليل وفنعليل ويفعول وتفعول وغيرها . وبعض هذه الصيغ مألوف إلى الآن في أخوات العربية وبعض المألوف منها في هذه مهجور في تلك .

على أن صيغ الأسماء لا تزال تتجدد بتوالي الأزمان للتعويض عما اندثر شأن الأجسام الحية النامية . فمن الصيغ التي حدثت في العربية

وهي شائعة على ألسنة الشام ، « فعُول » و « فعُّولة » للتصغير أو التحبب أو لهما معا ، مثل قولهم في نصر الله « نصُّور »، وفي نعمان « نعُّوم » وفي عائشة « عيُّوشة » وفي أمينة « أمُّونة » وكلها للتحبب ، ومثل قولهم في سيف « سيُّوف » فإنها للتصغير وعندهم صيغة لتصغير التصغير على وزن « فعوُّلاية » فيقولون في « سيُّوف » « سيوفاية » ومثلها « تنوفاية » من « تنوفة » تصغير « نتفة » وهي عندهم بمعنى القطعة والقليل من كل شيء .

ومما حدث من صيغ الأسماء وزن « تفعالة » مثل تحماية وتوصاية وتسلاية وأصلها توصية على وزن تفعلة .

تصاريف الأسماء

نذكر من التصاريف الاسمية أولاً النسبة ، وهي تصاغ بزيادة ياء مشددة مكسور ما قبلها في آخر الاسم ، فمن « تَغْلبْ » « تغلبيٌّ » ومن «دمشق» « دمشقيٌّ »، فخاصة النسبة موقوفة على الياء المشددة . وأنّى لها هذه الخاصة ؟ يستدل من المقابلة بينها وبين ما يقابلها في سائر اللغات السامية أنها في الجميع من أصل واحد ، فهي في العبرانية كما في العربية تماماً ، أما في السريانية فهي « يا » مفتوح ما قبلها.وهي الأقرب إلى الأصل الذي هو « اوى » في السريانية ومعناه « وافق » أو ناسب كما تقدم ، وهو في العبرانية «أوَه» مال أو قطَنَ وفي العربية «أوى» مال إلى أو قطنَ. والظاهر أن الأصل في النسبة أن تكون إلى الأماكن كبيروتي ودمشقي ومصري . وعندما نرى أن « بيت » تنسب في السريانية « بَيتيا » بمد حركة التاء يرجح لنا أن ياء النسبة بقية « أوى » المتقدم ذكرها . فقولهم بيروتي يراد به ساكن بيروت أو مناسب لها ، وهكذا في البواقي . وأما قولنا علمي وأدبي فقد استعمل مجازاً في بادىء الأمر وكثر وروده حتى اعتبر حقيقياً . ومما لا يخلو ذكره من فائدة أن « أوى » تقابل Aveo اللاتينية و Aw السنسكريتية وجميعها بمعنى « مال إلى ». وترى في الأمثلة المتقدمة أن الألف والواو فقدتا بالنحت لكنهما قد تظهران أحياناً كما في حي وحيوي . ومن التصاريف

الاسمية التصغير ويصعب علينا تعليله إلا أن نعده صيغة من صيغ الاسم ، تكسبه معنى التصغير نحو ما تكسبه اياه صيغة فعُول العامية المتقدم ذكرها ـ ومما يشترك بين الأفعال والأسماء من الزيادات مميز الجنس والعدد .

أما « مميز الجنس » فليس أصلياً في اللغة والدليل على ذلك أنه يقلّ في بعض اللغات ولا وجود له في البعض الآخر : قلنا في ما تقدم أن اللغات الدنيا هي في الغالب خالية من مثل هذا المميز . نقول الآن أن بعض اللغات الارية يميز فيها المؤنث من المذكر باضافة ألفاظ مستقلة ذات معنى في نفسها ، إلى أصل مشترك الدلالة يقابل اسم الجنس عندنا . ففي الانجليزية Goat ماعز يقصدون بها المذكر اعتيادياً ، فإذا أرادوا التمييز ودفع الالتباس أضافوا إليها ما يميزها من الضمائر فيقال He Goat للمذكر و She Goat للمؤنث . وقد يحصل هذا التمييز باضافة كلمة « رجل » أو « امرأة » فعندهم Cook تفيد قولنا « طباخ » فيقولون لرفع الالتباس A Man Cook رجل طباخ و A Woman Cook امرأة « طباخ » وقد يحصل التمييز باضافة لفظة ديك أو دجاجة إلى الاسم المشترك ، فيقولون Cock Sparrow مفادهُ حرفياً « ديك دوري » ويقصدون به « عصفور دوري و Hen Sparrow دجاجة دوري يقصدون بها « عصفورة دورية » . والانجليز لا مميز للجنس أو العدد في نعوت لغتهم مطلقا ، فيقولون Good Man رجل صالح Good Woman امرأة صالحة Good Men رجال صالحون Good Women نساء صالحات . وهذا النقص في الانجليزية محدود (في الأسماء) ، أما في الفارسية فعامٌّ في جميع أسمائها فلا يتميز الجنس فيها إلا باضافة كلمة مستقلة المعنى ، فيقولون « شير » أسد وهو اسم جنس فإذا أرادوا الذكر قالوا « شير نَرْ » أي أسد ذكر أو المؤنث قالوا « شير مادَه » أسد أنثى ويقصدون بها لبؤة . وهكذا في كثير من اللغات الطورانية ، فإن في التركية يقال (كما في الفارسية) « قيون » اسم جنس

الغنم فإذا أرادوا خروف قالوا « اركـك قيون » ذكـر غنم ، أو غنمة قـالوا « ديشي قيـون » أي أنثى غنم . وفي بعض المسميـات البشـريـة يـزيـدون كلمـة « قِزْ » (ابنـة) على المـذكر فيصير مؤنثـاً ، فمن « قـرنـداش » أخ عندهم « قَزْ قرنداش » أخت ومن « اوغلان » غُلام « قِزْ اوغلان » صبية .

أما في معظم اللغات المرتقية فيميز المؤنث من المذكر بحركة تجعـل في أواخـر الاسم أو الفعل ، وهي من الفتحـة فما دون حتى الكسـرة فهي في اللاتينية واليونانية A أو E وفي الفرنسية E وفي المصرية والقديمة والاشورية الفتحة أو الكسرة ، وفي العبـرانية الفتحـة مسندة بـالهاء . وفي السـريانيـة الفتحة مسندة بالألف ، وفي العربيـة الفتحة مسـندة بالتـاء التي تعود هـاء عند الوقف : ومن الجهة الأخرى تبدل الهاء العبـرانية تـاء عند التحـرك ، فنحن نقول من قتل « قتلتْ » للمؤنث ، وهكذا السريان . أما العبرانيون فيقولون (قتله) بالهاء فإذا اقتضت العوامل تحريكها قلبت تاء .

فبنـاء عليه يـرجح أن عـلامة التـأنيث ليست إلا حركـة وضعت طبقاً لصورة ذهنية شاهدة بمنـاسبة هـذه الحركـة لدلالتهـا . ويؤيد ذلـك اتفاق وجودها في أكثر اللغات على السواء . عـلى أن القياس يقتضي كـونها بقية لفظة تفيد قولنا « أنثى » والله أعلم[1] .

---

(١) إن تقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث والتعبير عن هذا التقسيم بـاللواحق المستخدمـة في اللغات السامية لا يمكن أن يكون اصلياً : ويظهر أن الاسماء كانت تقسم في الزمان القديم تقسيماً أكثر فروعاً مما نعرفه عنها في الحاضر ، ولا نعرف أكان المـذكر والمؤنث يميـزان في التقسيم القديم أم دخله حديثاً وربما كانت اللغة السامية الأصلية بها أنواع متعددة من الاسماء على نحو ما نشاهده في بعض اللغات وبخاصة لغات « البنتو » في جنوب افريقية .
أما تاريخ لواحق التأنيث في العربية فالتاء على الفتحة قبلها سـامية الأصـل ويدل عـلى قدمهـا وجودها في ماضي الفعل . وكثيراً ما حذفت الفتحة في السامية الاصلية وبقيت لنا آثـار منها في العربية مثل بنت وكلتا مؤنث كلا . والألف المـمدودة لا يقابلها في اللغات السامية إلا القليل . والألف المقصـورة توجـد في العبريـة والارامية ، وفي العـربية آثـار للاحقـة رابعة للتـأنيث هي «الكسرة» في قولك يا لكاع.

و « مميز العدد » حادث في اللغات أيضاً لاختلاف درجات هذا التمييز باختلاف اللغة . ونتكلم عن مميز الجمع لأن المثنى فرع منه فيظهر من المقابلة أن علامة الجمع واحدة في سائر اللغات الشرقية أسمائها وأفعالها . ففي العربية النون في الأسماء والأفعال الخمسة ، والميم في الضمائر . وفي العبرانية الميم في الجميع لكنها وردت مراراً عديدة مبدلة بالنون . وفي السريانية النون في الجميع ولم ترد ميماً على الاطلاق وعندما نتذكر قابلية التبادل بين الميم والنون يسهل علينا الحكم بوحدة أصلها في الجميع . والنون علامة الجمع في اللغات الهندية وما ينتمي إليها كالفارسية والألمانية والاوردية .

ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن الميم في العربية تلحق بأواخر الأسماء للتعظيم فيقال « رجل بحرم » أي بحر كبير : وترى بين دلالة هذه الميم وميم الجمع علاقة عظيمة بحيث يكاد يثبت أن كليهما واحد لأن التعظيم والكثرة صورتين متقاربتي الشكل في ذهننا . على أننا بعد كل ذلك لا ننجو من السؤال عن كيفية حصول هذه الميم على هذه الخاصة ، فيتبادر إلى ذهننا أنها بقية كلمة اتفق وجودها في جميع اللغات السامية والمصرية هي « يم » بمعنى نهر كبير أو بحر ، فمن وجودها في جميع هذه اللغات يستدل على قدم عهدها وربما كانت حكاية صوت المياه إذا جرت بغزارة فتوهموا فيها معنى الكثرة .

وسواء استطعنا تتبع جميع هذه الألفاظ إلى أصلها أو لا ومهما يكن في تعليلنا من الغرابة والتكلف ، فذلك لا يمنع استدلال العقل بهذه الأمثلة القليلة حتى يحكم بالقياس على سائر اللغات ، واعتماداً على ما للأحوال من التأثير في الألفاظ وكيف أنها فاعلة عليها دواما فتنوعها لفظاً ومعنى بين نحت وابدال وقلب .

ونظن ما ذكرناه كافياً لاثبات القضية الثانية ، ونضرب صفحاً عن

أبحاث أخرى مطولة تتعلق بأوزان جمع التكسير وحركات الاعراب ، وأسباب المنع من الصرف وغير ذلك من الاشتقاقات والتصاريف التي يقتضي لها بحث أدق ، وزمن أطول ومقام أرحب .

ومما لا بد من ذكره أن معظم هذه الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها ، قد تولدت في اللغة قبل أن بوشر في جمعها بأزمان لا يعرف مقدارها ، والأرجح أنها تولدت في جميع اللغات السامية ، وهي في مهد أمها أي قبل أن قضي عليها بالتشتت والتنوع ودليلنا على ذلك ما بينها من المشابهة كما مر .

القضيّة الثالثة

إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية (احادية المقطع) تحاكي أصواتاً طبيعية

تشتمل هذه الألفاظ على الأسم والفعل وما يشتق منها واللغويون يردون كلاً من الاسم والفعل إلى أصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ، ولا يرون هذه الأصول قابلة للرد إلى أقل من ذلك ، وعندي أنها قابلة ولو بعد العناء . .

فالألفاظ أو بحسب زعمهم الأصول الرباعية ، قد أجمعوا مؤخراً على أنها ثلاثية مزيد فيها . وهذه الزيادة إما قياسية فتكون سيناً أو شيناً في أول الكلمة ، والمزيدات تكون على وزن سَفعل أو شفعل وهذا الوزن من جملة مزيدات الثلاثي في اللغات الشرقية لكنه أهمل في لغتنا ، وما ورد منه عدُّوه رباعياً مجرداً . وأما السريانية فحفظته كباقي المزيدات وهو كثير الورود فيها ونادر في العبرانية . فمن الألفاظ التي وردت على هذا الوزن عندنا قولهم « سقلبهُ » أي صرعه من قلبهُ و « سَلغفهُ » بمعنى ابتلعهُ من لغفهُ . و « سملجَ » أي جرع جرعاً سهلاً من ملج الصبي أمَهُ ، تناول ثديها بأدنى فمه فرضع . و « شبرقَ » ملموح فيه معنى برقَ . ومن هذه الصيغة ما تستعمله العامة ولا أثر له في كتب اللغة كقولهم « سمهد » بمعنى مهد ، و « شلهب » بمعنى لهبَ وغير ذلك . ومن الرباعي المبتدأ بسين أو شين اسماء كثيرة جميعها تتضمن معنى الطول والسعة . .

وقد تحصل هذه الزيادة بمضاعفة حرف أو أكثر من الأحرف الأصلية ، كجلببَ وبلبلَ وقصقصَ وقطقطَ وطقطقَ وصهلصلقَ وما شاكل . أو أن تكون حرفاً دخيلاً وهو في الغالب أحد هذه الأربعة « ل م ن ر » فيكون في أول الكلمة كما في نبذّر بمعنى بذرَ ولهذمَ وكهذَم بمعنى القطع ودحدرَ من حدرَ وغيرها . أو في وسطها كسطلحَ من سطح أي اتسع وسلحفَ من زحفَ أو سحفَ ، وبرعط من بَعطَ وخرمش من خمَشَ ، وشربكَ و شنبكَ من شبك ، وشَمرقَ من شرق ، ويقال فقع أصابعهُ وفرقعها . أو في آخرها كقولهم الفعمل (الملآن) من فُعمَ وبحثر بمعنى بحث وبعثر بمعنى بعث ، وسحفرَ أي مضى مسرعاً من سحف التي حفظَت في زحف . وقطعن وقطعرَ من قطع وقس عليه . وقد تكون الزيادة على طرق أخرى لكنها لا تخرج بالحقيقة عن هذه إلا فيما هو اجنبي كبعض الكلمات الفارسية ولا ضابط لها (منها الطست والخوان والسكرجة والجزذباج من الفارسية . وأكسنيد والميكروسكوب والتلسكوب وأسماء أخرى علمية من اليونانية واللاتينية) وبعض ما كان على وزن فعلنَ هو من السريانية أو العبرانية مأخوذة عن صفة كشيطنَ من شيطان ، وقطرن من قطران ، وعربن من عربون ، وقد يصاغ الرباعيُّ من ألفاظ أعجمية تعربت مثل « دولاب » فإنها كلمة فارسية مركبة من « دول » دلو و « آب » ماء ويريدون بها المنجنون التي تديرها الدابة ليستقي بها بما يشبه الساقية عندنا ، فشقَّ المولدون منها فعلاً رباعياً فقالوا « دَوْلَبَ فلاناً » أي دورهُ إلى مراده وقس على ذلك .

« والأصول الثلاثية » هي الأكثر في اللغة فلذا كان للبحث فيها أهمية كبرى . وقد تبين مما تقدم أن الأصول الرباعية مزيدة والأصل فيها ثلاثي ، وأقول أن الثلاثي أيضاً مزيد والأصل فيه ثنائي غالباً ، وإيضاحاً لذلك أقسم الأدلة إلى قسمين :

أولاً : استقراء الفاظ اللغة العربية ومقابلتها ويفيد غالباً في الأصول الفعلية

يرى الباحث في دلالة ألفاظ العربية المدعوة مجردة أن للمعنى الواحد ألفاظاً عديدة تتقارب لفظاً ، ويمكن تقسيم ألفاظ المعنى الواحد إلى مجموعات ، تشترك ألفاظ كل مجموع منها بحرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي . والزيادة ربما نوعته تنويعاً طفيفاً مثاله : قطَّ وقطبَ وقطف وقطعَ وقطمَ وقطلَ جميعها تتضمن معنى القطع ، إلا أن كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاته ، فالثاني والثالث يتضمنان مع القطع معنى الجمع ، والخامس العض والسادس الشدة والأصل المشترك بينها قط ، وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى . ويجانس قط قص ومنها قصمَ وقصلَ وقصرَ وقصفَ جميعها تفيد القطع . ويجانس قص قض ومنها قضٍ وقاض وقضم وقضب وقضع . ويجانس قص كس ومنها كسَّ وكسر وكسع وكسم ، والأولى والأخيرة من هذه السلسلة تتضمن معنى الدق والفت ، ويجانس قصْ أيضاً جذْ ومنها جًذ وجذب « يقال جذب الريق إذا انقطع » وجذرَ وجذف وجذمَ وكلها بمعنى قطعَ ، ويجانس جذ جز وهذه حكاية صوت المقص إذا جًز شعراً أو صوفاً ومنه جًز وجزأ وجزر وجزع وجرحَ وجزلَ وجزمَ وجميعها من باب القطع . وتنوعات هذا المعنى تفوق المئات عداً ، وقد تصرفوا في استعمالها على طرق مختلفة حقيقة ومجازاً ، وكلها ترد بالاستقراء إلى أصل واحد ، هو حكاية صوت كما رأيت . وهكذا الحال في القسم الأعظم من كلمات اللغة ، فمن هب بمعنى ثار أو هاج لنا هًب وهبجَ ضرب شديداً وهبذَ عدا وأسرع في المشي ، وهبش بمعنى هبجَ وهبص الرجل نشط وعجل وقلق واخيراً هبا الفرس فًر . فترى أن جميعها يتضمن معنى ثار أو هاج . و « هب » هي حكاية صوت اللهيب إذا نفخته الريح . ولنا بمعنى الدق والشدلتَّ ولتب الناقة في أنفها وطعنها

ولتحه ضربه ولتخَ مثل لطخَ والشيء شقـهُ ولتده أي لكـره ، وهكذا لتـزه ولتفهُ ولتمهُ كلها بمعنى الضرب ، والأصـل المشترك بينهـا لتْ ويجانسـه لطْ ومنها لطَّ أي لزم وكتم ، والباب أغلقه والشيء به لصقهُ ولطأه أي ضربـه عـلى ظهره ولـطأ بالأرض لصق بهـا ، ولطثـهُ ضربـهُ وهكذا لـطحَ ولـطخَ ولـطسَ ولطشَ ولـطعَ ولـطهَ وجميعهـا تنـوعـات معنى واحـد . ولنـا بمعنى الـطلاقـة واللطف والانبسـاط بس وبسـأ وبسم وبسـل وبسن أي حسنت سحنته وكلها ترد إلى معنى واحد ومقطع واحد هو بس ، وربما كان الأصل فيه بش وهو من الأصوات التي ينطق بها الانسان غريزياً عند الاستحسـان كـما لا يخفى . ولنـا بمعنى النتـوء والبـروز نبَّ ونبت ونبثَ بمعنى حفـر ، وكـذلك نبش ونبـج ونبذ ونبـر ونبط ونبض ونبع ونبق ونبـه « بمعنى اشتهر بالشرف » ونبا وجميعها تفيد النتوء والبروز والاخراج ، أما نبَّ فقد جاء في حديث الجدود يعمد أحدهم إذا غزا الناس فينب كنبيب التيس ، وقال في النهـاية النبيب صـوت التيس عند الفسـاد . والتفُّ والتفتُ وسخ الأظـافر ويقاربه تفىء وتفلَ بصق وجميعها تشترك بمقطع « تفْ » وهو من الأصوات التي ينطق بها الانسان غريزياً عند القرف ، ومنهـا أيضاً التفن أي الـوسخ وتفـه فَّل وخس . ومن ضـروب الفتـح لنـا فَّق وفقـأ وفقـح وفقـر وفقص وفقش وفقس ، والعـامة تقـول : فقع وجميعهـا ترد إلى فق وهـذه حكايـة صوت القربة إذا شقت وهي ملآنة أو ما شاكل . .

فنرى في ما تقدم من الأمثال أن الحرف المزيد واقع في آخـر الكلمة ، وهذا هو الأغلب إلا أنـه قد يكـون في الوسط أي بـين الحرفـين الأصليين كشلق من شق ، وفـرق من فق ، وقـرط من قط ، وقــرص من قص ، وقـرض من قض ، وشـرق من شق أيضـاً ولحس ولسـع ولهس من لس . ويجانس فق بق ومنها برق وبعق . ولهط من لط بمعنى ضرب وقد يكون في أول الكلمـة نحو رفت من فت ، ولهب من هب ورفض من فض ، ولمس

من مس ، وفطح وبطح من طح ونذل من ذل وغلف من لف ، وقس عليها مما لا يسعف المقام في استيفائه . وسيأتي شرح ذلك بأكثر إيضاح فيما بعد[1] .

(١) إن أقدم الاسماء صيغة في اللغات السامية هي الاسماء الثنائية ، وقد حافظت العربية على بنائها الأصلي في كثير منها ، غير أنها اشتقت من بعضها صيغاً جديدة :

١ ـ بزيادة أحد حرفي العلة أو بزيادة همزة أو هاء مثال ذلك في الجمع السالم اخوات وفي جمع التكسير آباء ومياه وفي الاسماء المشتقة ابوة ، وفي الافعال المشتقة سمى وفاه .

ومن الاسماء الثنائية ما آخره حركة ممدودة وهي بعض اسماء القرابة نحو أبو وأخو وحمو ، ومنها اسم يشتمل على حرف واحد فقط هو « فو » والحركة الممدودة سالمة في المضاف نحو أبو زيد وأبونا ، وقصرت مع التنوين نحو أب وفم ، وحذفت مع ضمير المتكلم نحو أبي .

وكانت الفتحة السالفة لتاء التأنيث ممدودة أيضاً في هذه الاسماء في اللغة السامية الاصلية ، من ذلك في العربية حماة يقابلها في العبرية « حاموت » وفي الارامية « حماتا » وفي الاكدية « حميت ». ومن ذلك في العبرية « أحوت » أي الاخت وهي في الأرامية « خاتا » وفي الاكدية « اخات » غير أنها صارت في العربية « أخت » على مقياس بنت .

ومنه مع تاء التأنيث عضه ورئة ومئة واللات والفتحة فيها ممدودة ، ومما حركته فتحة مقصورة شفة وسنة وأمة .

وقد توجد فتحة ممدودة نحو « ماء » أصلها « ماي » وهي في الحبشية « ماي » وقصرت الحركة في العبرية الآرامية « ماي » واتحدت بالاعراب في الاكدية فأصبحت « مو » .

٢ ـ وقد تكرر مادة ثنائية مرتين فيصبح الاسم في ظاهره رباعياً نحو كوكب وأصله كبكب والباء الاولى صارت واواً في بعض اللغات السامية وادغمت الكاف الثانية في بعضها ففي الاكدية « ككب » وبقيت سالمة في المهرية « كبكب » .

ومن هذه الاسماء الرباعية مظهراً « قرقر » و « سلسلة » ومنها أيضاً « ليل » وأصلها ليلى وهذه صيغتها في السريانية ، ويدل على ذلك الأصل جمعها على ليالي وزن فعالل .

وكل هذه الاسماء الثنائية هي في اللغة العربية وفي سائر اللغات السامية أصلية غير مشتقة من الأفعال . والحقيقة أن الافعال ـ إذا وجدت ـ اشتقت من الاسماء .

وهناك اسماء ثلاثية أصلية نجدها مشتركة في اللغات السامية وهي على الاخص اسماء الاشياء المادية المنظورة الملموسة منها للحيوان : النمر والذئب والابل والثور والحمار والكلب والخنزير والنسر والذباب ، ومنها للنبات : العنب والثوم والقثاء والكمون ، ومنها لاعضاء الجسم : الرأس والعين والاذن والانف والسن والشعر والشفة والظفر والركبة والذنب والقرن واللب والكلية والكتف ، ومنها لغير ذلك : السماء والشمس والأرض والحقل والبئر والبيت والعمود والعرش والقوس والحبل والاناء والقمح والدبس ، وهذه الاسماء كلها لم تشتق من الافعال والدليل على ذلك :

=

. . . .

= ١ ـ إنه في كثير منها لا يكاد معناها أن يحتمل الاشتقاق من فعل أصلاً : فمن أي فعل نشتق اسماء كالذئب والقوم والرأس والارض ولماذا نفترض أن يكون هناك فعل اسبق من هذه الاسماء وامثالها .

٢ ـ إن بعض هذه الاسماء تخالف الافعال التي يحمل معناها الاشتقاق منها مخالفة تامة مثل الاذن ففعلها السمع ، وكذلك العين وفعلها رأى . .

٣ ـ لا نجد صلة بين أوزان هذه الاسماء ومعانيها فإنا نرى الاسماء المتقاربة في المعنى متقاربة في الوزن نحو الثور والحمار أو العين والاذن . ولو اشتقت من أفعال لكان لكل معنى وزن واحد بنيت عليه الاسماء أو أوزان قليلة . .

وقد توجد اسماء دالة على اشياء مادية محسوسة لها معان متقاربة ووزن واحد واقدم مثال لذلك بعض اسماء لاعضاء الجسم على وزن فَعِل : منها من الاسماء في اللغة السامية الاصلية الكتف والرحم والكبد والكرش والمعدة ومنها أيضاً النفس « وأصلها نفس وهي في الاكدية « نفشت » وكانت تعد قديماً من اعضاء الجسم . والواقع أن توزان هذه الاسماء ناشىء عن أحد سببين :

الأول : إنها اشتقت من أفعال أو بالاحرى من مواد ثلاثية وبقيت على وزن واحد .

والثاني إن احدها كان اسوة قيس عليه الباقي وهذا كثير في تاريخ اللغات عامة فقد ينشأ الوزن في كلمة معينة ثم تقاس عليها كلمات اخرى تشبه معانيها معنى الكلمة الاولى .

ومن الاوزان القديمة جداً لاسماء اشياء مادية محسوسة : فعلل وهو رباعي استخدم في اسماء بعض الحيوان منه : عكبر وعقرب وأرنب وهي سامية الأصل وربما كانت الباء في عقرب وأرنب علامة الحقت للدلالة على معنى كل منهما .

ومن اسماء الاشياء المادية ما اشتق من الافعال مثال ذلك اسماء الالة والمكان وهو سامي الاصل . ووزن مفعال لـلالة أصله فعال ثم ألحقت به الميم وفعال أقدم وزن لاسم الالة في اللغات السامية ومنه : سنان ونطاق وإزار.

أما أكثر الاسماء المبنية على الاوزان فهي اسماء المعاني والصفات ، ولكل وزن منها حيز من المعنى والوظيفة ، وكل اسم معناه ووظيفته داخل في ذلك الحيز يبنى على ذلك الوزن . مع العلم بأن كثيراً من الاوزان تجمع بين معان مختلفة وكثيراً من المعاني يؤدي بأوزان متعددة ولذلك سببان :

الأول : إنه يوجد بين اسماء المعاني والصفات ما هو أقدم من الاوزان شبهاً بالاسماء الدالة على الاشياء المادية المحسوسة .

الثاني : إن طرق القياس قد كثرت وتشابكت فخالط اشتقاق الاسماء على الاوزان شيء من الاتفاق والاضطراب .

ومع كل ذلك فالقياس على الاوزان اقوى بكثير عند اسماء المعاني والصفات منه عند غيرها من الاسماء ، وذلك لأن اسماء المعاني والصفات قريبة جداً إلى الافعال ، والافعال غلب عليها =

كيف حصلت هذه التنوعات ؟

كل من هذه التنوعات إما أن يكون حاصلاً من تركيب أصلين لكل منهما معنى في نفسه أو لا ، فإذا كان الأول كان حصوله على طرق ـ منها النحت أي ادغام كلمتين فأكثر إلى كلمة واحدة كما مر وهذا رأي بعض اللغويين في الرباعي ، ولا نرى مانعاً من اطلاقه على الثلاثي أيضاً ، لأن بعض الأفعال الثلاثية تقبل الحل إلى أصلين لكل منهما معنى في نفسه ، نحو قطف ويفيد القطع والجمع والأصل فيه على ما أرى « قطْ لفْ » الأولى قطعَ والثانية جمع وبالاستعمال أهملت اللام ونقلت حركتها إلى ما قبلها فصارت قطف . و « قمش » أي جمع ما على الأرض من الفتات فإنها ترد إلى أصلين ، قمْ وقش الأول بمعنى كنس والثاني جمعَ . فكانوا إذا أرادوا كنس شيء ما وجمعه قالوا : « قمْ قشْ » وبالتخفيف ألغيت القاف

= القياس غلبة تكاد تكون تامة مثال ذلك إنا نرى « فرح » تكون اما فعلاً فهي إذا مبنية على الفتحة أي فرح ، أو صفة فهي إذا منصرفة أي فرح ، و « قرب » تكون فعلاً إذا كانت الكسرة مقصورة أي قرب وإذا مدت أصبحت وصفاً أي قريب ، ومثله كثير في اللغات السامية . .

وأكثر منه ما تخالف فيه الفعل والاسم في الوزن وتوافقا في المعنى ، منه كل اسم على وزن فاعل ومفعل وكل المصادر وغير ذلك .

وأكثر اللغات السامية امسكت عن اشتقاق الاسماء الجديدة في زمان قديم جداً إلا على القليل من الأوزان كالمصادر والانساب فأصبحا جملة اسمائها محدودة ، لايزال عليها إلا القليل في المدة الطويلة ، فاشتقاق الاسماء فيها ميت أو يكاد . وداومت اللغة العربية تشتق الاسماء الجديدة الكثيرة على الاوزان المتنوعة . وجاز للشاعر أن يرتجل الاسماء الجديدة على الاوزان المعروفة ، فكانت الكلمة تستخدم مرة في بيت من الشعر ثم لا يعاد استخدامها ، وكانت جملة الاسماء غير محدودة بل قابلة للزيادة والنقصان في كل وقت ، ووجد عدد من الاسماء في الواقع وإن لم يوجد في الاستعمال ثم جمع اللغويون الكلمات المروية في الشعر عند العرب وضبطوا معانيها ، وظن الناس أن هذه الاسماء المدونة في المعاجم هي اللغة العربية ولم يجسروا على اختراع الاسماء باعتبار اللغة حية في أذهانهم ، بل أخذوا بلغة كانت قد ماتت ودفنت في الكتب ، ولا غرابة في ذلك إذ كان الكثير منهم لا يعرف العربية بل كان من أصل أعجمي .

الوسطى فقيل قمش . وهكذا في بعج فإنها ترد إلى « بعْ بج »، ومثل ذلك كثير في الألفاظ الثلاثية وأن استبعد بعضهم هذا التعليل ، فهو غير مستبعد عند من له شيء من الاطلاع على خصائص الألفاظ وقابليتها للابدال والنحت . وزد على ذلك أن من يسلم بامكان حدوثه في الرباعي بنحت أربع أو خمس كلمات إلى كلمة واحدة كقولهم بسملَ « قال بسم الله » وسبحل « قال سبحان الله »، وهيللُ « لا اله إلا الله » وحوقْل « لا حول ولا قوة إلا بالله »، وحمدلَ « قال الحمد لله »، وحيعل « قال حي على الصلاة حي على الفلاح »، وطلبق « قال أطال الله بقاءك » وجعلف « قال جعلتُ فداك »، ودمعز « قال أدام الله عزك » لا يستبعد حدوثها في الثلاثي من كلمتين ولنا فيما تقدم عن لغة عامتنا دليل . .

أو يتم بواسطة الترخيم أي اهمال القسم الأخير من الكلمة تفنناً في اللفظ كقولهم « يا أبا الحكا » في « يا أبا الحكم » وأمثال الترخيم كثيرة في العربية منها قولهم ، احتسى في احتسب ، وتجمَّى في تجمع ، وتجنًّى في تجنب ، وشجا في شجب ، وباهاه في باهجه ، واعتمى في اعتمد ، وتقنى في تقنع ، واحتفى في احتفل ، وفصا في فصلَ ، ووصى في وصل ، وتمطَّى في تمطط ، وتغضَّى في تغضض ، وتدلى في تدلدل ، وتطلى في تطلطل ، والسادى في السادس ، وغيره مما يضيق عنه المقام . وعامة الشام يقولون « تعا » في تعال . فهل يبعد تركيب أصلين ثنائيين وتحولهما معاً إلى أصل واحد ثلاثي على طريق الترخيم ؟

وإذا لم يكن لكل من اللفظين معنى في نفسه فلا يخلو أن يكون لاحدهما أو لا ، فإن كان الأول كان أحد اللفظين فعلاً ، والآخر حرفاً زيد اعتباطاً . وهو في الغالب أحد هذه « ل م ن ر » وربما توهم الواضع في هذه الزيادة شيئاً من المبالغة أو تنويع الفعل بما يطابق قصده نحو فض ورفضَ ، وهبَّ ولهبَ ، وشق وشلق ، وكن وسكنَ وربما كانت هذه

مـزيدة سـابقتها عـلى نحو مـا تقـدم في صيغـة سفعـلَ وقس عليـه . أمـا المضاعف والأجوف والناقص فتولدها أقرب من الجميع ، إذ لا فـرق بينها وبين الأصل إلا بمقدار الصوت لا بنـوعه وسيجيء تفصيـل ذلك . وإذا لم يكن لاحـدهما معنى في نفسـه أي أن لا يكون اسـماً ولا فعلاً فـلا يخلو أن يكـون حرفـاً ، وربما كـان اسماً أو فعـلاً في الأصل ، ولم يعـد مميزاً الآن . ولدينا من هذا النوع بعض الكلمات العربية نقدمهـا مثالاً : من ينـظر في لفظة « مال » بمعنى مقتنيات لا يخطر لـهُ إلا أنها أصل مستقـل ، ولكنها في الواقع مركبة من « مـا » الموصـولة ولام الاضـافة فكـانوا يـريدون بقـولهم « مالك » الـذي لك أي مـالك ومقتنيـاتك . ولكثـرة الاستعمال أصبحت كـأنها كلمة واحـدة كـما حـدث في « اشـرل . . » العبـرانيـة فتحـولت إلى « شل » وقد خصت « مـال » الآن بالـدلالة عـلى نوع النقـود من المقتنيات عـلى حين أنها قـد تستعمل بمعنى « شـل » العبْرانيـة أي « خاصـة »، وقد صرفوا هذه اللفظة وشقوا منها مشتقات عدة فقالوا : ماله يموله مولا أعطاه المال . ومال صار ذا مال وهكذا مّوله صيَّره ذا مال ، وأماله أعطاه المـال ، وتّمول الرجل كثر ماله . ويقولون رجـل مال أي متمـول معط ولا يبعد أن يكون مال يميل مأخوذ عنه فـإن الأصل في مؤدي هـذه أحّب ورغب والمال أحب ما لدى الانسان . وهكذا إذا بحثنا عن « نور » أو « نار » فإننا نراها مـركبة من أصلين فهي في العبـرانية « أور » وفي الاشـوريـة « أر » ولنـا في العربية ما يدل على سابق وجودها على هذه الصـورة ، فإننـا نقول استـأور فلان أي عجل في الظلمة وهي على صيغة استفعل مصاغـة من أصل ربمـا كـان « آر » ونظراً لـدلالة هـذه الصيغة عـلى الطلب والـرغبـة يـرجـح أن قصدهم باستأور فلان في الظلمة ، إنـه أسرع يـطلب النور ، ولنـا أيضـاً « الأوار » حر الشمس والنار ومنها مجازاً العطش والدخان واللهب والجنوب جمعها « أور » ومن ذلك قـولهم « الآر » أي العار . وربمـا كان الأصـل في هـذه اللفظة حكـاية الصـوت الطبيعي الـذي يخرجـه الانسان إذا لـذعتـهُ

النار . أما النـون فإمـا أن تكون بقيـة كلمة ذات معنى أو أنها لا معنى لهـا ألحقت اعتباطاً من قبيل ما تقدم . .

وكذلك « ويل » فإنها مؤلفة من «وَيْ » لفظ تأوه وهـو من الأصوات الطبيعية ولام الاضافة . والدليل على ذلك أن ما نعبر عنه بقولنـا « ويلي » كان « ويل » كلمة واحدة ، يعبر عنه العبرانيون والسريانيـون بقولهم « وَيْ لي » وقد وردت « وَيْ » وحدها مراراً عديدة في العربية ، كقولهم « ويك » ومـا شاكـل . ومع ذلـك تراهم قـد جمعوا لفـظة « ويل » وصـرفوهـا على المزيدات فقالوا : ويَّل وتويَّل وتوايـلَ ، واستعملوها اسـماً لواد في جهنم ، وشقوا منه مرة فقالوا : ويلة ويقصدون بهـا فضيحة . وزد عـلى ذلك أنهم ركبـوا من « ويْ » عدة كلمـات منها وَيـح ووَيب وربما كـان أصلهـا « وَيْ اب » للاستغاثة به ، ووَيـخ ربما من « وَي أخ » ووَيس ووَيـه . ولم يكتفوا بذلك بل ركبوا من « وَيل » قولهم « وَيلمـهُ » بمعنى داه فيقولـون لمن عرف بالدهاء « وَيلمهُ » وهي منحوتة من وَيْ لأمه أو وَيل لأمه . فتأمل .

وهكـذا يقال في الفعـل الناقص « ليسَ » الـذي هو بحسب الـظاهـر أصـل مستقل فـأنـه مـركب من « لا » حـرف نفي و « أيس » الـدال عـلى الكون المطلق فأدغمتا معـاً وكونتـا كلمة واحـدة كما رأيت . وهـذا الأصل « أيس » الدال على الكـون المطلق واحـد في أكثر اللغـات المرتقيـة لا سيما القـديمة ، ففي العبـرانيـة « يش » وفي السـريـانيـة « ايت » وفي الـلاتينيـة والسنسكريتية والفارسية واليـونانيـة وفروعهن Est ، وقـد تركبت « ايت » السـريانيـة مع « لا » النـافيـة فكـونت (ليت) لنفي الكـون المـطلق مثـل « ليس »، وهي تذكرنا بالحرف المشبه بليس أعني به « لات » ولا يخفى أن « ليس » من الأفعـال الناقصـة فالـظاهر أنها كـانت تكتَب « لا أيس » ولا تستعمل إلا منفية كما تكتب أخواتها : ما دام ، ومـا برح ، ومـا انفك ، وما زال الخ . ولكثـرة الاستعمال خففت . وبنـاء عليه كـان يخشى ادغام

هذه الأفعال أو نحتها إلى كلمة واحدة لو لم تكن اللغة مدونة ومضبوطة . ويقال نحو ذلك في لشا يلشو لشوا أي خسَّ بعد رفعة فإنها منحوتة من « لا شيء » ويوضح أصلها من مزيداتها فيقال لاشاه ملاشاة فتلاشى تلاشياً ضمحله وصيره إلى العدم . والعامة تقول تلاشى المريض أي انحطت قوته وقارب الوفاة . أما قولهم « لشا » بمعنى خسَّ فيذكرنا بقول الفرنسيين بهذا المعنى تماماً lache .

وكثيراً ما تتكون أفعال من نحت بعض الجمل الندائية كقول العامة « ما تيالله » بمعنى « لماذا لا تمشي » والأصل فيها « يا الله » يقولونها عند الابتداء بالعمل ، ثم صاغوا منها فعلاً لنحو هذا المعنى ولكنه لا يزال في أول تولده ، فلم يتكون منه غير هذه الصيغة . هذا ما وصلنا إليه عن طريق مقابلة ألفاظ اللغة فلننظر في القسم من الأدلة .

ثانياً ـ استقراء بعض احوال اللغات الأجنبية وحملها بقياس التمثيل على لغتنا

جُمعت اللغة العربية بعد الاسلام بقليل . وأقدم ما لدينا من الكتابات هو القرآن . وقد وصل إلينا بعض الأشعار المنظومة قبل ذلك الحين بزمن يسير ، ولا فرق بينها وبين اللغة المجموعة بما يستحق الذكر . وخلاصة القول أن العربية يوم جُمعت كانت على جانب عظيم من الارتقاء والتهذيب ، وقد أجبر المتكلمون بها على المحافظة على نسقها محافظة تامة بحيث أن اللغة الكتابية اليوم تكاد تكون مثل لغة العرب قبل الاسلام ، على أننا لولا محافظتنا على كتب اللغة كما سبقت الاشارة ، أي لو اتبع كل جيل اصطلاحات أهله لأمست اللغة العربية الفصحى لدينا الآن لغة غريبة لا نفهمها ، ولتنوعت وتعددت لغات الكتابة أكثر كثيراً مما هو

الواقع في لغة التكلم ، ولتعذر على السوريين فهم كتابة المصريين والمصريين كتابة المغاربة وبالعكس ، وبعبارة أخرى لتفرعت اللغة العربية فروعاً يختلف بعضها عن بعض اختلافاً لا يقل عما بين فروع اللغة اللاتينية (الفرنسية والايطالية والاسبانية والسويدية وغيرها)[1] ولاضطررنا في فهم كتابة أسلافنا وزملائنا لدرس اللغة العربية القديمة ، وفروعها الحديثة كما هو الحال في فروع اللغة اللاتينية . فبناء على ما تقدم ليس لدينا من المواد ما يعنينا في تتبع أصل ألفاظ لغتنا كما يرام ، فعسى أن ينجلي لنا ذلك من النظر إلى اللغات الأخرى .

معلوم أن اللغة تكون في أول نشأتها وأبسط أحوالها مؤلفة من ألفاظ قليلة العدد ، كافية لتفاهم المتكلمين بها بالنسبة لبساطة احتياجاتهم ، فإذا ارتقت أحوالهم واحتاجوا إلى كلمات جديدة يعبرون بها عن معان لم تكن في ذهنهم من ذوي قبل ، ركبوا من الكلمات التي لديهم ما يسد حاجتهم . وقد يسلكون في ذلك مسلكاً آخر . فإن سكان المكسيك القدماء لما رأوا السفينة لأول مرة ولم يكونوا يعرفونها قبلاً ، ولم يكن لها في لغتهم اسم دعوها « اكالي » أي بيت مائي . وأهل ميسوري لم يكن عندهم من الأدوات إلا الصوانية فأول ما جيء إليهم بالحديد والنحاس دعوا الأول « وتساسبسا » أي حجر أسود والثاني دعوه « وتساهيسببسي » أي حجر أحمر . ولما رأى بعض هنود أمريكا الفرس لأول مرة دعوه بما مفادهُ « كلب سحري » وآخرون دعوه بما هو أغرب من ذلك ، فقالوا ما تعريبه « خنزير يحمل الانسان » ومن غرائب اللغة الصينية تعبيرهم عن قولنا « فضيلة » بأربع كلمات معاً وهي « أمانة ـ شفقة ـ اعتدال ـ عدالة » وعن الوالدين بقولهم « أب ـ أم » . والمكسيكيون أول عهدهم بالماعز وضعوا لها اسماً لا يقل غرابة عن تسمية زملائهم الصينيين وهو بلغتهم

---

(١) « السويدية وغيرها » يقصد المؤلف البرتغالية والرومانية .

« كواكواوتنتسون » وتعريبها حرفياً « رأس شجرة شفة شعر » فقصدوا بقولهم « رأس شجرة » القرون و « شفة شعر » اللحية وبعبارة أخرى الحيوان ذو القرون واللحية . وأهل ملقّا يدعون السهم « اناك بناه » أي ولد القوس وفي الفارسية « آب ودانة » المعيشة ومعناهما حرفياً « الماء والحَبُّ » والاستراليون يعبرون عن « متفق » بقولهم « غوردوجينيال » أي « قلب واحد أتى » ومن المؤكد أن هذه الكلمات لم يمر عليها بعض السنين من وضعها حتى تصرف المتكلمون بها على طريق مختلفة ، نحتاً وابدالاً وقلباً بحيث لم يعد تمييزها سهلاً . فكيف يمكنهم بعد أن تبلغ لغتهم مبلغ لغتنا من الارتقاء والتهذيب أن يخطر لهم أو أن يحلموا أن تلك المسميات مركبة أصلاً من ألفاظ ذات معان مستقلة .

(وفي العربية كثير من ضروب هذه التسمية كقولهم ابنة العنب للخمر وابنة الحان لها أيضاً ، غير أن هذه التسميات حديثة الوضع عندنا . وقد وضعت تفننا في البيان . والدليل على ذلك أن لهذه المعاني كلمات أخرى مفردة في لغتنا ، أما في اللغات الأخرى فهي التسمية الوحيدة غالباً) .

والنحت يفعل في تغيير صور الكلمات فعلاً عجيباً يكاد يفوق التصديق . فإن المدنجو[1] من قبائل افريقيا الجنوبية كانوا يعبرون عن « أخت » بقولهم « مي بادو دنغو موسو » ومفادها حرفياً « أنثى ولد أمي » لكنهم نحتوها بالاستعمال فصارت « مبادنموسو » وأغرب من ذلك أن زنوج « غريبو » يعبرون عن حاسة الغضب بقولهم « اه يامو كراوودي » أي « قد نتأ عظم في صدري » لكنهم يسرعون في لفظها فتسمع « يا

(١) المندنجو أو الماندي لغة قبائل تقطن افريقيا الغربية على حوض النيجر وهي من اللغات السودانية من مجموعة لغات النيجر والسنغال . ذكرهم البكري في القرن الحادي عشر الميلادي وابن بطوطة وابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي . وفي سنة ١٨٤٥ نشر D'aveza مفردات جمعت في القرن السابع عشر الميلادي ويرجح أن جرجي زيدان عرفها من كتاب .
A. Steinthal. Die Mande— Nager— Sprachen. Berlin 1867

مكـروري » والأغرب من كـل ذلك أن سكـان جزيـرة « فانكـوفر »[1] لما شاهدوا رجلاً افرنجياً لأول مرة كـان ذا لحية طـويلة فوضعـوا له في لغتهم اسماً هو « يكبيكـو كسالكـوس » ومفادهـا حرفياً « طويـل ـ وجـه ـ شعـر رجل » ثم حرفوها ونحتوها حتى صارت « يكبوس » فتأمل . .

ومثل هذه الأمثلة كثير في الطائفة الآرية ومعظمها مـركب من كلمات لاتينيـة أو يونـانية أو غيـرها . ومن لـه المام في إحـدى هذه اللغـات يعلم ذلـك . ونأتي هنـا بمثَل أو اثنـين فقط للتمثيل فـإن Fortnight الانجليزيـة منحـوتـة أصـلاً من كلمتين انجليـزيتـين Forteen Night أي ١٤ ليلة و Doubleبالفرنسية والانجليزية « مضاعف » أصلهـا من كلمتين لاتينيتـين Duoplex أي « ضعفـين » وكذلـك Triple و Quadruple واخواتهـا فـإنها مركبة من Plex المتقـدم ذكرهـا والاعداد الـلاتينية Quatuor, Tre الـخ . والاصول الفعلية المركبة هي أكثر كثيراً في هـذه اللغات ، وقلما تجـد فعلاً غير منحوت من أصلين فأكثر الواحد في الغالب فعل والآخـر اداة . وهذا النوع من التركيب خاص بهذه الطائفة ، وهو أشهر من أن يـذكر ، لكننـا نـذكر هنـا مثلاً واحـداً يبين مقـدار ما وصـل إليه هـذا التـركيب : ركب الـلاتينيون من Vox « صـوت » سلسلة أفعال وأسـماء . منها Vocabulum كلمة Revocabulum قابل النقض و Irrevocablis غير قـابل للنقض وقس عليه . .

ومن طرق التعبير في أخوات العربية ما ربما يلقي على بحثنا نوراً فـإن العبرانيين يعبرون عن قولنا « فكَّر » بقولهم ما تعريبه « قـال في قلبه » وعن « عـائلة » بقولهم « بيت أب »، فجميـع هذه الكلمـات المـركبـة يمكن أن تنحت بالاستعمال إلى كلمات مفردة لا يسهـل تتبعها إلى أجـزائها المؤلفـة هي منها . .

---

(١) فانكوفر جزيرة في المحيط الهادي بالقرب من ساحل كندا .

هـذا ولا يخفى أن قسماً عظيماً من الأفعال العربية أصلها أسماء جامدة ، ربما كانت في الأصل أعجمية معربة ، والغالب فيها أن تكون رباعية كقولهم « فلسف » وتفلسف الرجل تحكم (من الحكمة) وتحذق بالشيء والأصل فيها كلمة يونانية هي Philosofia الفلسفة وهذه مركبة من أصلين Philiaحب sofia الحكمة . وأمثال هذه الكلمات كثيرة في العربية وأكثرها مأخوذ عن الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . واللغة لا تنفك عن الاستعارة في كل آن وزمان ، فإن العامة تقول « ستف » بمعنى رتب صفوفاً بعضها فوق بعض ، وهي لفظة كثيرة الاستعمال بينهم ولا نرى لها ذكراً في كتب اللغة ، فالظاهر أنها معربة من Stow التي هي و Stuff من أصل واحد ، فيرجح أن عامتنا أخذت هذا الفعل عن الانجليز . ولو حصل ذلك قبل أن جمعت اللغة لكانت هذه اللفظة معدودة الآن بين الألفاظ العربية ، ولما تجرأنا على القول بأنها مأخوذة عن لغة أعجمية . فما المانع من حصول مثل ذلك في اللغة قبل أن جُمعت وهي إذ ذاك أكثر قبولاً لمثل هذه الاستعارات ، نظراً لاحتياجها إلى الألفاظ ولأنها لم تكن مدونة محدودة محظوراً على أهلها استعمال الألفاظ الأعجمية . .

وفي اللغة العربية ألفاظ تعد من أعرق الكلم في العروبة وما هي منها في شيء . من ذلك لفظ « النبي » بمعنى الرسول ونحوه فقد شقها صاحب القاموس من « نبأ » وما في معنى هذا الفعل ما يدل على النبوءة إلا أن يقال بتجليه في مشتقاتها مثل : تنبأ ونبَّأ ونابأ ، فإن فيها معنى الأخبار . ويلوح لنا أن هذا المعنى مكتسب من لفظ النبي أي أنها مشتقة منه ، وأما هو فيغلب في اعتقادنا أنه مصريٌّ قديم مركب من لفظين « نب » و « ي » ومعناهما معاً رئيس البيت أو شيخ العائلة[1] . والظاهر أن اليهود اقتبسوا

---

(١) « نب » في المصرية القديمة معناها « سيد » ووردت في الكتابات المصرية القديمة في عصور متقدمة « نبو » . وقد تكون « نبي » باضافة ياء المتكلم في المصرية القديمة بمعنى « سيدي » .

هذه اللفظة من المصريين القدماء أثناء سكناهم مصر واستخدموها أولاً لهذا المعنى ، فسمَّوا بها الآباء الأولين (راجع المزامير ١٠٥ : ١٥) ثم أطلقوها على الأنبياء كافة . وأخذها عنهم العرب لهذا المعنى كلما أخذوا غيرها من الآداب الدينية قبل الاسلام - وكان اليهود يسمون النبي قبلاً « الرائي » يريدون به الذي يرى الغيب .

ومنها « السراب » وهو ما تراه نصف النهار من اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض ، وقد شقها صاحب القاموس من « سربَ » الماء جرى فقال « سمي بذلك لذهابه على وجه الأرض » - وهي كلمة فارسية مؤلفة من « سير » مملوء و « آب » ماء أي « مملوء ماء » وهو المراد بالسراب . .

ومنها « المَلَك » واحد الملائكة فأنه لفظ عبراني الأصل بصيغة اسم المفعول من هالك أرسل ومعناها الرسول ، وهو المراد بها في العربية[٢] . وقد شقها صاحب القاموس أيضاً من آلك « العربية ». ومن هذا القبيل ألفاظ كثيرة أصلها أعجمي ، وقد تعربت ونسي أصلها .

والخلاصة أننا نستدل من امكان تجريد قسم عظيم من الأصول الثلاثية إلى أصول ثنائية تحاكي أصواتاً طبيعية ومن كون ألفاظ اللغة من شأنها التغير والتنوع لفظاً ومعنى ، على أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها إلى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية . .

---

(١) ملك أو ملاك دخلت العربية عن الآرامية والاصل عبري دخل الآرامية .

القضيّة الرابعة

إن جميع الألفاظ المطلقة قابلة الرد بالاستقراء
إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ

إن الألفاظ المطلقة هي التي يمكن الدلالة بواحدة منها على أي نوع من الموجودات ، كما سبقت الاشارة ، وهي تشمل الضمائر واسم الاشارة واسم الموصول ، ويرى الباحث المتأمل في أحوال هذه الألفاظ في لغات مختلفة أنها تكاد تكون واحدة في جميعها ، وأنها من الأدلة الواضحة على وحدة الأصل فيها : وتحسن الاشارة عند الاقتضاء إلى أوجه المشابهة بينها لعلها تسعفنا في تتبع الأصل المتفرعة عنه كل هذه الفروع . وسنتوخى في ذلك الاختصار بقدر الامكان .

فلنبحث أولاً في الضمائر ، ولنرسمها في كل من اللغات السامية للمقابلة إذا أمعنت النظر في الجدول الآتي رأيت الضمائر تتميز بعضها عن بعض بالعدد والجنس والشخص ، وأن تمييز العدد قائم بزيادة ميم للمذكر ونون غالباً للمؤنث ، لكنها لا تقع تحت حكم قاطع إذ أنهما تتبادلان في أحوال جمة ، وهي واحدة في السريانية والقياس يقتضي أن تكون الميم في العبرانية للمذكر والنون للمؤنث ، لكن هذه الأخيرة كثيراً ما وردت في مكان تلك ، وليست هي في كل حال إلا مميزاً للعدد لا دخل لها في مادة الضمير ، لأنها تستعمل حيثما احتيج للدلالة على الجمع سواء كان في الاسم أو الفعل أو غيرهما كما مر .

الضمائر في أمهات اللغات السامية

	العربية			السريانية			العبرانية		
	رفع منفصل	رفع متصل	نصب متصل	رفع منفصل	رفع متصل	نصب متصل	رفع منفصل	رفع متصل	نصب متصل
المتكلم	أنا	تُ	ي	(أنا)	(ت)	(ي)	אנכי (انكي)	תי (بي)	י (ي)
المخاطب	أنت	تَ	كَ	(أنت)	(ت)	(ك)	אתה (أنه)	ת (تَ)	ך (ك)
المخاطبة	أنتِ	تِ	كِ	(انتي)	(تي)	(كي)	את (ات)	ת (تْ)	ך (كَ)
الغائب	هو		ـهُ	(هو)		(ـهِ)	הוא (هوا)		הו (هو)
الغائبة	هي		ها	(هيِ)		(ـهَ)	היא (هيا)		ה (ـهَ)
المتكلمين	نحن	نا	نا	(حنَنْ)	(ن)	(ن)	אנחנו (انحنو)	נו (نو)	נו (نو)
المخاطبين	أنتم	تم	كم	(انتون)	(تون)	(كون)	אתם (أتمّ)	תם (نم)	כם (كم)
المخاطبات	أنتنَّ	تنَّ	كنَّ	(انتين)	(تين)	(كين)	אתן (أتن)	תן (تن)	כן (كن)
الغائبين همَّ	هم	وا	همَّ	(هنون)	(انون)	(هون)	הם (همْ)	ו (و)	הם (هم)
الغائبات هنَّ	هن	ن	هن	(هنين)	(ايتن)	(هين)	הן (هن)	ו (و)	הן (هن)

وأما مميز الجنس ويحصل به التمييز بين المذكر والمؤنث فأنه قاصر في الغالب على الحركات كما تقدم . ويتضح ذلك جلياً في النعوت التي تؤنث وتذكر فأننا بقولنا « حسن » و« حسنة » لا نميز بين الجنسين إلا بالفتح المسند بالتاء التي تلفظ هاء عند الوقف . والأرجح أن أصل التأنيث في العربية أن يكون بالألف مقصورة أو ممدودة كما تعلم . والعبرانيون يؤنثون بالفتح المسند بالهاء وهي تقلب تاء عند التحريك أما في السريانية فتسند هذه الفتحة غالباً بالألف . هذا ما يقال عن النعوت أما في الأسماء فقد تكون التاء علامة التأنيث ، وقد تكون هذه أو تلك تبعاً لمقتضيات العوامل إلا الحركة فإنها من الفتحة فما دون إلى الكسرة . وقد غلبت الكسرة في بعض الضمائر علامة للتأنيث وقد أشبعت في بعض الأحوال حتى كتبتَ ياء كما في « هي » العربية والسريانية .

(تنبيه أول : ترى في الجدول الذي يلي أن النون في مطلق المخاطب في السريانية تكتب ولا تلفظ ويعبر عن ذلك برسم خط تحتها والكاف في السريانية والعبرانية تلفظ غالباً خاء .

تنبيه ثان : ترى أيضاً أن هذه الضمائر ليست كل ما يستعملهُ القوم بل هو الأكثر ورودا) .

فتمييز العدد والجنس ليس أصلياً في اللغة ، وقد مر في شرح القضية الثانية ما يكفي من هذا القبيل ، وأضيف إلى ذلك أن العبرانيين كثيراً ما استعملوا ضمير الغائب المذكر لكلا الجنسين ، وخصوصاً في أقدم كتابات القوم . وربما لوحظ هذا الأمر في أكثر اللغات أول نشأتها فإن معظم لغات البشر لا تمييز في ضمائرها بين المذكر والمؤنث إلا في ضمير الغائب ، لأن المتكلم عن شخص غائب يحتاج إلى تعيين جنسه أما المتكلم عن شخص حاضر فقلما يحتاج إلى مثل ذلك ، وإذا تكلم عن نفسه كان في غنى عن تعيين الجنس على الاطلاق .

أمـا تمييز الشخص فـأنه أقـدم في اللغة . وهنـاك ملاحـظة لا بد من ايرادها قبـل الشروع في البحث عن مميـزات الشخص أعني النون الملحقـة في أوائل الضـمائر والظاهر أنها عارضة عليها بدليل وجودها في الجميع على السـواء ، أما مؤداهـا فيصعب الحكم في شأنـه على أني لا أرى مـانعـاً في كونها تفيد التوكيد أو التعريف . وربما كانت وأن التوكيدية من أصل واحد فإن النون أو الميم في اللغة المصريـة القديمـة ، هي أداة للتعريف والتـوكيد معاً كما مر . .

وإذا شـوهد بـين هذه الضمـائر مـا هو خـال من هذه النـون لا سيـما المختص منها بالغائب ، فلا يعتد به إذ لا يخلو أنها لم تـدخل عليهـا أو أنها دخلت وفقدت كما جرى بها في ضمير المخاطب في العبرانية على أن الأصل على ما أظن وجود النون في جميعها كما هو الحال في اللغة المصرية القديمة . أما العربيـة فقد حفـظت النون في جميـع الضمائـر إلا الغائب والسـريانيـة حفظتها كالعربية لكن خطاً لا لفظاً .

أما الطائفة الارية فلا أثر لهذه النون في ضمـائرهـا ولعلها كـانت قبلاً وذهبت منهـا وقـد تـركت الميم M في ضمـير المتكلم أثـراً يشـير إلى سـابق وجودها . .

فإذا جردنا الضمائر من مميزات العدد والجنس والنون الـزائدة يتضـح أن الأصـل المختص بالتكلم عـلى اطلاقـه مقطع حلقي محصـور بين اليـاء والكـاف فأنـه « انـا » أو اليـاء في العـربيـة والسـريـانيـة و « أنُكي » تلفظ « انخي » في العبرانية و Anol أوA في المصرية القديمة و « أنكـو » أو « يا » أو « أ » في الاشورية و Ego في اللاتينية و Ego و Egon في اليونانية و Aha أوAhom في السنسكريتية و I في الانجليزية و Ich في الالمانية . فترى إنك إذا جـردت النون حيثـما وجدت يبقى الضمـير مقطعـاً محصوراً بـين اليـاء والكاف .

أما ضمير الرفع المتصل في العربية وأخواتها فهو التاء وهذه مبدلة من الكاف ، وقد أشرنا في ما تقدم إلى وقوع الابدال بين هذين الحرفين نظراً لتقاربهما في حكاية الصوت ، ويؤيد ذلك أن هذه التاء لا تزال كافاً في اللغة الاشورية ، فقد كان الاشوريون يقولون « سَكنكُ » بدلاً من قولنا « سكنتُ » .

وقد رأيت أن المقطع الحلقي المختص بالمتكلم فقد من العربية والسريانية في المفرد ، لكنه لم يزل محفوظاً في الجمع « حاء » ففي العربية « نحن » وفي السريانية « حنَن » أما في العبرانية فقد رأيت أنه حفظ في المفرد والجمع ، لكنه فقد من هذا الأخير في أزمنتها المتأخرة ، فإن ضمير المتكلمين كان في العبرانية في أول أزمانها « انحنو » ثم بكثرة الاستعمال أسقطوا لفظ الحاء أحياناً فقالوا « انو » .

وزعم بعضهم أن النون هي الأصل في ضمير المتكلم اعتماداً على تغلبها في جمعه ، وعندنا أن هذه إنما هي نون الجمع وأن وجدت وحدها في بعض الأحوال لأن الحاء أو ما يقاربها نظراً لكونها من الأحرف الحلقية فهي سريعة الزوال . ومع ذلك فإنك تراها ثابتة في الضمائر المنفصلة المختصة بالمتكلم في سائر اللغات الشرقية ، إلا في المفرد من العربية والسريانية ، وقد بطل استعمالها في سائر الضمائر المتصلة لفظاً وخطاً لكنها قد تظهر خطاً في بعض أحوال التصريف في السريانية .

أما الداعي لكون Me أو أحد تنوعاتها ضميراً مفعولاً للمتكلم المفرد في اللغات الآرية فغير معلوم ، وربما كانت هذه الميم مبدلة من النون الزائدة كما سبقت الاشارة . أما المقطع الحلقي الذي قلنا أنه الأصل المختص بضمير المتكلم فقد فُقد من هذه الطائفة كما فقد من الجمع في غيرها ، لكنه ترك أثراً يشير إلى سابق وجوده مرافقاً لهذه الميم مثل

« ميك » في اللاتينية فإنها ضمير المتكلم المفرد وفي حالة الجر تلفظ « ميكي ».

فينتج مما تقدم أن الأصل في ضمير المتكلم على اطلاقه مقطع حلقي محصور بين الياء والكاف ، وأنه أكثر ظهوراً في المفرد . أما في الجمع فالنون أكثر وروداً في أكثر اللغات الشرقية والآرية ، لكنها ليست من أصل الضمير بل هي نون الجمع .

أما ضمير المخاطب فإذا جرد من مميزات العدد والجنس ومن النون الزائدة اتضح جلياً أن الأصل فيه التاء أو أحد تنوعاتها ، وإذا أعدت النظر إلى الجدول رأيت النون الزائدة في هذا الأصل غير ثابتة في جميع اللغات الشرقية على السواء ، فإنها في « أنت » مثلاً تكتب وتلفظ في العربية (وهكذا في الكلدانية والمصرية) وتكتب ولا تلفظ في السريانية ، ولا تكتب ولا تلفظ في العبرانية ، وبناء عليه فلا يعتمد عليها متى وجدت ، وإنما الاعتماد في المخاطب على التاء فهي الأصل في جميع أوجه تصريفه ، ويؤيد ذلك حالته فيما بقي من اللغات ، فإنها التاء أو أحد تنوعاتها في سائر اللغات الآرية فهي في اللاتينية Tu وفي اليونانية Su (والسين تبدل تاء وبالعكس كما رأيت) وفي الفرنسية Tu وأخواتها ، وفي الانجليزية Thou وفي الجرمانية Tu أوDu ، وفي السنسكريتية Tua ، وفي الفارسية « تو ». ومثل ذلك في ما بقي من اللغات السامية والمصرية . ففي الاشورية « أتّا »، وفي الكلدانية « أنتَ »، وفي المصرية القديمة Entuk وفي القبطية Ntok .

أما الكاف في ضمير النصب المتصل فمبدلة من التاء ، وقد رأيت عكس ذلك في تاء المتكلم. وزد عليه أن المصريين القدماء قد أبدلوا ضمير الرفع المتصل كافاً أيضاً ، فهم يقولون مثلاً « قتلكَ » بدلاً من « قتلتَ ».

والخلاصة أن الأصل في ضمير المخاطب التاء فذكّرت وأنثت وجمعت

وتنوعت تبعاً لما اقتضته أحوال الناطقين بها .

أما « هو » ضمير الغائب فالأصل فيه الهاء كما يظهر من مقابلة اللغات السامية ، ومثل ذلك في اللغات الارية فهو في اليونانية I وما يركب منها ، وفي اللغات الجرمانية Hua و Hu و Hue و Ho و He و Hei في الفارسية «وي» .

فبناء عليه يرجح أن الهاء هي الأصل في جميع أحوال ضمير الغائب ، فقد أنثت بالكسر فصارت « هي »، وجمعت بالميم أو النون فصارت هم أو هن الخ . والقضية لا تحتاج إلى زيادة إيضاح[1] .

---

(١) تتركب الضمائر المنفصلة للمخاطب من المتصلة المستخدمة في الماضي ومن مقطع « أن » ويحتمل أن يكون من أدوات الاشارة .

ويتركب ضمير المتكلم من « أن » ومن الضمير المتصل المستخدم في المضارع « أ » (أفعل) . ويتخالف الضميران المتصلان في المتكلم فالمتصل المرفوع في المضارع « أ » أي الهمزة والمتصل المرفوع في الماضي « ت » أي التاء المضمومة . ونرى في بعض اللغات السامية ضمير المتكلم المنفصل يجمع بين الضميرين المتصلين فهو في الاكدية « اناكو » (أن + آ + كو) وفي العبرية « آنوكي » ونشاهد تخالفاً بين الضميرين الاكدي والعبري وبين العربي فالضمير في هاتين اللغتين هو الكاف وفي العربية التاء . والكاف هي الاصل والدليل على ذلك أنه لو كانت التاء هي الاصل لافترضنا أنها قلبت كافاً في بعض اللغات السامية بغير علة ظاهرة مفهومة ، وبالعكس إذا كانت الكاف هي الأصل فهمنا سبب ابدالها تاء بسهولة وهو أن التاء موجودة في المخاطب فأدخلوها على المتكلم أيضاً قياساً على المخاطب . ويؤكد ذلك أن الكاف لا تزال على حالها في بعض اللغات السامية . فالضمير المنفصل في الاكدية « اناكو » والمتصل « كو » وفي العبرية المنفصل « آنوكي » ولكن المتصل ت والمتصل في الحبشية « كو » . والقاعدة في حياة اللغة عامة هي أن الاختلاف أقدم من الاتفاق في أكثر الحالات . فالتخالف في الحروف بين الضمائر المتصلة أي أن المتكلم بالكاف والمخاطب بالتاء أقدم من توافقها أي أن كليهما بالتاء .

أما المتكلم الجمع فنجده مبنياً على غير صيغة الضمائر المنفصلة الباقية . وكانت حركة أول نونيه كسرة في الاصل لا فتحة كما هي في الاكدية وفي الحبشية . وابدال الكسرة بالفتحة فيها في العربية لتشابه الحركة بالحرف الحلقي واختلاف « نحن » عن « أنا » أي أننا لا نجد بينهما العلاقة التي تعودنا أن نجدها بين الجمع ومفرده . والسبب في ذلك واضح فأننا وإن عبرنا عن الصيغتين بالمفرد والمجموع فالنسبة بينهما ليست في الحقيقة نسبة جمع إلى مفرده . فالجمع يتكون من أفراد متساوية أو متشابهة ، ولكن المتكلم المجموع « نحن » لا يتكون من أفراد متساوية =

= كل واحد منها متكلم « أنا »، فنحن ليست بجمع أنا وأنا وأنا بل هي جمع أنا وأنت أو أنا وأنت وهو إلى آخره ، ولهذا السبب اشتق كثير من اللغات ضميري المتكلم المفرد والجمع من مادتين مختلفتين ففي اللغات الهندية الاوروبية مثال لذلك : في اللاتينية Nos, Ego وفي اليونانية Hémeis, Ego .

أما المخاطب فجمعه مشتق من مفرده بزيادة ميم في المذكر ونون مشددة مفتوحة في المؤنث ، والميم مجزومة عادة لكنها كانت في الأصل مضمومة . فإذا لم تصبح الميم نهائية بل في الوسط إذا الحق بها ضمير عادت مضمومة ، والضمة ممدودة لأنه لا داعي إلى تقصير الحركة أو حذفها وسط الكلمة نحو قتلتموه . أما حركة التاء في المخاطبين والمخاطبات فهي ضمة وكانت في الأصل كسرة في المخاطبات كما هي في الاكدية والارامية فالاختلاف هنا أقدم من الاتفاق .

والمخاطب المثنى مشتق من الجمع وهو حديث بالنسبة إلى سائر الضمائر ولا يوجد في غير العربية من اللغات السامية .

أما الضمائر المتصلة ، المجرورة والمنصوبة فلا فرق بينهما إلا في المتكلم فالجر فيه « ي » والنصب « في » ومادتها غير ضمائر المتكلم والمخاطب المنفصلة والمتصلة المرفوعة إلا في المتكلمين وعلامات الجمع والتثنية في هذه مثلها في تلك .

وأما ضمائر الغائب فموضعها الحقيقي بين الضمائر وبين اسماء الاشارة ، وهي تشارك الضمائر في الانقسام إلى منفصلة ومتصلة، مرفوعة ومجرورة ومنصوبة ، وتشارك اسماء الاشارة في أنه يكنى بها عن الاسماء . الكناية قريبة من الاشارة ومشتقة منها . وضمائر المتكلم والمخاطب تفيد معاني خاصة بها مستقلة لا يكنى بها عن شيء آخر من الاسماء ، كما ظن ذلك القدماء . فإذا قابلنا بين بنية ضمائر المتكلم والمخاطب وبين بنية ضمائر الغائب ، تبين لنا أن المنفصلة من ضمير الغائب ليست مركبة من المتصلة ومقطع « أن ». وكذلك لا يوجد في الغائب ضمائر متصلة مرفوعة خاصة بالماضي (والفتحة في فعل فأصلها مجهول ومعناها غامض ولا علاقة بينها وبين هو أو الهاء ، والتاء في فعلت وفعلتا والفتحة الممدودة فيها وفي فعلا ، والضمة الممدودة في فعلوا ، والنون في فعلن فبعضها علامة للمؤنث وبعضها علامة للتثنية وبعضها علامة للجمع ، وليس فيها ضمير) . أما الحرفين الخاصين بالغائب في المضارع أي التاء في تقتل فلا علاقة له بسائر ضمائر الغائب وربما كانت التاء علامة للتأنيث ، والياء في يقتل يمكن أن تكون ضميراً في الحقيقة . والمنفصلة والمتصلة المجرورة أو المنصوبة من ضمائر الغائب كلها تبدأ بالهاء وهذه الحالة أيضاً من الاتفاق الحديث الذي حل محل اختلاف قديم نشاهد آثاره في بعض اللغات السامية وبخاصة في المهرية فضمائر الغائب فيها « هو » أي هو و« سي » أي هي و« هم » أي هم و« سن » أي هن فحرف المذكر هو الهاء كما في العربية وحرف المؤنث هو السين المقابل للشين في اللغات السامية الشمالية . ولم يحافظ على الشين من اللغات السامية الشمالية =

. . . .

= إلا الاكدية وقد نقلتها إلى المذكر أيضاً بدل الهاء فصارت الضمائر فيها « شو » أي هو و « شي » أي هي و « شنو » أي هم و « شنا » أي هن .

وضميرا الغائب والغائبة في العربية وفي أقدم الوثائق الارامية « هوا » و « هيا » ينطقان هو وهي غير أن آخره ألف في الاملاء يدل على همزة سقطت ويظهر من ذلك أن الاصل « هوا » و « هي ا » أو بالاحرى «شي أ» وحذفت الهمزة في العربية وأبدلت واواً في المذكر وياء في المؤنث ، وحدث ذلك في زمن قديم جداً أقدم من زمن سائر تخفيفات الهمز في اللهجات العربية .

والحالة في جمع ضمير الغائب وتثنيته هي عين حالتيها في ضمير المخاطب وهذا يدل على أن ضمير الغائب وإن كان أصله ووظيفته غير أصل ضميري المتكلم والمخاطب ووظيفتها فقد علق بهما في نفس اللغة السامية الاصلية .

إسم الاشارة وإسم الموصول

وأسماء الاشارة مرجعها إلى مقطعي « ها » و « ذا » ومنهما يتركب « هذا » و « هاته » و « ذاك » و « تلك » و « ذينك » و « تينكِ » . وما شاكل (يظهر أن كاف الخطاب الملحقة في أواخر هذه الأسماء مأخوذة من ضمير المخاطب ويؤيد ذلك أن تثنى وتجمع مثله فيقال تلك وتلكما وتلكم وذلك وذلكما وذلكم الخ) . ومنها أيضاً نشأ اسم الموصول فإن « أل » الموصولة والتعريفية من المرجح عندي أنها مأخوذة عن « ها » بدليل كون هذا المقطع هو وحده أداة التعريف في العبرانية . على أن نحويي اللغة العبرانية يقولون بوحدة الأصل في « أل » المشار إليها في اللغتين العربية والعبرانية ، وبناء على هذا القول زعموا أن الأصل في الاداة العبرانية « هل » قياساً على العربية ، وقالوا أن اللام لا تظهر خطأ وأنهُ يعوّض عنها لفظاً بتشديد الحرف الأول من الكلمة الملحقة هي بها ، فإذا أرادوا تعريف (بيت) مثلاً قالوا (هبيت) بالحاق الهاء محركة بالفتح في أوله وتشديد الباء ، فتعليلاً لمذهبهم يقولون أن اللام تدغم بالحرف الأول ويعوض عنها بالتشديد وعندي أنهم أصابوا بوحدة أصلهما ، ولكن ربما لم يصح زعمهم بأن الأصل في كليهما (هل أو أل) إذ أن اللام لم تظهر في العبرانية لا لفظاً ولا خطاً إلا في كلمة واحدة موصولة أعني (هلزي) وهذه قليلة الورود جداً في كتاباتهم ، فالأرجح عندي أنها مأخوذة من

العربية إذ أنها والاسم الموصول « الذي » شيء واحد لفظاً ومعنى . أما التشديد المرافق لأداة التعريف في العبرانية فربما قصد به التأكيد أو توضيح الاشارة فبناء عليه يرجح أن الأصل في « أل » العربية « ها » التنبيه كما هو الحال في العبرانية ، أما اللام فقد دخلت عرضاً لاسناد الحركة واللام كما لا يخفى من الأحرف (ل م ن ر) التي كثيراً ما تدخل في اللفظ اسناداً لحركة أو مقطع كما مر .

ومن الآثار التي تدل على سابق استعمال « أل » للاشارة قولهم « اليوم » و « الساعة » بمعنى هذا اليوم وهذه الساعة . ومن الواضح أن التعريف إنما هو ابن الاشارة ، لأن أبسط طريقة لتعريف أمر ما تقوم بالاشارة إليه . ويؤيد ذلك أن « ذا » التي هي اسم اشارة كما لا يخفى قد استعملت ، ولا تزال تستعمل للتعريف والموصول في قسم عظيم من اللغات السامية ، فإن ذي في اللغة البابلية و « ذا » أو « د » في اللغة السريانية هي الأداة الوحيدة للموصول والتعريف والاشارة ولا ريب أن « د » السريانية هي بقية « ذي » البابلية ، فلم يستعمل بنوطي « ذو » للموصول عبثاً . وما قولنا « الذي » إلا حجة دامغة على أن الموصول إنما هو ابن الاشارة .

ولنا في الانجليزية The و This و That من أصل واحد الأولى للتعريف والثانية للاشارة ، والثالثة للاشارة والموصول . فثبت مما تقدم أن اسماء الاشارة هي في الأصل من أصل واحد مؤلف من مقطعين (ها) و (ذا) أو الهاء والذال[1] .

(١) نجد الكثير من اسماء الاشارة في العربية في كتب الصرف والنحو وأكثر هذه الاسماء نادر الاستعمال . ومن المرجح أن اللهجات العربية القديمة كانت تختلف في استخدام اسماء الاشارة على نحو ما نراه في اللهجات الآرامية أو اللهجات العربية الدارجة . وجمع النحويون كل ما وجدوه منها في اللهجات على اختلافها ودونوه دون تفرقة بين اللهجات . وفي عرضنا لاسماء =

= الاشارة نضيف إليها اسم الموصول لأنه في الاصل من اسماء الاشارة وكذلك نضيف « ذو » بمعنى صاحب فأنه قريب من اسماء الاشارة .
فإذا استعرضنا اسماء الاشارة المعروفة في العربية وجدنا فيها اضطراباً واختلافاً . والآقرب إلى القياس هو « ذو » فنراها تعرب مثل الاب وتؤنث على وزن اللات ، ولها جمع صحيح غير أن لها جمعاً ثانياً مخالفاً للقياس .
ومادة ذوو وأولو فهي عين مادة المقطع الثاني من هذا وهؤلاء . ونجد بين أشكال اسم الموصول ما هو على قياس سائر الاسماء وهو الجمع ، ونرى المذكر والمؤنث منه يتخالفان كما هي الحالة في الاسماء ، ولا فرق بينهما في هؤلاء وأولائك ، وأخذت علامة الجمع المذكر من الجمع السالم (ويلاحظ عدم التمييز بين المرفوع والمنصوب والمجرور وسبب ذلك التشابه بالمفرد وهو مبني على الكسرة الممدودة) واللاتي اشتقت من التي بمد الحركة على قياس مدها في الجمع المؤنث السالم .
أما سائر الصيغ التي لم تبن على قياس الاسماء فهي « هذا » يقابلها في العبرية « هزي » وكلاهما مركب من الهاء والذال ، غير أن « ها » في العبرية أداة تعريف وتلحق باسم الاشارة إذا كان تأكيداً لاسم آخر وتسقط في غير ذلك فتصبح « زي » أي أن هذا وهزي تختلفان في المعنى والوظيفة وإن تقاربا في البنية (ربما كان أصل « زي » العبرية « دى » أي لا تتفق مع « ذا » العربية اتفاقاً تاماً)، و « ذي » توجد في العربية أيضاً وهي أصل « ذه » في « هذه » فهي في العبرية مذكرة وفي العربية مؤنثة . فالفروق واضحة بين العربية والعبرية في هذا ، مع ملاحظة أن العبرية فيه أقرب إلى العربية من سائر اللغات السامية مما يدل على أن اسماء الاشارة وإن كانت عناصرها قديمة سامية الأصل ولكن حدد معناها واقترن بعضها ببعض في زمن أحدث من زمن تكونها في كل لغة على حدة .
أما جمع هذا أي هؤلاء فيقابله في العبرية «ها الي» والنسبة بين الصيغتين تشبه النسبة بين « هذا » العربية و « هزي » العبرية . فاللام في العربية والعبرية جمع الذال في اسماء الاشارة ، وفي غيرهما من اللغات السامية مثل الآرامية والحبشية فهذا في الآرامية القديمة « دنا » وفي الحبشية « ز » والجمع في الارامية « الي » وفي الحبشية « اللو » فيحتمل جمع الذال على اللام أن يكون سامي الاصل . وأما « ذلك » فمركبة من « ذا » ولام غير لام الجمع في هؤلاء ، ولكنها قريبة من اللام المؤكدة ، وضيم إلى الذال واللام حرف ثالث هو الكاف ومعناها للاشارة غير المباشرة ، وهي تؤدي نفس هذا المعنى في الآرامية القديمة « ديك » أي ذلك ، ونجد الكاف في تلك وأولائك .
أما اسم الموصول فأول عناصره لام التعريف ، وثانيها التأكيد ، وثالثها « ذي » وهي هنا مذكرة كما في « زي » العبرية ويطابق « الذي » شكلا في العبرية « هللا زي » (وها أداة التعريف في العبرية) ومعناها في العبرية « هذا » لا « الذي » .
وهنا بعض عناصر اشارية تستخدم في غير اسماء الاشارة منها الهاء في ههنا والكاف في هنا . =

فهل من علاقة بين هذا الأصل والضمائر ؟

قلنا أن التاء هي الأصل في مطلق المخاطب فنسبتها لذال الاشارة لفظاً لا تحتاج إلى دليل ، لأن الدال والذال والتاء والسين والشين كثيرة التبادل بعضها من بعض كما تقدم ، وهذا التبادل جار معظمهُ قياسياً في الادغام كما لا يخفى . ويظهر بأجلى وضوح في اللغات الارية ، فإن الكلمات المشتركة الأصل المستعملة في لغات مختلفة منها تؤيد قولنا لأننا نرى أن D في اللاتينية تبدل T في الانجليزية و Z في الجرمانية نحو Decem عشرة و Domare داجن فإنهما في الانجليزية Ten و Tame وفي الجرمانية Zehn و Zahm والفرنسيون يكتبون Tion ويلفظونها Sion وعندهم Elider و Eliston من أصل واحد . ومن قواعد اللفظ في اللغة اليونانية أن التاء متى وقعت بعد النون تلفظ دالاً وأمثال ذلك كثيرة .

فبناء عليه لا يكون ثم مانع في وحدة الأصل لفظاً ، أما وحدتهُ معنى فمرجحة أيضاً لأن الدلالة المشتركة بينهما هي الكون المطلق ، فالظاهر أن هذا هو الأصل في جميع تنوعاتها ، لأنه يدل عليه في جميع لغات البشر

وربما كان منها الذال في « اذ » وما شاكلها . .

والظاهر أنه كان يوجد في العربية اسم بمعنى الوقت هو «اذ» نشاهد جره في مثل حينئذ ونصبه في إذا . غير أن الارجح هو أن أصلها كلها أداة اشارية اصبحت اسماً فيما بعد . .

ومن العناصر الاشارية الالف واللام للتعريف . ومما يدل على أنها في الاصل لم تكن للتعريف فحسب بل كانت أداة اشارة أنها حافظت على معنى الاشارة في بعض الحالات نحو « اليوم » أي في هذا اليوم . .

ونلحق الاستفهام بالاشارة فإن (من وما) أصلهما واحد أي « ما » والحقت بها النون وهي من عناصر الاشارة أيضاً ، وإن لم توجد في العربية بين اسماء الاشارة ، فتدل « ما » على الاشخاص إذا وقعت مع هذا الحرف اللاحق « ن » وعلى الاشياء إذاً وقعت بدونه ، وبعض اللغات السامية يستخدم « ما » و « مي » أيضاً كما أن اكثرها يستخدم « ذا » و « ذي » . ومن اسماء الاستفهام « أي » وهي مضافة في العربية مع أنها وصف في بعض اللغات السامية .

بالتاء أو أحد تنوعاتها كما سبقت الاشارة . فإن هذه التاء تتضمن معنى الكون المطلق في (ايت) السريانية ويش العبرانية وايس العربية و Est اللاتينية و Es اليونانية وايت التركية ، وهذه متى تحركت تقلب دالاً Tu وفي المصرية القديمة تستعمل بمعنى Au في الفرنسية . ثم ينقل معناها من الكون المطلق إلى ما يقاربه ، أعني الذات وهي تطلق على كل موجود ، فتقوم مقام أي نوع من الموجودات حسياً كان أو عقلياً ، وهي ذات في العربية ربما كانت مركبة من ذا (وايت) و (ات) في العبرانية و (يت) في السريانية ، و (أت) في الكدانية ، و Idem في اللاتينية و Autos في اليونانية ، Tes في المصرية القديمة . ثم تدرج معناها من الدلالة الذاتية المطلقة ، وهذه في العربية (ذا) وفي العبرانية (زه)، وفي السريانية (دا)، وفي الاشورية (سو)، وفي اللاتينية Is وفي اليونانية De أو Ide وفي الفرنسية Ce وفي الانجليزية This أوThat وفي القبطية Te وفي المصرية القديمة Tai ومن الاشارة المطلقة نشأت الاشارة إلى كل مسمى وأداتها في العربية شيء ، وفي الفرنسية Chose وفي الانجليزية Thing وقد حصل أثناء هذا الانتقال المعنوي تنوعات لفظية ، فخصصوا بعضها للدلالة على القسم الأهم الأعظم بين الموجودات أعني الانسان ، فهو يدعى في العربية انس ، وفي العبرانية ايش ، وفي السريانية نش ، وفي المصرية القديمة Se ، وخصصوا البعض الآخر بالدلالة الاشارية للمخاطب فقط ، فوصلت إلينا على هيئة ضمائر وقد تكلمنا عنها بالكفاءة . وقد تنوع من اسماء الاشارة الموصولات وأحرف الاضافة ، فالأولى قد تكلمنا عنها ما يكفي أما الثانية فلها في العربية « ذو » ومشتقاتها ، وفي العبرانية ايش ، وفي السريانية (د)، وفي بعض اللغات الآرية De وتنوعاتها .

فبناء على كون ضمير المخاطب واسماء الاشارة والموصولات هي جميعاً ألفاظ مشتركة الدلالة ، وكونها قابلة التعويض بعضها عن بعض في اللغة الواحدة ، وكونها متقاربة لفظاً في سائر البشر ، يرجح أنها في الأصل لفظة

واحدة بمقطع واحد . ونظراً لكون التقارب اللفظي يحصرها في الأحرف السنانية يرجح أن ذلك الأصل هو التاء متحركة وأن الأصل في دلالتها الكون المطلق ، وأن منها تولدت جميع هذه التنوعات لفظاً ومعنى تبعاً لناموس الارتقاء العام .

وقد اخترت التاء من بين أخواتها لأنها لفظاً ، ولا يصعب على ناطق التلفظ بها ، وقد تقدم أنها موجودة في سائر لغات البشر . وعليه يظن أن المقطع الأول الذي يتلفظ به الأطفال إنما هو هذا ، ويرجح ذلك أن (تت) في اللغة المصرية القديمة تفيد قولنا (تكلم).

أما اسم الاشارة (ها) فبينه وبين ضمير مطلق الغائب نسبة قريبة إما لفظاً فلأن الأصل في كليهما الهاء كما علمت ، وأما دلالة فلأننا نقصد بكل منهما ما ليس بالمتكلم ولا بالمخاطب ، ولم تزل اسماء الاشارة في كثير من اللغات تستعمل حيثما نستعمل نحن ضمير الغائب ، ولا أرى لزوماً لتعداد البراهين على صحة ذلك .

وهناك أمر آخر لا يخلو ذكره من فائدة أعني أن بين كاف المتكلم وتاء المخاطب وهاء الغائب ، نسبة قريبة لفظية ومعنوية كما لا يخفى .

وجملة القول يرجح كل الترجيح أن الألفاظ المطلقة مهما تعددت أشكالها ودلالاتها لا تخرج عن كونها ناشئة من لفظ واحد أو بضعة ألفاظ من جملتها التاء والله أعلم .

القضيّة الخامسة

إن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ وضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية

معلوم أن في اللغة قسماً عظيماً من ألفاظها ، ولا سيما الأفعال مما يستعمل للدلالة الحسية والمعنوية على السواء ، فبقولنا « فَصَل » قد نقصد الدلالة الحسية نحو « فصل زيد الشيء » أي قطعه وأبانه . أو المعنوية نحو « فصل الحكم الخصومات » أو « فَصَل المولود عن الرضاع » أي فطمه . فلا يخلو أن تكون احدى هاتين الدلالتين أصلية حقيقية ، والأخرى فرعية مجازية . وعندي أن الدلالة الحسية هي الأصل ، والمعنوية الفرع حُملت مجازاً لتشابه في الصور الذهنية لأن المحسوسات أول ما تستلفت انتباه الانسان ، وهي سابقة في ذهنه على المعنويات لأنه في أبسط أحوال عيشه لم يكن في احتياج إلا للمعاني الحسية ، ففي أول استعماله « قطَع » لم يكن يريد بها إلا القطع الحسي لكنه بعد أن ارتقى في الحضارة ، وارتقت تصوراته حدثت له معان جديدة بينها وبين القطع مشابهة ذهنية كقولنا : « قطع في الأمر » أي جزم « قطع الحوض » أي ملأه إلى نصفه ، ثم قطع الماء فحملها عليها مجازاً . ويؤيد ذلك حالة اللغات الدنيا فإنها تقل فيها الدلالة المعنوية كلما انحطت إلى أن تصل إلى ما يكاد يخلو منها بالكلية . ولا يخفى أن هذا التحويل جار في لغتنا الآن ولن يزال إلى ما شاء الله فمن الألفاظ ما قد خسر الدلالة الحسية نحو قولنا « قضى » بمعنى حكم ، والأصل فيها القطع الحسي وهي سلسلة « فَض »

كما تقدم . ومنها ما لم يزل يستعمل لكليهما نحو « عقَلَ » بمعنى فهم مأخوذة من عقلَ الناقة أي ربطها . و «أدرك» الأصل فيها البلوغ الحسي ، فيقال : أدرك فلان الفرس أي لحقه ، و « بلَغ » وضعت أصلا للدلالة على الوصول الحسي فقط ، كقولهم « بلغ فلان المحلة » أي وصلها ، وقد استعملت كما استعملت « أدرك » ، والأصل في معنى الفصاحة قولهم « فصح اللبن » إذا ذهبت رغوته ثم قيل فصحَ . وأصل « الرأي » من رأى وهكذا الرؤية . وكذلك الحال في « عرف » فإن أصلها من « العرف » أي الرائحة . ومنها ما هو أول انتقاله نحو « قطَع » و « ملأ » والأصل في هذه الأخيرة الملء الحسي كالماء وما شاكل ، وقد استعملت مجازاً فيُقال « ملأ فلانا على الأمر » أي ساعده وشايعه و « هلك » بمعنى مات ، وفُقد والأصل في معناها « الذهاب » وهي كذلك في سائر اللغات الشرقية . و « الشتاء » مأخوذ من « شتا » في السريانية أي شرب فاستعملت أولاً لري الأرض بالمطر ، ثم أطلقت على المطر عينه ، ومنه تحوَّل معناها إلى الفصل الذي يحصل فيه المطر . و « غَرُبَ » الأصل في دلالتها النزول لأنها في الاشورية « عرب » ومعناها نزل ، ومنها غربت الشمس أي نزلت .

وقد تتنوع دلالات الألفاظ على طرق مختلفة تبعاً لتصورات الناطقين بها وتنوعها ، فإذا اختلف رأيهم في شأن فذهبوا فيه إلى خلاف ما ذهب سلفاؤهم احتاجوا للتعبير عن هذه التصورات الحديثة إلى ألفاظ حديثة . فهم في مثل هذه الأحوال يأخذون من الألفاظ ما يقرب دلالة مما يحتاجون إليه ، فتبقى هذه الألفاظ أثراً يشير إلى ما كان عليه سلفاؤنا من الآراء ، الأمر الذي ربما لا يتيسر للتاريخ الاتيان به كقولنا « شهر » التي يستعملها كل منا بأجلى وضوح ولا يخشى وقوع الالتباس حتى أن أبسط العامة لا يخطئون فهمها . على أننا إذا بحثنا عن أصلها نرى أنها كانت تدل في الأصل على « قمر » إذ أنها في السريانية « سهر » بالسين بمعنى قمر ، أما

في العبرانية فتستعمل لما نعبر عنه بقولنا « مستدير ». وقد وردت في التوراة مـرة على صيغـة الجمع بمعنى أقمـار صغيرة أو أكـاليـل[1] . وجملة القـول يستدل مما تقدم أن أسلافنا الأولين كانوا يعتمدون على الأشهر القمريـة في حساباتهم ، فدعوا الشهـر القمري بـاسم القمر ، ثم لمـا تقدمـوا ووضعوا الأشهر الشمسية استعاروا لها ما كانوا يستعملونه للأشهر القمرية ، وتـرانا الآن لا نعلم عن لفظة « شهر » إلا أنها وضعت للدلالة على جـزء من اثني عشر جزءاً من السنة الشمسية ، وأمثلة كثيرة في العربية . .

وخلاصة القـول يكاد لا يـوجد كلمـة واحدة إلا واستعملت للدلالـة المعنوية وذلك دليل كاف على أن قابلية المعاني للانتقال هي كقابلية الألفاظ للابدال . .

(١) وردت بصيغة الجمع في العهد القديم بالعبرية بمعنى « أهلة »، قضاة ٨ : ٢١ و ، ٢٦ ، اشعيا ٣ : ١٨ .

النتيجة

إن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول قليلة احادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً

بناء على ما تقدم برهانه من أن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هي تنوعات أصل واحد . وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها . وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية تحاكي أصواتاً طبيعية . وأن الألفاظ المطلقة قابلة الرد بالاستقراء إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ . وأن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ وضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية ـ أرجح كل الترجيح « إن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول قليلة أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً »، ومن هذه الأصول نشأت ونمت حتى بلغت ما هي عليه الآن بتركيبها وتنوعها ، بين نحت وقلب واستعارة ، سدا لاحتياجات الانسان وجرياً على ناموس الارتقاء العام . وإيضاحاً للموضوع آتى المسألة عن طريق الاستقراء فأقول :

هل اللغة ضرورية توقيفية أم هي مكتسبة اصطلاحية ؟ . .

كونها ضرورية يقتضي كونها حاصلة بلا اكتساب ونظر ، وكونها توقيفية يقتضي كونها ثابتة البناء ، والدلالة غير قابلة التغير والانفعال شأن

كل ما هو توقيف منه تعالى .

والواقع خلاف ذلك فأننا لا ننطق إلا بما نسمعه من الذين حولنا ونحن لا نتكلم بالعربية إلا لأننا نشأنا بين قوم يتكلمونها . ولو اتفق أننا ربينا بين اليونانيين لكانت لغتنا أو بين الهنود فالهندية . ومن الجهة الأخرى لو قدر لنا النشوء بين الحيوانات العجم لكنا عجماً . واللغة كما هو معلوم عرضة للتغيير والانفعال نحتاً وابدالاً وقلباً واستعارة ، فما نتفاهم به الآن يختلف دلالة ولفظاً عما تفاهم به آباؤنا وما سيتفاهم به أبناؤنا . وقد حدث من اللغات ما لم يكن في سالف الزمن كاللغات المتفرعة من اللاتينية والسنسكريتية ـ فلو كانت اللغة توقيفية لاقتضى بقاؤها على ما هي . ولا يقال أن هذه الفروع حدثت توقيفاً لأنها قابلة الرد بالاستقراء تاريخياً إلى أول أزمنة نشوئها أو بالحري تفرعها ، وكل ذلك جرى بموجب نواميس عامة قابضة على زمام كل ما حولنا من النظام والحياة وأعمالها . .

وجملة القول أن اللغة مكتسبة اصطلاحية والقضية واضحة جلية . ولزيادة الايضاح أذكر ما قاله العلامة ابن خلدون في أثناء كلامه في تفسير الذوق قال : « فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبلة لذلك المحل ، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك ، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت ، فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع . وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ».

وقال الأستاذ أبو اسحق الاسفرائي في أثناء كلامه عن أصل اللغة : « إن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والتتمة من الله »، وقال السيوطي : « ودليل

امكان الاصطلاح أن يتولى واحد أو جمع وضع الألفاظ لمعان ثم يفهموها لغيرهم بالاشارة كحال الوالدات مع أطفالهن(١) .

---

(١) هل اللغة توقيفية أم اصطلاحية ؟

هناك من ذهب إلى أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى الهام هبط على الانسان فعلمه النطق واسماء الاشياء . قال بهذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني « هيراكليت » (٥٨٠ ق . م - ٥٤٠ ق . م) وبالرغم من معارضة بعض علماء الكنيسة لهذا الرأي فقد وجد في القرن الرابع الميلادي من يدافع عنه . وذهب إلى هذا الرأي في العصور الوسطى بعض علماء فقه اللغة العربية منهم ابن فارس في كتابه الصاحبي الذي تساءل هل اللغة العربية توقيف أم اصطلاح ؟ . ودلل على أنها توقيف من قوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها » . وبحث ابن جني في الخصائص عن أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح ، والقول في اللغة أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط .

وفي العصور الحديثة ذهب بعض العلماء من الاوروبيين إلى هذا الرأى منهم « فرنسوا لامي » (سنة ١٦٣٦ - ١٧١١)، والفيلسوف « دو بونال » (١٧٥٤ - ١٨٤٠) ويعتمد العلماء من المسيحيين على ما جاء في سفر التكوين من الاصحاح الثاني في الايتين ١٩ و ٢٠ « وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء . فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم باسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » .

أما من ذهب إلى أن نشأة اللغة كان بالاصطلاح فنذكر منهم في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني « ديموكريت » (من فلاسفة القرن الخامس ق . م) وفي العصور الوسطى قال به بعض أئمة فقه العربية منهم أبو اسحق الاسفرائي والسيوطي وابن خلدون . كما ذهب إليه في العصور الحديثة من الاوروبيين « آدم سميث » و « رايد » و « دوجلد ستيورات » .

الطريقة الطبيعيّة للتكلم

التفاهم

فلنتصور الانسان في أول أدواره يطوف الحقول والغابات عارياً أو نصف عار يلتقط ثمر الأرض وبقلها ، فإذا جنَّ الليل أوى إلى كهف أو مغارة أو تسلق شجرة يلجأ إليها ، خوفاً من هجمات الوحوش الضارية فإذا أصبح خرج يسعى وراء رزقه يلتمسه بالاجتهاد . واجتهاده إنما هو التفتيش عن شجرة ذات ثمر يأكله أو حيوان يرميه بحجر فيقتله ويتناول لحمه لا يمتاز في ذلك عن الحيوان الأعجم . إلا أنه ما لبث أن اضطر إلى الاجتماع وهي مزية خص بها الانسان . والسبب في ميله إلى الاجتماع قصوره عن مقاومة طوارىء الطبيعة ، ودفع غائلة الوحوش الضارية منفرداً ، فعكف على التعاون والتعاضد وهو الاجتماع . فلما اجتمع اضطر إلى تبادل المعاني والمقاصد ، وهي الغاية المقصودة بالاجتماع فساقه ذلك إلى التفاهم ، فتدرج فيه من الاشارات إلى الأصوات فالألفاظ فالجُمل كما سترى .

فيظهر مما تقدم أن ضعفه هو الذي ساقه إلى التكلم ، ورب معترض يقول : ألعلَّ ـ الضعف خاص ببني الانسان حتى اضطر وحده إلى الاجتماع فترتب على اجتماعه نشوء اللغة والعمران . نقول أن بين أنواع

الحيوان أنواعاً أكثر ضعفاً منه ، ولعلها اضطرت إلى الاجتماع غير مرة ولكنها لم تستطع التكلم لقصورها الطبيعي ، عما امتاز به الانسان من المواهب الطبيعية جسداً وعقلاً مما يؤهله للنطق وتركيب الألفاظ وإيضاح المعاني . على أننا لا نظن أنواع الحيوان الأخرى خلوا من التفاهم ، بل هو واقع بين أفراد النوع الواحد وبين الأنواع المختلفة ، على أساليب وطرق لم ندركها تماماً ، إذ ليس من الضرورة أن يتم التفاهم بالتكلم فقط ، فقد يتفق أن يتوفق بعض أنواع الحيوان إلى وسيلة يتفاهم بها غير ما توفق إليه الآخر ، تبعاً لاستعداد كل منهما كأن تتفاهم بحركات جلودها ، أو بحركات آذانها أو أذنابها أو ما أشبه ذلك . فلأنواع الحيوان لغات تتفاهم بها ولكنها يجب أن تكون أدنى من لغة الانسان بنسبة انحطاط قواها العاقلة عن قواه .

فالاضطرار إلى الاجتماع أصاب كل أنواع الحيوان ، ولكن الانسان وحده فاز بغايته منه لاستعداده له ومقدرته على اختراع وسائل التفاهم عن طريق الصوت . ومما ساعده على ذلك في بادىء الرأي لباقة حركات يديه ، وارتقاء أوتار صوته ، لأنه قضى دهوراً يتفاهم بالاشارات وتقليد الأصوات . .

ولو تدبرت تاريخ اللغة لرأيت المبدأ في نشوئها وارتقائها راجعاً إلى موهبة جعلها الخالق في الانسان ، وهي موهبة « التقليد » ، فالتقليد أساس اللغة وأصل نشأتها ومدار ارتقائها لأن التفاهم سواء كان بالاشارات أو بالأصوات فهو راجع الى التقليد ،لأن الاشارات تقليد صور الأشياء أو معانيها ، والأصوات تقليد ما يسمعه الانسان من الأصوات الخارجية على اختلاف مصادرها . فالتقليد قوة لم تبلغ في نوع من أنواع الحيوان ما بلغته في الانسان ، وهو تمثيل صورة في ذهن المقلد اكتسبها من الخارج إما رأساً أو ضمناً . ولا غنى له في تقليدها عن استيضاحها في ذهنه مع توفر

الوسائل اللازمة لتمثيلها للآخرين . فالاستيضاح من أعمال العقل ، والتمثيل من أعمال اليدين أو ما يقوم مقامهما . والانسان أقوى سائر أنواع الحيوان عقلاً وأليقها تركيباً وهذا هو سبب تفرده بسعة دائرة التفاهم ، وتعدد وسائله فتأيد اجتماعه وكان ما كان من تمدنه وعمرانه . فأنشأ المدن وألّف الممالك والأمم وتبحر في الخليقة ، فوضع الفلسفة ، واختلفت آراؤه في سر الخليقة وخالقها ، فتفرقت المذاهب والأديان والطوائف والنحل ، وقامت الحروب فازداد الاحتياج إلى الأدوات والوسائل المساعدة على تسهيل الغلبة وتأييد القوة ، فكانت الاختراعات وما جرى مجراها مما ليس هنا محل الكلام عليه . وإنما يهمنا منه أن الانسان اضطر إلى الاجتماع لضعفه فاحتاج إلى تبادل الأفكار والمقاصد وهو التفاهم ، وتمكن بموهبة التقليد إلى وضع أساس اللغة ولاستيعاب الموضوع نقسم الكلام في تاريخ اللغة إلى دورين :

١ ـ الدور التقليدي .

٢ ـ الدور النطقي .

الدور التقليدي :

نريد بالدور التقليدي الزمن الذي عبّر فيه الانسان عن مقاصده وأغراضه ، بتقليد ظواهر الأشياء التي يريد التعبير عنها ، كالدلالة على شبح بتمثيل صفاته كلها أو بعضها . فالأخرس يعبر عن الفرس بمحاولة الوقوف على يديه ورجليه معاً تقليداً للفرس في مشيه . ومن هذا القبيل دلالة الأطفال على بعض أنواع الحيوان بتقليد أصواتها الخاصة بها . فإذا رأى الطفل كلباً وسمع نباحه ثم أراد التعبير عنه فإنه يقلد صوت النباح ، أو الهر فيقلد صوت المواء ، أو الفرس فيقلد صوت الصهيل ، وهو إنما عمد إلى ذلك لجهله اسم كل منها . وهكذا كان الانسان في أول أدوار

وجوده ، فقد كان كالطفل المولود حديثاً في العالم يسمع ويرى ولا يتكلم ولكن لكل من الموجودات المحيطة به صورة في ذهنه حصلت من حال اقتضت بقاءها في ذاكرته ، إذ قد يكون لكل شيء أو واقعة صورة كثيرة لا يبقى في الذهن منها إلا صورة أو بضع صور سبق الذهن إلى الاستمساك بها ، أما لغرابتها أو لملازمتها ذلك الشيء دون سواه أو لامتيازه بها على سواه من نوعه . فإن للفرس مثلاً أوصافاً كثيرة من الشكل واللون والوضع والصوت وما شاكل ذلك . ولكننا عند محاولتنا التعبير عنه بالتقليد يسبق إلى ذهننا صوت صهيله لأنه خاص به . وللرجل مثلاً أوصاف كثيرة يعرف بها ، ولكن الخرس يعبرون عنه بمرور ابهام اليد وسبابتها على الشاربين ، وللمرأة أوصاف كثيرة أيضاً ، ولكنهم يعبرون عنها بما تمتاز به عن الرجل ، إما بالاشارة إلى طول الشعر أو بالدلالة على خلو وجهها منه أو غير ذلك .

فينتج مما تقدم أن الدور التقليدي يقسم إلى قسمين : تقليد الأشكال وتقليد الأصوات ، فالأول لغة الاشارات وهي لغة الذين لا يستطيعون التكلم لعلة طبيعية كالخرس . فإنهم يتفاهمون فيما بينهم وبين غير الخرس بالاشارات فقط . والثاني لغة الأصوات .

التفاهم بالاشارات :

والاشارات نوعان : اضطرارية واختيارية فالاشارات الاضطرارية ليست خاصة بالانسان بل تشمل كثيراً من الحيوان ، ولكنها مقصورة على التعبير عن الانفعالات النفسانية كتقطب الوجه من الغضب أو الحزن والابتسام عند الارتياح أو السرور ، وهز الرأس للدلالة على التهديد ، أو التعجب ، وحنيه للدلالة على الذل أو الخضوع ، وكدلالة النهوض بغتة على تأثر

شديد من فـرح أو غضب أو تعجب . ويروى عن « المسـتر غلادسـتـون » خطيب انجلترا الشهير أن سامعيه كثيراً مـا كانـوا يقفون بغتـة عند سمـاع خطبه ، وهم لا يشعرون ، وقد يسبب الفـرح حركـات أخرى كـالجمز أو الرقص أو الركض ، وقد يصفق الانسان عنـد تأثـير نفساني بغتي كسمـاع خبر محزن أو الانتباه بغتة إلى خسارة ، وكالعض على السبابة ندمـاً واحمرار الوجه خجلاً واصفراره وجلاً ، وكالارتجاف رعباً وغير ذلك من الاشارات التي يجريها الانسان عن غير قصد ولكل منها دلالة خاصة ، ولكننا لا تخرج عن حدود الظواهر النفسانية حال حدوثها وتزول بزوالها ، وهي ليست من التقليـد في شيء على أنها تسـاعد في لغـة الاشـارات إذا تقلدهـا الانسـان للدلالة على ما تدل عليهـا من طبعها . فقـد تعبر عن استنكـافك من أمـر بتقطيب وجهك كـأنك تقـول : « إني لا أحب ذلك » فتقـطيب الوجـه إذ ذاك اشارة تقليدية اختيارية .

أما الاشارات الاختيارية : فهي التي يجـريها الانسـان عمداً يقلد بهـا شكـلاً أو خاصـة من خصائص الأجسـام الخارجيـة للتعبير عنهـا تعبيراً تقليدياً محضاً كمن يرسم صورة الشيء على الـورق للدلالة عليـه . ولكن تلك الاشارات قد تتحول بالاستعمـال والمزاولـة من المعنى الحسي البسيط إلى المعنى الـرمزي . ولبيـان ذلك نستلفت انتبـاه القارىء إلى لغـة الخرس الشـائعة بينهم ، وقـد يفهمها سـواهم إلا ما كـان منها قـد تحول إلى معنى رمزي لا علاقة ظاهرة بينه وبين الاشارة .

فلغة الاشارات وهي لغـة الخرس تقسم إلى اشـارات ذاتية واشـارات معنوية أو رمزية . فالذاتية كالتعبير عن الشيء بتمثيل أوصـافه بـاليدين ، فإذا شاء الأخرس التعبير عن الصندوق مثلاً رسمه لك بيديه موضحاً طوله وعرضه وعلوه ، وللدلالة على كونه خشباً أو حديـداً يشير إلى مـادة خشبية أو حديدية من أدوات المكان الـواقف هو فيـه . وهذا هـو الأصل في لغـة

الاشـارات ، ولكن الطبيعـة لا تقبل البقـاء على حـال واحدة ، ونـامـوس الارتقـاء العام متخلل سـائر أعمـال الحياة ، وهـو يقضي بالنمـو والتنـوع والتفرع على أساليب شتى ترجع إلى مبدأ واحد .

فالاشارات الذاتية ما لبثت أن صارت معنـوية أو رمـزية بمـرور الأيام عـلى أن التقليد الـذاتي قليل في لغـة الاشارات ، والغـالـب في التعبير عن الأشبـاح الخارجيـة بالاشـارة أن يكون بتمثيـل صفة من صفـاتها أو حـالة ملازمة لها كما لو أطبق الأخرس أصابع إحدى يديـه وأدناهـا من فمه كـأنه يصب مـاء فنفهم أنـه يـريـد « المـاء » أو « عـطشـــان » أو « اسقني » أو « اشرب » ، أما التمييز بين هذه المعاني فموكول بالقرينة .

فلغة الاشارات في هذه الحال لا تزال في أبسط أحوالهـا بعضها تقليـد ظـواهر الأجسـام أو بعض أحوالهـا ، وبعضها تقليـد ظواهـر الانفعـالات النفسيـة ، وهي ما دامت عـلى هذه الحـال يفهمها كـل انسان ولكنهـا قـد تتحول بالتنـوع والتفرع إلى لغـة لا يفهمها إلا الـذين يدرسـونها مثل لغـة التكلم . وقـد يقع في اشكـال الاشارات ومـدلولاتهـا تغيير وتبـديل يشبـه القلب والابدال في لغة التكلم . من أمثلة ذلك أن خرس برلين يقصـدون بمحـاولة كسـر الرأس بـاليد مـا هو في لغتنـا (رجل فـرنسي) وصغـارهم يستعملون هـذه الاشـارة لهـذا المعنى ، وهم لا يعلمـون إلا كـونها كـذا خلقت . وقد ظهر بعد البحث أنها مأخوذة عن محاكاة حـادثة مـوت لويس السادس عشر ، فالخرس قـرأوا في كتبهم أنه مـات مضروبـاً على رأسـه ، فـاستعملوا في بادىء الأمـر اشارة الضـرب على الـرأس كمحـاولـة كسـره للدلالة عليه ، ثم حملوها مجازاً عـلى كل فـرنسي . وبعض قاطني أمـريكا الشمالية يعبرون عن قولنـا : « كلب » بجر السبـابة والـوسطى مفتـوحتين على الأرض ، وباقي الأصابع مقبوضة ، والناظر لا يرى علاقـة بين هـذه الاشـارة والمعنى المقصود لكنـه بعد البحث يـرى أنها مأخـوذة عن حوادث

جرت يوم كان الهنود هناك ، وقلّت خيلهم فاضطروا لاستخدام كلابهم لحمل أعمدة الخيم ، فكانوا يحملون كلا منها عمودين واحداً من كل جانب ، فيمشي الكلب والعمودان يجران خلفه ، فقلّد الخرس هذه الحالة بجر السبابة والوسطى مفتوحتين على الأرض ، وما بقي من الأصابع مقبوض ، وعبروا بها عن كلابهم . ولم يستخدم الهنود كلابهم لحمل أعمدة الخيم من ذلك الحين . أما هذه الاشارة فلم تزل مستعملة عندهم إلى الآن للدلالة على أي كلب كان . وهكذا في كثير من اشاراتهم حتى تفرعت لغات الاشارات وحدثت بينها اختلافات لا تقل عمّا بين اللغات السامية . ولم تكن الاصطلاحات المشار إليها السبب الوحيد في ذلك بل هناك أمر لا يقل أهمية عنه وهو الخلاف الاتفاقي في اختيار هذه الصفة من المعنى المقصود ، أو تلك إذ قد تقدم أنهم يعبرون عن أي معنى بتقليد صفة من صفاته ، أو تشخيص حادثة رافقته أول عهدهم به ، فقد تختار هذه القبيلة صفة وتلك صفة أخرى ، وقد يتأتى أن هذه تتصور معنى مصحوباً بحادثة لم تخطر على بال تلك . فإن هنود أمريكا الجنوبية يعبرون عن الماء بقبض كفهم وكبها نحو الأرض ، كأنهم يسكبون ماء خلافاً لخرسنا الذين يقبضونها إلا الابهام ، ويديرونها نحو الفم كأنهم يحاولون الشرب .

ويعبر الخرس عن الضمائر وأدوات العطف والجر وما يشبهها ، وعن حركات الاعراب بتقديم بعض الاشارات و تأخيرها أو غير ذلك من الطرق التي لا تقع تحت الحصر .

فنرى مما تقدم أن للغة الاشارات أيضاً دورين أحدهما تقليدي ، والآخر نطقي مثل لغة التكلم ولولا صعوبة التوسع في لغة الاشارات لامتناع التفاهم بها ليلاً مع مشقة استخدام اليدين في التكلم لشاعت وكانت هي لغة البشر وتفرعت إلى لغات كثيرة مثل لغات النطق الآن .

لأن الانسان في أول أدواره كان يتفاهم بالاشارات والأصوات التقليدية معاً وبتوالي الأجيال ارتقت لغة التكلم وتفرعت فبقيت وبادت لغة الاشارات ولم يبق منها إلا أثر عند الخرس الذين لا يستطيعون النطق وطبيعي في الخليقة أن يبقى الأنسب .

التفاهم بالأصوات :

الأصوات الطبيعية : نريد بالأصوات الطبيعية الأصوات الجارية في الطبيعة ، وهي إما أن تحدث عن تفاعل القوى الطبيعية كأصوات الرعد وهبوب الريح وسقوط المطر وتصادم الأجسام الجامدة كالحجارة وغيرها . أن أن تحدث عن العالم الحي كأصوات الحيوان على اختلاف أنواعه ، كصهيل الفرس ونقيق الضفدع ومواء الهر وما شاكل ذلك .

فتقسم الأصوات الطبيعية بهذا الاعتبار إلى أصوات حية وأصوات غيرحية :

فالأصوات الحية : تقسم إلى أصوات الانسان وأصوات الحيوانات الأخرى . وأصوات الانسان إما اضطرارية أو اختيارية ، فالاضطرارية هي التي يحدثها الانسان عن غير قصد أو روية ، ويراد بها التعبير عن الانفعالات النفسانية ، وشأنها في ذلك شأن الاشارات الأضطرارية. وهي إما « عتمية » كالأصوات التي يخرجها الانسان عند الانفعالات النفسانية ، ولا تتميز فيها المقاطع كالأنين والعنين والأحيح ، وهي أصوات المتوجعين والمغمومين والهمهمة وهو الصوت الحاصل من تردد الزفير هَمَّاً أو حزناً . والزحير أو اخراج النفس بشدة عند عمل شاق . والنحيم أو النهيم وهو شبه أنين يخرجه العامل المكدود فيستريح إليه .

وأما « مفصحة » وهي التي يخرجها الانسان عند الانفعال النفساني ،

وقد تتميز فيها المقاطع كقولنا آه للتعجب أو التحسر وأوه للتوجع وأوف للاشمئزاز أو الضجر وآخ للانبساط ، وأر للغضب والتألم ، وبش للاستحسان، وشه لعدم الاستحسان، ووَي للتأوه وقهقهة صوت الضحك وغير ذلك.

والأصوات الاختيارية : هي التي يخرجها الانسان أو غيره من الحيوان بقصد مثل تفْ حكاية صوت الباصق ، وأفْ حكاية صوت النفخ ، وهه حكاية صوت الزفير الاغتصابي ، وقس على ذلك أصوات الصفير والتصفيق والنحنحة والغرغرة ، والسعال والعطاس والشخير والغطيط والجشاء وما شاكل ذلك .

أما أصوات الحيوانات الأخرى فكثيرة جداً إذ لكل حيوان من ذوات الأصوات صوتاً يعرف به، كمواء السنور،وعواء الكلب وصرصرة البازي، ونباح الكلب، وصهيل الفرس، وفحيح الأفعى، ونبيب التيس.

الأصوات غير الحية : فهي أكثر من أن يحصيها عد كطقطقة الحجارة ، وقعقعة الرحى وجعجعتها ، وطنطنة الجرس ، ورش الماء ، ودوي الرعد ، ومن هذا القبيل قط حكاية صوت القطع ، ولط حكاية صوت اللطم وفِش حكاية صوت السهم إذا رمي ، وفق حكاية صوت القربة إذا فتحت بغتة ، وغير ذلك مما لا يقع تحت الحصر . ومما نوجه ذهن القارىء إليه ، إن الأصوات الطبيعية على اختلاف مصادرها ليست من المقاطع الواضحة في شيء ، ولكنها تؤثر في أذهاننا تأثير إذا أردنا التعبير عنه نطقنا بمقطع أو لفظ يشبهه ، وهذا ما نريد به حكاية الصوت .

فمن حكاية الأصوات الطبيعية الحية وغير الحية على اختلاف مصادرها ومظاهرها اقتبس الانسان لغته ، فاتخذها أولاً بالتقليد للتعبير عما يحدثها أو ما يتعلق به ، وهذا ما نسميه اللغة الطبيعية ، ثم تنوعت

وتفرعت بالنحت والابدال والقلب تبعاً لاحتياجات الانسان حتى صارت إلى ما هي عليه بتوالي الأجيال . .

وكيفية تألف اللغة من الأصوات الطبيعية أن يقلد الانسان تلك الأصوات أو ما يحاكيها للدلالة على الأشياء التي تحدثها كما لو أراد الدلالة على الكلب بتقليد صوت عوائه ، أو الاشارة إلى الريح بتقليد صوت هبوبها ، أو إذا أراد قولنا قطع تقلد صوت القطع ، وهو قَطْ أو ما شاكل ذلك .وشأن الانسان في أوائل عمرانه شأن الطفل الرضيع ، فمراقبة نمو الطفل وكيفية تعبيره عن الظواهر المحيطة به قبل تعلمه لغة والديه أشبه شيء بحال الانسان في طفولية الأرض ، فالطفل لو ترك لفطرته لدل على كل حيوان بتقليد صوته ، وعلى كل أداة بما تحدثه من الصوت ، وقد يستعين بالاشارة ، وهو في الواقع يفعل ذلك الآن ولكنه لا يلبث أن يتعلم لغة من هم حوله ، ويتناسى لغته الطبيعية .

وقد يعسر التسليم بنشوء اللغة عن الأصوات الطبيعية وحدها لأنها لا تكاد تذكر بالنسبة إلى ألفاظ اللغة واشتقاقاتها وأنواع تعبيرها مما يعد بمئات الألوف ، على حين أن الأصوات الطبيعية لا تكاد تزيد على المئة ، والجواب أن ذلك طبيعي جار في الطبيعة يتناول سائر الأجسام الحية وما يتعلق بها ، فكلها تنمو وترتقي وتتنوع وتتكاثر جرياً على ناموس الارتقاء العام . فقد رأيت في ما تقدم من تاريخ الانسان أنه تدرج إلى سائر حاجياته ، فارتقى من أبسط الأدوات إلى ما يتركب منها حتى صارت تعد بالمئات ، فكانت القطعة من الجلد مثلاً تقوم عنده مقام كثير من الثياب والأثاث ، فكان يتزر بها نهاراً ويلتحفها ليلاً ويستظل بها من حر الشمس أو يغلق بها باب كهفه ، وقد يحمل بها ما يحتاج إلى نقله من الطعام أو غيره، أو يغطي بها رأسه وقاية من المطر أو حر الشمس ، وربما اتقى بها رمي الحجارة عليه ، وقد يستعين بها على أعمال أخرى كثيرة لا تحصى ،

فهي تقوم عنده مقام اللباس والفراش والبيت والستارة وآنية الحمل والدرع والمظلة وغير ذلك .

وهو إنما توصل إلى هذه الأدوات الكثيرة بعد ذلك تدريجاً بالنمو الطبيعي ، وهكذا يقال في ألفاظ اللغة ، فقد كانت اللفظة الواحدة أو المقطع الواحد يقوم مقام مئات من الألفاظ . من أمثلة ذلك أن الانسان رأى الماعز مثلاً وسمع صوته ، فدل عليه بحكاية صوته ، وهي « مـعْ » وهكذا يفعل الأطفال اليوم فأنهم يدلون على الماعز بقولهم « مع » ولكنهم يدلون بها أيضاً على لحمه وعلى شعره وعلى أشياء أخرى يختلف تعيينها باختلاف الأحوال . والانسان في أول فطرته سمع صوت القطع مثلاً فتقلده بمقطع « قَطْ » وجعل يدل به عما هو في لغتنا قطع أو كسر ، ولكنه كان يدل به أيضاً على كل ما يتعلق بالقطع مثل فعل القطع ، والمادة المقطوعة واليد التي قطعت والأحوال التي قطعت فيها وما شاكل ذلك .

ثم أن كل مقطع من المقاطع الطبيعية يتحول بالنحت والابدال والقلب ، وبالنمو والتفرع والتنوع إلى ألفاظ كثيرة مشتركة في المعنى الأصلي ، فيخصص الانسان كل تفرع لفظي بتفرع معنوي على أساليب وطرق لا ضابط لها .

ففي الدور التقليدي تقتصر اللغة على تقليد حكايات الأصوات الطبيعية على اختلاف مصادرها ، وهي اللغة الطبيعية الصوتية ، وهي قليلة الألفاظ بسيطة البناء لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف ولا ظرف فيها ، ولا اشتقاق ولا تصريف ، فيسهل التفاهم بها بين سائر أصناف الناس على اختلاف المناطق والأقاليم كما هي الحال في لغة الاشارات الطبيعية على أننا لا نعلم بوجود لغة على هذه الحالة مطلقاً ولكن بعضها أقرب من البعض الآخر إليها . وأدنى ما يعرف من لغات البشر لغة بعض سكان استراليا وأواسط أمريكا الجنوبية فأنها نظراً لقلة

مـوادها لا تفي بـأغراضهم في التعبـير عن كل مـا يحتاجـون إليه عـلى قلة احتياجاتهم ، فيضطرون لاستعمال الاشارات ، فتراهم إذا تكلموا صوَّتوا وأشـاروا بأيـديهم وأرجلهم وأعينهم . والاشارات قسم مهم من لغتهم لا يمكنهم الاستغناء عنه ، فهم لا يستـطيعون التفـاهم ليلاً . وألفـاظ لغتهم أقرب إلى الأصوات الطبيعية منها إلى ألفاظ لغتنا .

ومن قـاطني استراليـا أيضاً من لا تسعفهم لغتهم في التعبـير عما وراء الاثنين من الاعداد بلفظ واحـد ، إذ ليس لديهم من الألفـاظ العدديـة إلا كلمتـان فقط وهما : « نتـات » واحد و « نـايس » اثنان فـإذا أرادوا ثـلاثـة جمعوهما معاً وقالوا : « نايس نتات »، أو أربعة « نـايس نايس »، أو خمسـة « نـايس نايس نتات »، أو ستة « نـايس نايس نـايس »، أما السبعـة ومـا وراؤ هـا فيقفون عنـدها منـذهلين وتضيق دونهم سبل التصـور ، فيعبرون عنهـا بقولهم « كثـير ». ومنهم من يعبرون عن كـل تنـوعـات معنى القـطع بكلمة واحدة . ومما يفيد في الاطلاع على كيفيـة تحول معـاني الكلمات مـا يعبـر به بعضهم ممـا هو من الغـرابة بمكـان ، فإن منهم من ليس في لغتهم لفـظة تؤدي معنى الصلابـة فإذا اضـطروا للتعبـير عن قـولنـا « صلب »، قـالوا : « حجـر » وآخرون لا يقـدرون تأديـة معنى الـطول والاستـدارة ، فيعبـرون عن قولنـا « طويـل » بقولهم « سـاق » وعن « مستديـر » بقـولهم « مثل القمر ». ولا يخفى أن هذه الكلمات في غاية المناسبة لما وضعت له لأن الحجر هو الجسم الأكثر شيوعاً بصفة الصلابة ، والساق أول ما يخـطر للانسان تصور الطول فيها كما هـو معلوم . واللغات في أول أمـرها خـالية من الأدوات والحـروف إذ يعوض عنهـا في بادىء الأمـر بـالاشـارات ، ثم يستعار لها ألفاظ ذات معنى في نفسها .

الدور النطقي :

نريد بالدور النطقي حال اللغة بعد تحـول ألفاظهـا بالقلب والابـدال

والنحت من تقليد الأصوات ، تقليداً بسيطاً إلى ألفاظ مستقلة يدل بها على المعاني دلالة صماء لا تظهر فيها صبغة التقليد كما هو حال اللغة الآن .

وقد مر على اللغة من انتقالها من الدور التقليدي إلى النطقي دهور متطاولة لا يعرف مقدارها ، تدرجت فيها اللغة درجات متفاوتة لا يسعنا استيفاء شرحها في هذا المقام ، فنمر عليها مرور المسرع خوف التطويل فنقول :

أول درجة تخطوها اللغة من التقليد البسيط إلى النطق ، إنما هي تحول حكاية الصوت من الدلالة على ما يحاكيه مباشرة إلى ما يقرب منه ، أو يماثله بالتدريج حتى تتولد الألفاظ البسيطة الدالة على المعاني البسيطة بغير أن تتولد فيها الأدوات والحروف ، أو صيغ الاشتقاق ولا مميز فيها بين الاسم والفعل والحرف ، وإنما يدل على ذلك بالقرينة فتستعمل اللفظة الواحدة تارة اسماً ، وطوراً فعلاً ، وأخرى نعتاً أو أداة فالصينيون مثلاً يعبرون بقولهم (تُوان) عن معان عديدة تعود إلى أصل واحد فيقصدون بها (كوَّر) أو (أحاط) أو (مكوَّر) أو (كرة) أو (حول) الظرفية إلى غير ذلك من أمثال هذه المعاني ، ونظراً لقلة ألفاظ اللغة في هذه الحالة يطلقون اللفظة الواحدة على معان تقرب من معناها الأصلي ، كما هي الحال في اللغة الأكادية ، فإن لفظة واحدة مؤلفة من مقطع واحد تدل على خمسة عشر معنى ، والأصل فيها جميعها واحد وهي لفظة Ga أو Ca ، فإنهم يقصدون بها (فم) أو (وجه) أو (عين) أو (أذن) أو (شكل) أو (قدم) أو (رجل) أو (نظر) أو (مدينة) أو (تكلم) والأصل فيها وجه المدينة[1] .

ثم ترتقي اللغة درجة أخرى فيتولد فيها المميز بين الأسم والفعل مع

---

(١) في اللغة الاكدية يوجد شكل واحد لمقطع ينطق بأصوات مختلفة فهناك شكل مثلاً قد ينطق : تار ـ طار ـ كوت ـ قود ـ شيل ـ هامس ـ وشكل قد ينطق : ريد ـ شيت ـ لاك ـ ميش ـ كيل .

خلوها من حروف الجر والعطف وسائر الأدوات ، وصيغ الاشتقاق كما هو الحال في اللغة الصينية ، فالصينيون يعبرون عن حرف الجر « في » بقولهم « وسط » فيقولون مثلاً « كوشنغ » ومفادها حرفياً « مملكة وسط » ويقصدون بها ما هو في لغتنا « في المملكة » ولهم في الباء السببية طريقة غريبة ، فهم يقولون : « شاجن أي تنغ » مفادها حرفياً « قتل رجل استعمل عصا »، ويقصدون بها « قتل الرجل بالعصا »، ومن قاطني أواسط افريقيا قبائل تعرف بقبائل « مندنجو » إذا أرادوا تأدية معنى « على » قالوا : « كنغ » أي عنق ، أو « في » قالوا : « كونو » أي بطن ، فيقولون لما هو في لغتنا « ضع الكتاب على الطاولة » مثلاً « ضع الكتاب طاولة عنق »، وهكذا في « في ». وأدوات الجمع والتأنيث والتذكير والصفة وما شاكل في اللغات الصينية هي في الغالب أفعال أو أسماء ذات معان مستقلة(١) .

ومن لغات بعض جزائر المحيط ما لا أدوات فيها لتمييز الجنس أو الحال أو العدد ، أو الزمن أو الشخص ، والمشهور من هذا النوع اللغة البولينية ، والقياس يقتضي أن لا يمر على هذه اللغات مدة من الزمن حتى لا يعود ممكناً تمييز أصل هذه الكلمات فيحسبونها كذا أنزلت .

ثم ترتقي اللغة درجة أخرى فتتولد فيها بعض الأدوات والحروف وتولدها إنما يكون بتنوع ألفاظها بالنحت على مرور الأيام ، فتتحول الأسماء أو الأفعال الدالة على معنى في نفسها إلى الحروف ، أو الدالة على معنى في غيرها على طرق وأساليب لا يمكن حصرها . ولكنها تبقى مع ذلك خلوا من مميزات العدد أو الجنس في أفعالها ، كما هي الحال في اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) التي قد توفر فيها عدد كاف من الأدوات والظروف ، لكنها تشارك المتقدم ذكرها بأنها لا مميز للزمن أو الشخص في أفعالها . والأدوات التي تحسب ضرورية في الطائفة الآرية والطائفة السامية

---

(١) أنظر صفحة ٦٧ .

في تـركيب الأزمنة والمشتقـات ، لا وجـود لهـا مـطلقـاً في اللغـة المصـريـة والتصريف الفعلي يقوم فيها باضافة الضمائـر إلى الأصل المتضمن الحـدث اضـافة بسيـطة بـدون تغيـير في أصلهـا ، أو اشـارة إلى مقصـد المتكلم ، والتمييـز في ذلك كله مـوكول بـالقرينـة ، ولا وجود في لغتهم لمـا يسمونـه عندنا مزيدات الأفعـال ، فالأصـل هو الـذي يقوم في التكلم مكـان سائـر تنوعات معناه . وتشاركهـا أيضاً بـاطلاق اللفـظة الواحـدة على الاسم أو الفعـل أو الحرف ، فعنـدهـم مثلاً تفيـد قولنـا عـظيم ، فيختلف مؤادهـا بـاختـلاف مـوقعهـا ، فتجيء بمعنى (جـداً) أو (عـظيم) أو « رجـل عظيم »[1] .

ثم تـرتقي اللغة درجـة أخـرى فتتـولـد فيهـا مميـزات الجنس والعـدد والاشتقاق كما ترى في اللغات السامية (إلا العربية)، فإن فيها الاشتقـاق ومميزات الجنس في الاسماء ، والنعوت وأشباهها ، ولكننا نـرى فيها نقصاً تشارك فيه اللغة المصرية القديمة، كخلوها من صيغ التفضيل مثلاً، فالصفة المشبهة في تلك اللغات تقوم مقام انواع التفضيل الثلاثة فيقولون مثلاً في الصفة المشبهة: هذا حسن، وفي افعل التفضيل هذا حسن من ذاك، ويقصدون بها هذا أحسن من ذاك. وإذا أرادوا تفضيل الفرد على سائر أفراد نوعه، قالوا ما يماثل قولنا ملك الملوك، ويقصدون بها قولنا أعظم الملوك أو الأعظم بين الملوك .

ثم ترتقي درجة أخرى فتتم فيها كل هذه المميزات مع خلوها من حالات الاعراب ، وهذه هي حال اللغات الآرية الحديثـة ، وتشمل أعـظم لغات أوروبا الحديثة ولا تميز فيها بين الرفع والنصب والجر ، وإنما يقـوم مقامهـا الحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجـر ، أو بتقديم الألفـاظ

---

(١) في اللغـة المصريـة القديمـة صيغ للمبنى للمعلوم والمبنى للمجهـول وصيـغ للمـاضي والمضارع والأمر وصيغة للفعل السببي على وزن سفعل (افعل) .

وتأخيرها فالفرنسيون يقولون مثلاً Le Lion Tue Le Tigre أي الاسد يقتل النمر ، وإذا أرادوا العكس عكسوا ترتيب العبارة ، فقالوا Le Tigre Tue Le Lion وفي الانجليزية The Lion Kills The Tiger أي الأسد يقتل النمر و The Tiger Kills The Lion النمر يقتل الاسد ، وهكذا في الاضافة وغيرها ، ومعلوم أن لغة عامتنا نظراً لاهمال حركات الاعراب قد أصبحت من هذا النوع .

ثم ترتقي اللغة درجة أخرى وهي أرقى ما وصلت إليه اللغات حتى الآن ، فتتولد فيها مميزات الاعراب وهي حال اللغة العربية الفصحى[١] واللغات اليونانية واللاتينية والالمانية فإن تقديم الألفاظ وتأخيرها قلما يؤثران في المقصود من العبارة إذا حفظت حركات الاعراب ، ففي العربية الفصحى تقول قتل الاسد النمر ، وقتل النمرَ الاسد ، والاسد قتل النمر والاسد النمر قتل والنمر الاسد قتل (قتله) والنمرَ قتل الاسد وجميعها تفيد أن الاسد القاتل والنمر المقتول ، وإذا أردنا العكس لا نحتاج إلا إلى تغيير حركات الاعراب كما لا يخفى .

هذا ملخص ما يمكن أن تمر عليه اللغة من الأحوال في الارتقاء من الدور التقليدي إلى الدور النطقي في أرقى درجاته .

وربما استغرب بعضهم أن لغة مثل اللغة العربية بما فيها من الأدوات والحروف وأنواع الاشتقاق ، وأساليب التعبير وعدد الألفاظ أن يكون أصلها مقاطع قليلة ، هي حكايات الأصوات الطبيعية . ولكننا إذا أمعنا النظر ودرسنا أحوال اللغات على اختلاف درجاتها ، وراجعنا تاريخ الألفاظ التي أصابها تغيير وتبديل على عهدنا مع تفهمنا ناموس الارتقاء العام الذي جعله الخالق في الأجسام الحية ، وما يتعلق بها فلا نرى غرابة

(١) الاعراب في اللغات السامية وجد في اللغة السامية الأصلية ، وتشترك مع العربية فيه اللغة الاكدية وفي بعضه اللغة الحبشية ونجد بقايا منه في بعض اللغات السامية الأخرى .

في ذلك . وفراراً من التطويل نورد بعض الأمثلة تقريباً لذهن القارىء من هذا الموضوع فنقول :

قد تقدم أن الهمهمة حكاية صوت الزفير الذي يخرجه الحزين فتولد منها على توالي الأزمان فعل همَّ وما اشتق منه معنى (راجع القاموس)، ومثل ذلك لفظ وَي ، وهي لفظ ينطق بها الانسان للتأوه من فطرته ، وقد تركب منها ومن لام الجر لفظ: ويل، يدلون بها على التفجع أو حلول الشر، وقد صرَّفوها وزادوا فيها ، فقالوا ويَّل وتويَّل وتوايل واستعملوها اسماً لواد في جهنم ، وشقوا منها اسم مرة ، فقالوا ويلة ويقصدون بها فضيحة ، وركبوا من (وي) عدة كلمات منها وَيح ووَيب وربما كان أصلها (وَي أب) للاستغاثة به ، ووَيخ ربما من (وي أخ) ووَيس وويه ، وركبوا من (ويل) قولهم (ويلمه) بمعنى داه ، فيقولون لمن عرف بالدهاء (ويلِمه) وهي منحوتة من وَيْ لأمِه أو ويل لأمِه[1] .

وقد شق الانسان من حكاية صوت التوجع « آه » فعلاً فقال (آه يأوه أوها) أي شكا وتوجع وهكذا (تأوه تأوها) وقد دعوا داء الحصبة (آهة) والجدري (مآهة) وكل ذلك لتناسب في المعنى واللفظ وهذه التسمية تذكرنا بلغة الاشارات حيث يعبرون عن المعنى بتقليد صفة من صفاته ، أو تشخيص حادثة ملازمة له ، فإنهم بتسميتهم الحصبة (آهة) كأنهم يشخصون ما يرافق ذلك الداء من تأوه المريض . وقد شقوا أيضاً من (أوف) حكاية صوت الاستكراه ، قولهم (أفَّ يؤفُّ أفًّا) تضجر ورجل (أفَّاف) أي كثير الضجر و (أفف) بمعنى أف وقد شقوا منها أسماء ، فدعوا قلامة الأظافر (أفًّا)، وكذلك وسخ الأذن وما رفعته عن الأرض من عود أو قصبة ، ومنا أيضاً (الآفة) بمعنى الجبان والمعدم والمقل والرجل القذر ، ولا يخفى أن هذه المعاني تنوعات المعنى الأصلي الذي هو الضجر

(١) انظر صفحتي ١٠٦ ، ١٠٧

والاستكراه . وفي اللغة المصرية القديمة أمثال كثيرة كهذه منها قولهم (حو) بمعنى ضرب ، وهي صوت المضروب عند التألم ، وقولهم (آه) لما هو في لغتنا عظيم أو كثير ، وقد تأتي ظرفاً بمعنى (جداً) و « حوو » عريان وهي صوت المنفعل من البرد عرياناً[1] .

ومثل ذلك حكاية صوت البصاق « تَفْ »، فقد شقوا منها (تفلَ) أي بصق ولما كان الانسان يبصق أحياناً استخفافاً بالأمر شقوا منه فعلاً فقالوا (تفَه) خسَّ أو قلَّ ، ولما كان التفُّ أحياناً يحدث عن استكراه بعض الأطعمة استعملوا منه (التفاهة) في الطعام أي عدم الطعم ، فيقال (طعام تَفِه) أي لا طعم له[2] وإذ كان التفُّ مستعملاً عند الغضب أو الحدة شقوا منه (تفيء) أي احتد أو غضب ، وإذ كان يسمع عند محاولة اطفاء اللهيب استعملوا تنوعه (طفىء) بمعنى خمد ، وقد شقوا منه أفعالاً وأسماء لم تعد تتميز الآن لكثرة تنوعها . والظاهر أن الفاء هي الصوت المختص بالنفخ، فإننا نخرج عند النفخ صوتاً هذه حكايته (أف) فتركب منها (ربما بالنحت) في العربية (نفخ) وفي الانجليزية Puff وفي الفرنسية Souffler أو Enfler أو Gonfler وبعض القبائل العريقة بالتوحش يعبرون عن النار بقولهم (أفي) حكاية صوت النفخ ، وكان المصريون يعبرون عن النار بقولهم (هه) وهي حكاية صوت الزفير الاغتصابي كأنهم قصدوا به اخراج النفس حاراً من الصدر ليدلوا به على النار ، وعندهم « خخ » لما هو عندنا « بلعوم » فكأن الأصل فيه اخراج الصوت بعنف من مؤخر الحلق ليتنبه السامع إلى المتكلم ، يقصد البلعوم المجاور لتلك الجهة . وربما استعمل هذا الصوت في بادىء الأمر مصحوباً باشارة استلفاتا للذهن ، ثم استغنى عن الاشارة . وفي العبرانية « آف »

---

(١) في المصرية القديمة ضرب « حوي » وعريان « حاو » أو « حاي » .

(٢) انظر صفحة ١٠١ .

بمعنى أنف ، وهي حكاية صوت الزفير إذا خرج عن طريق الأنف ، ولما كان الزفير الأنفي يحصل غالباً عند الغضب الشديد استعملوا « آف » بمعنى غضب أو سخط . وبعد استعمالها للدلالة على الأنف أطلقوها على جميع الوجه . ثم ركبوها مع أدوات أخرى فصاغوا منها ظروفا كقولهم « لأ في » أمام أو تجاه ولا يخفى أن « آف » و « أنف » من أصل واحد والنون دخيلة في العربية على ما نرى[1] .

وليست هذه الأمثلة إلا نذراً يسيرا بالنسبة إلى تنوعات الأصوات الخارجية غير الحية ، فإن مقطع « قط » حكاية صوت القطع قد تولد منه بالقلب والابدال والنحت تنوعات لا تعد ولا تحصى قد أشرنا إلى شيء منها في ما تقدم : منها قصَّ وكسَّ وجذَّ وجزَّ وخصَّ وخدَّ وقدَّ ، وغيرها وكلها بمعنى قطَّ أو قطع . وكل من هذه التنوعات قد تولد منه بالنحت عدة ألفاظ فمن « قط » تولد قطَع وقطَب وقطَف ، وهذان الأخيران يتضامنان مع القطع معنى الجمع وقطَم وقطَل . ومن « قص » تولد قصم وقصل وقصب وقصر وهذه تتضمن معنى النقص وقصف وقصا ، وجميعها ، تتضمن معنى القطع . ومن « قض » قاض وقضم وقضب وقضع . ومن « كس » كسر وكسع وكسح وكسم[2] . ومن « جذ » جذب وجذر وجذف وجذم . ومن « جز » جزأ وجزر وجزع وجزح وجزل وجزم . ومن « خزَّ » خزع وخزق وخزم وخزل[3] . فترى معنى القطع

---

(١) النار عند قدماء المصريين « أخ » أو « هوت » .
واشتقوا حرف « الفاء » الذي يرسمونه على صورة الثعبان « القرنية » من حكاية صوت هذا الثعبان . والبلعوم عندهم «ثفخ».
أما أف في العبرية والاكدية والاجريتية بمعنى أنف وفي الآرامية بمعنى وجه ، وأما فم « فو » فهو بالعبرية « فه » وبالاكدية والعربية « فو » وبالحبشية « أف » وبالسريانية « فوما » .
(٢) أنظر صفحة ١٠٠ .
(٣) أنظر صفحة ١٠٠ .

واضحاً تماماً في جميع هذه التنوعات ، وقد تراه بعيداً في غيرها ، ومفقوداً في بعضها . فإن « خصَّ » تفيد معنى الافراد بالشيء ، فترى معنى القطع فيها مجازيًا ، فكأنه يقول خصَّهبالشيء أي قطعه عن سواه ، ومنها خصَم بمعنى الخصام أو الشقاق أو الانقسام ، فظهر فيها معنى القطع ، ولكنه غير واضح ، وهكذا في خصم فأنها لا تزال تتضمن معنى القطع وليس كذلك خضَع وخضل . ومن « خد » خدع قال البيضاوي « الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو بصدده ، من قولهم خدع الضب توارى في جحره » ولا يخفى ما يستلمح في هذا من معنى القطع . وخدر البنت ألزمها الخدر أي قطعها عن الاختلاط بالناس ، وخدف ولا تزال تفيد القطع صريحاً . ويجانس خد « خذ » ومنها خذع قطع ، وكذلك خذعب وخذعل وخذل . أما خذل فقد أصبحت بمعنى خيب ، لكنك تراها عند الدقيق تفيد القطع أو الانقطاع لأنم يقولون خذلت الظبية إذا تخلفت عن صواحبها ، وانفردت أو انقطعت . ويجانس قص « قس » ومنها قسم وقسط ، فإن هذه الأخيرة وسائر الأفعال المتعلقة بالأحكام العقلية ترد إلى معنى القطع المعنوي ، كعدل وقضى وحكم وفصل وقسط ، وكذلك أفعال القسم كأقسم وحلفَ . ويجانس قس أيضاً « قش » ومنها قشر تتضمن مع القطع معنى النزع وكذلك قشط وقشع ، أما قشب فلا تدل على القطع ، أما قشبر المنحوتة منها فيستلمح فيها ذلك المعنى ، والظاهر أن قشب خسرت معنى القطع بالاستعمال ، والعامة في سوريا يقولون قشبت الشفة أي تشققت . وهناك تنوعات أخرى أغضينا عن ذكرها اكتفاء بما ذكرنا على سبيل المثال . ولا بد لنا من ذكر مثال للتنوعات التي تحصل بزيادة حرف في أول الأصل ، مثال ذلك نقض من قض ، ومقط من قط بمعنى الكسر . أو في الوسط نحو قرص من قص ، وقرض من قض وقس عليه التنوعات الحاصلة بالقلب مما يضيق المقام عن استيفائه .

ومن غريب الابدال أن تكون « يد » و« قط » أو احدى أخواتها من أصل واحد . ولا ننكر ما في ذلك من دواعي الاستغراب ولكن الدليل يقرب البعيد . فإن القرب بينهما في المعنى واضح لأن اليد هي مصدر القطع ، وأول استماع الانسان حكاية صوت القطع ، إنما كان بواسطتها فلا غرو إذا استعمل ذلك الصوت للدلالة عليها ، ونسبة اليد للقطع معنى كنسبة قاطع إلى قطع ، ولا يخفى ما هنالك من المشابهة . وأما في اللفظ فأننا باستقراء أصل كلمة يد في اللغات السامية أخوات العربية نرى أنها قريبة جداً من قط، فإنها في الأشورية «غت» وهي حكاية صوت القطع بعينه[1].

فترى أن تنوعات حكاية صوت القطع مع ما فاتنا ذكره تفوق المئة عداً ، ولا يخفى أن كلا من هذه التنوعات أصل لمشتقات ، وتنوعات جمة لفظاً ، ومعنى حقيقة ومجازاً ، وإذا أردت تحقق ذلك راجع كلا من هذه المواد في مكانه من القاموس ، فترى أن لبعضها مئات من التنوعات المعنوية التي بعضها يرد إلى معنى القطع وبعضها لا يرد لما حام حوله من اظلال المعاني الأخرى ، أما بالاستعمال أو بتنوع المعاني نفسها أو غير ذلك .

وما قيل في « قط » يقال في غيرها من حكاية الأصوات ، فمن « هب » حكاية صوت اللهيب إذا نفخته الريح ، أو هو ما نسمعه ممن يعمل عملاً يقتضي اجهاداً ، وقد تصور فيه معنى الهيجان لنا سلسلة هبَج وهبَذ وهبَش وهبَص وسلسلة لهَب ورهَب وسلسلة هدبَ ، وهكذا . ولنا من « لت » حكاية صوت اللطم لت ولتَب ولتَج ولتَخ ولتد ولتذ ولتف

---

(١) يد باللغات السامية كلها إما بصيغة « يد » وأما بصيغة « ايد ».

ولتَم . ويجانس لت « لط » ومنها لطأ ولطثَ ولطَح ولطخ ولطس ولطش ولطَع ولطَم ولطهَ[2]، وجميعها تتضمن معنى الدق والشد ، ومنها سلسلة أخرى أولها لبط . وهكذا يقال في « فق » حكاية صوت القربة إذا انبثق منها الماء ، وتتضمن معنى الفتح ، ومنها فقّ وفقأ وفقح وفقر وفقص وفقش وفقع وقس عليه كثيراً من أمثاله .

فهذه التنوعات مع ما فاتنا ذكره تفوق المئة عداً ولا يبرح من بال القارىء أن كلا منها أصل لمشتقات وتنوعات جمة لفظاً ومعنى حقيقة ومجازاً . وإيضاحاً لذلك نذكر مشتقات وتنوعات أحدها « قطَع » ومعناها أصلاً أبان أو فصل فمنها : قطَع فلاناً عن حقه منعه[3] . وأقطع الحدث الصلاة أبطلها . وفلان في القول جزم وقطع الطريق منعه وقطع النهر عبره . وقطع لسانه أي أعطاه احساناً حتى اسكته عن هجوه . وقطع فلان الحبل اختنق ، وقطع الحوض ملأه إلى نصفه ثم قطع عنه الماء ، وقطع عنق دابته باعها . وقطع الرجل أو قطع لسانه لم يقدر على الكلام . وقطعت يده قطعاً وقطعة وقُطعاً وقُطاعاً بانت بقطع أو بداء عرض لها . وقطع بفلان مجهولاً عجز عن سفره أو حيل بينه وبين ما يؤمله ، وقُطع فلان يئس أو عجز . قطعهُ شديداً أو بكثرة . قطعني الثوب كفاني التقطيع . يقال هذا الثوب يقطعك قميصاً . وقطع فرسه الخيل سبقها . وقطع الله عليه العذاب لونه وجزّأه . وقطع الخمر بالماء مزجها . وقطع العروضي الشعر حلله إلى أجزائه العروضية . قاطعه ضد واصله . وفلان فلاناً بسيفهما نظرا أيهما أقطع . وقاطع فلاناً على عمل ولاه اياه بأجرة معينة . وأقطع الامام الجند البلد جعل لهم غلته رزقاً. وقد دعوا اسم ذلك

---

(١) أنظر صفحة ١٠٠ .

(٢) أنظر صفحة ١٢٦ .

المكان الذي يقطع قطيعة . وأقطع فلاناً أخشاباً أذن له في قطعها . أقطعت الدجاجة أقفت . وأقطع النخل أصرم . وماء الركية ذهب . وأقطع القوم انقطعت عنهم مياه السماء . وفلاناً جاوز به نهراً . والرجل انقطعت حجته وبكتوه بالحق فلم يجب . والغريب عن أهله انقطع عنهم وباينهم . وتقطع الشيء مطاوع قطع . تقطعت الخمر وامتزجت . وتقطعوا أمرهم بينهم تقسموه . وتقاطعا ضد تواصلاً . وانقطع الشيء مطاوع قطع والسيف انكسر . وماء الركية ذهب . والغيث احتبس . والنهر جفَّ أو حُبس . وانقطع بالمسافر على المجهول عطبت دابته أو نفد زاده فانقطع به السفر دون طيه . فهو منقطع به . واقتطع من ماله قطعة أخذ منه شيئاً ، واستقطعه بلداً سأله أن يُقطعه إياها . القاطع اسم فاعل والحاجز والمقطع الذي يقطع به الثوب والأديم ونحوهما ، وقيل القاطع هو المثال الذي يقطع عليه وسيف قاطع أي ماض . ولبن قاطع أي حامض . وبرهان قاطع أي يقطع الحجة أي مقنع . وقاطع الطريق اللص . والعامة تقول قاطع النهر أي الشاطىء المقابل . ودواء قاطع أي ذهبت قوته . والطعام القاطع عند النصارى ما ليس من لحوم حيوانات البر ولا من ألبانها . والمنقطع عن تناول غير هذا الطعام يقال له قاطع أيضاً . القاطعية عند التجار الكمية التي تفنى بالاستعمال من طعام وبضاعة ونحوهما . القطاع المقطع الذي يقطع به الثوب والأديم ونحوهما والدراهم . وزمن القطاع أي زمن صرام النخل . والقطاع مصدر وعند المهندسين يطلق على شيئين : أحدهما قُطاع الدائرة والثاني قطاع الكرة . القطاعة اللقمة وما سقط من القطع وطائفة تقطع من الشيء أو هي مختصة بالأديم . القطاعة عند النصاري الاقتصار على الطعام القاطع المذكور آنفاً . القطاع عند البنائين الذي يقطع حجارة البناء من الصخر . وآلته القطاعة . وحرفته القطاعة . والقطع ابانة بعض أجزاء الجسم فصلاً . وقطع اللص يراد به قطع يده . وقولهم أن الأمر واقع قطعاً

النصب فيه على المصدر أي أقطع به قطعاً بمعنى أجزم . أو على الحال أي مقطوعاً بوقوعه . والقطع عند المتقدمين من القراء الوقف . والمتأخرون منهم فرقوا بينهما ، فقالوا : القطع عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يُتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة ، لا بنية الاعراض عنها . وهو عند العروضيين حذف آخر الوتد المجموع الواقع في عروض البيت أو ضربه ، واسكان المتحرك قبله كحذف النون من متفاعلن ، وتسكين اللام فيصير متفاعلْ ، ويُنقل إلى فاعلاتن . ويسمى ذلك الجزء مقطوعاً . والقطع عند النحاة ترك التبعية والعدول إلى خلافها كقراءة بعضهم الحمد لله الحميدُ برفع الحميد على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو الحميد ونصبه على أنه مفعول به لفعل محذوف أي أعني الحميد . وعند أهل المعاني الفصل وهو ترك العطف . وذلك يكون بين الجمل لكون عطف الواحدة منها على الأخرى يوهم عطفها على غيرها مما ليس بمقصود عطفها . ويطلق القطع عند الحكماء على فصل الجسم بنفوذ جسم آخر فيه ، وعند الأصوليين على معنيين : أحدهما نفي الاحتمال أصلاً . والثاني نفي الاحتمال الناشيء عن دليل . وهمزة القطع عند الصرفيين التي تثبت لفظاً في الابتداء والدرج جميعاً . والقطع ما تقطع من الشجر ونصل صغير عريض ، وظلمة آخر الليل أو القطعة منه أو من أوله أو من ثلثه ، والرديء من السهام والبساط أو النمرقة أو طنفسة يجعلها الراكب تحته وتغطي كتفي البعير . وثوب قِطع وأقطاع أي مقطوع . القطع البهر وانقطاع النفس وجمع لأقطع والقطيع وأصحابهم قُطع أو قِطع أي انقطع ماء بئرهم في القيظ . القطع القطعة من الليل . ورجل قطع أي هاجر رحمه وقاطعها وعاقها . القطعاء مؤنث الأقطع . ورحم قطعاء لم توصل . القطعة الحصة من الشيء . وقطعة علم للأنثى من القطا . القطعة عند المهندسين كالقطاع ، والقطعة من الشعر ما كان سبعة أبيات فما دون وقيل عشرة ، والقطعة بقية يد الأقطع . وموضع القطع . القطوع من النوق التي يسرع انقطاع لبنها .

القطيع الطائفة من الغنم والنعم . وهو قطيع القيام أي منقطع القيام ضعفاً أو سمناً ، وامرأة قطيع الكلام أي غير سليطة . وهو قطيعه أو شبيهه في خلقه وقده . القطيعاء ضرب من التمر . القطيعة الهجران ، الاقطع المقطوع اليد . وحمام اقطع أي في بطنه بياض . الانقطاع في المناظرة اختتام البحث بثبوت دعوى المستدل أي دعوى المعترض . والتقطيع مغص في الأمعاء « سموه تقطيعاً لأن المصاب به يحس كأن أمعاءه تتقطع ».

المقطاع من لا يثبت على مواخاة . المقطع حرف مع حركة أو حرفان ثانيهما ساكن ، وقيل هي الحركة الاعرابية ، ويطلق المقطع أيضاً على مخرج الحرف من الحلق أو اللسان أو الشفتين . مقطع الاسحار الأرنب المقطعات من الشعر قصاره وأراجيزه . اهـ »[1] .

هذه تنوعات فرع واحد من تفرعات « قط » فقس عليه ما بقي منها ، واجمع تَر أنها تفوق الآلاف عداً .

ومعلوم أن هذه التنوعات لم تكن مقصودة عند أول استعمال قطع بل حدثت بعد ذلك تبعاً لاحتياجات البشر ، ووفقاً لما استدعته الأحوال ، الأمر الذي لا ينفك ولن ينفك جارياً إلى ما شاء الله ، فإن كثيراً منها قد طرأ عليه بعد أن جمعت اللغة تنوع اقتضته الأحوال ، وكثيراً منها أبطل استعماله وألقى في زوايا الاهمال ، ولا يخفى على كاتب في اللغة أن كثيراً من المعاني المجازية للألفاظ قد أهمل لدواع غير معروفة تماماً ، وكل يعلم أن الألفاظ على الدوام آخذه باكتساب معان جديدة إما بين الكتاب للتعبير عن أفكار حديثة ، أو بين العامة جرياً على ناموس الارتقاء العام ـ فالعامة

---

(١) مختصر عن محيط المحيط .

تقول « رجل مستور » ويقصدون بها أنه في درجة متوسطة من المعيشة . فلأول وهلة لا تشاهد علاقة بين اللفظ والمعنى إذ أن « مستور » مشتق من ستَر أي غطّى لكننا نعلم أنهم قصدوا بها باديء بدء أن هذا الرجل ليس فقيراً لدرجة تحمله على الاستعطاء أو الاستمرار على حالة تشهر أمره ، بل هو قادر على اكفاء عائلته بحيث لا يعلم الآخرون باحتياجهم ، فهم مستورون عن أعين القوم . وتصرفوا بها فقالوا « بدنا السترة » بمعنى لا نطلب من الاحتياجات إلا سد العوز . وأمثال هذه كثيرة على ألسنة العامة يسمعها كل منا . ومما لا بد من ذكره أن هذا التنوع المعنوي يصحبه غالباً تنوع لفظي ، فهم يقولون (ضهر) بمعنى خرج وأصلها بلا ريب (ظهر) إذ ليس للأولى من أثر في كتب اللغة ، فانظر كيف انها تنوعت لفظاً ومعنى ، ولا يخفى ما هناك من النسبة بين معنى الظهور والخروج . ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا (ضهر) فصارت تفيد عندهم مفاد جملة فيقولون ضهر أو خرج ، ويريدون بذلك « خرج لقضاء حاجة نفسه » .

وتستعمل العامة (صلاحية) للدلالة على اناء للطعام كالقصعة وإذا بحثنا عن أصل هذه اللفظة نرى أنها مبدلة من (صراحية) التي وضعت أصلاً للدلالة على الخمر الخالصة ، ثم استعملت مجازاً لآنية الخمر ، ثم أطلقت على اناء الطعام . وهناك سؤال آخر ، ما هي العلاقة بين هذه التسمية والخمر ؟ فنقول : إن (صراحية) مشتقة من (صرح) بمعنى صفا فأطلقت على الخمر الصافية ، ثم على آنيته ثم على آنية الطعام فتأمل .

ولدينا من جملة أفعال القتل قولهم (نيشنَ) والباحث يرى أنها مأخوذة من نيشان ، وقد اكتسبت هذه الدلالة من وضع المجرمين أحياناً هدفاً للرصاص جزاء ما كسبت أيديهم ، والهدف يدعونه نيشاناً فقالوا نيشنهُ أي قتلهُ بجعلِه هدفاً يرمى عليه رصاص البنادق . وأظن أنهُ لا تمضي مدة حتى تطلق هذه اللفظة على أي نوع من القتل . ومن أنواع

القتل عندنا « شنَق » وهذه كانت تدل قبلاً على العذاب وفي السريانية يقال (شنَق) أي عذّب فحمل معناها على القتل شنقاً لأنه من أشد ضروب العذاب ، وغير هذه الأمثال كثير مما نشاهده ونسمعه كل يوم .

فما المانع من حصول مثل هذه التنوعات الاعتيادية في اللغة قبل أن جمعت إذ كان يرافق التنوع المعنوي تنوع لفظي ، فخصوا كل تنوع معنوي بآخر لفظي فوصلت إلينا الأفعال كما نشاهدها .

فالألفاظ الثنائية الاحادية المقطع هي الأصل في كل هذه التنوعات بدليل أن الأصول اللغوية في سائر اللغات احادية المقطع ، وإن لم تكن جميعها ثنائية الأحرف . ففي اللغات الآرية لنا جذور قليلة العدد ، هي أصل لجميع المشتقات ، وهذه الجذور أحادية المقطع على الاطلاق .

منها : I أصل معنى الحركة البسيطة ، و Ka الاضطجاع ، و Ak الحركةالسريعة Sta الوقوف ، و As أو Sac الجلوس ، و Pad المشي ، و Vas البقاء و Sac الالحاق ، و Vart العود ، و Sarp السحف ، و Pat الطيران (وعندي أن هذه و Pad المتقدم ذكرها من أصل واحد لتوافقهما في اللفظ والمعنى)، Plu الفيضان ، و Ad الأكل ، و Pa الشرب ، و An النفخ الخ . ومن هذه الجذور تتولد كلمات عديدة لمعان متنوعة ترد بالاستقراء إلى معاني جذورها .

وهكذا الحال في اللغات السامية أخوات العربية ، فإن الأصول الفعلية والأسمية ساكنة الأواخر فيها على الاطلاق ، والمضاعف قليل الاعتبار لفظاً في تلك اللغات إلا حملاً على العربية ، وطلباً للتعليل اعتماداً على كون الأصول المجردة جميعاً ثلاثية الأحرف على أنهم لا ينطقون بالمضاعف إلا مقطعاً واحداً مخففاً مثاله في السريانية (حَشْ) تألم و (كسْ) قصم و (زَلْ) نفص و (حم) حمى و (حك) تلفظ (حخْ

وحكَّ) و (حَنْ) تحننَ الخ . . . وفي العبرانية (جـزْ) جزَّ و (جـرْ) جرَّ و(دق) و (زك) تلفظ (زخ) طهر . . إلى آخره .

فيرجح بقياس التمثيل أن أواخر الأفعال كانت ساكنة أصلاً في العربية إلا أن أسلافنا قاطني البادية تفننوا فيه على طرق مختلفة . والأمم يختلفون من جهة أواخر الكلم ، فمنهم من تنتهي ألفاظ لغتهم بما ندعوه في لغتنا سكوناً ، ومن هؤلاء المتكلمون باللغات السامية إلا العربية على أن من العرب أنفسهم من يستثقلون الحركة في أواخر الألفاظ فلا ينطقون بها ، وهم قبائل مضر ، وأكثر المتكلمين بالعربية لهذا العهد ، وهناك أمم لا يرتاحون إلا لتحريك الأواخر كعرب قريش وكالايطاليين والاسبانيين ، وكذلك كانت اللغة الهندية القديمة (السنسكريتية) ومن هذا القبيل أيضاً لغة البرابرة القاطنين في النوبة . ومن الغريب أن اللغة الاشورية يكاد لا يوجد فيها لفظ ساكن الآخر بل معظم ألفاظها متحركة .

وجملة القول أن من الأمور الراجحة قياساً والجلية استقراء أن لغتنا مؤلفة أصلاً من أصول قليلة احادية المقطع ، ثنائية الأحرف في الأغلب معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً ، وأنه من هذه الأصول القليلة قد نشأت وارتقت بارتقاء أفكار المتكلمين بها ، وتعددت ألفاظها بتعدد احتياجاتهم ، وتنوعت طرق التعبير ومعاني الألفاظ بتنوع أحوالهم ، وكل ذلك جرى على طرق أهمها أربع : النحت والابدال والقلب والاستعارة ، وقد حصل معظم هذا التفرع أو التنوع ، واللغة العربية لا تزال في حجر أمها وبعبارة أخرى قبل افتراقها عن أخواتها السامية (العبرانية والسريانية وغيرهما) أي إذ كانت هي وهن لغة واحدة .

وهل يصعب علينا الاقتناع بذلك بعد أن شاهدنا عياناً أن من حكاية صوت واحد تولد ما فوق المئة من الأصول الفعلية الثلاثية ، ومن كل

أصل تولدت تنوعات واشتقاقات معنوية ولفظية تبلغ المئة في البعض والخمسين في البعض الآخر . وقصارى الكلام أن من هذه اللفظة الثنائية الأحرف الاحادية المقطع تولدت أفعال وأسماء تفوق الآلاف عداً ويؤيد ذلك ما تقدم شرحه عن الألفاظ المطلقة ، وكيف أنها مع تعدادها ناشئة عن لفظ واحد أو بضعة ألفاظ .

ولا يفوت القارىء اللبيب أن جميع هذه التفرعات ، ومعظم تنوعاتها وسائر الأدوات اللغوية وطرق الاشتقاق والتصريف قد بلغت معظم ارتقائها في أزمنة غاب عن معرفتنا حدها . إذ أن أقدم ما جاء به التاريخ كأمس بالنسبة إليها ولا ريب لدينا أنها بلغت ذلك المبلغ ، وهي لم تزل في حجر أمها والمقابلة تثبت لنا ذلك جلياً .

فلا نطمع اذن أن باستطاعتنا تطبيق جميع الأصول اللغوية على أصوات تحاكيها في الخارج ، ونحن لا نعلم عن منشأ اللغات السامية شيئاً ، فاللغة السامية أو الآرامية التي يريدون بها أم تلك اللغات ليست إلا لغة وهمية ظن اللغويون أسبقيتها للغات السامية ، وعدوها أصلاً لها استدلالاً مما شاهدوه في ألفاظها ، وطرق تعبيرها وقياساً على سواها .

وهناك طريقة أخرى لوضع الصفات والنعوت وردت في « سر الليال » ويعبر عنها مؤلفة بحكاية الصفة وقد قال فيها ما نصه :

« أما حكاية الصفة فهي نظم حروف يتوهم الناظم منها أنها تدل على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم أو الشدة والتفخيم كقولهم مثلاً (شيء منمنم) أي مزخرف ، فهو نحو توهم الفرنسيين لفظة (مينيم) للشيء القليل الوجيز وشيء (ململم) أي مدور مضموم مجتمع وقولهم (خبخاب) لرخاوة الشيء المضطرب ، والعامة تقول (مخبخب) للسمين المضطرب ، وكقولهم (امرأة رجراجة)

أي يترجرج عليها لحمها ، وربما التبست حقاً حكاية الصفة بحكاية الصوت وكقول العامة (مربرب) للسمين المكتنز ، وهو في لغة الانجليز (بلَمْب) بفتح اللام وسكون الميم وكقولهم (المهفهف) للممشوق البدن و (النع) للرجل الضعيف ، والعامة تقول (منعنع) للطيف المترفه وكقول الترك (نازك) ونحو (السلسل) للماء العذب ، أو البارد و (السلس) للسهل اللين ، و (السلسبيل) اللين الذي لا خشونة فيه و (الوسوسة) لحديث النفس ، و (الهمس) للصوت الخفي ، و (الداح) نقش يلوح للصبيان يعللون به ، والعامة تقول (دح) وهي في لغة الانجليز (دال) و (الحاد) لما يلذع اللسان و (الهجنع) الطويل الضخم ورجل (عكوك) أي قصير ملزز و (خفنجل) و (خفنشل) أي ثقيل سمج و (مهبج) أي ثقيل النفس وضخم ، و (مقرقم) لمن لا يشب ، و (مزكزك) لمن يمر ويقارب خطوه ، و (زونك) لمن يمشي ويحرك منكبية وناقة (زيزفون) أي سريعة ، و (كز) أي يابس متقبض وشيء (تافه) لما ليس له طعم ، و (جهم) للوجه الغليظ المجتمع و (هلق) للقدم الضخم و (جهضم) للضخم الهامة ، و (حفنجي وخفنجي) للرجل الرخو لا خير عنده و (خجوجي) للطويل الرجلين ويلحق به نحو بزه أي غلبه وبش به وهشَّ وماس وترنح وطال وفرَّ ولزَّ وتقزَّز وقس على ذلك » اه[1] .

(١) من صفحة ١٣١ إلى صفحة ١٥٨ أنظر تعليق (١) صفحة ٥٦ .

اختراع الكتابة

١ - الطريقة الطبيعية لاختراعها

خلق الله الانسان بين عاملين هما أصل الاختراع والاكتشاف أولهما الضرورة التي تسوقه إلى البحث ، وثانيهما النور الطبيعي الذي يدله على أسرار الطبيعة ويهديه إلى ما يساعده في حفظ ذاته ودوام نوعه . ولو تتبعت سائر اختراعات الناس من النار التي لم يدرك التاريخ زمن اختراعها إلى أشعة الراديوم التي سمعنا بها بالأمس لرأيت الدافع إليها كلها الضرورة على حد قولهم : « الحاجة أم الاختراع » .

فقضى الانسان قروناً متطاولة يأكل ويشرب ويلبس وينام ويتكلم ، ولكنه لا يكتب ، فما لبث أن تكاثر وتآلف واتسعت علاقاته وعكف على الأسفار التماساً للرزق حتى اضطر إلى الكتابة لمخابرة جاره ، أو تدوين حوادث أمسه أو تقييد ملاحظاته وآثاره .

فلنفرض قبيلة من قبائل البشر في أول عهد العمران يقتات أفرادها على الأعشاب واقتناص الحيوان ، ويأوون إلى الكهوف والمغاور ألم بها مصاب همها أمره ، فأحبت تدوينه نحو أن أسداً وثب على شيخها فافترسه ، فما ظنك في الطريقة التي يخترعونها لتدوين تلك الحادثة . لا

أخالك ترى وسيلة غير التصوير إما بالرسم أو بالنقش على ما تقتضيه حالهم من الصناعة ، فيرسمون أسداً واثباً على رجل ينهشه بمخالبه أو نحو ذلك . وهي أول خطوة يخطوها الانسان نحو الكتابة ونسميها « الدور الصوري الذاتي »، وهو أبسط أدوارها لأنه قاصر على تصوير الحادثة كما وقعت تماماً ، ولا فائدة منه إلا في الحوادث المؤلفة مما يقبل التصوير . ولكن هناك معاني لا صورة لها في الخارج كالحب والبغض ، وكقولك اليوم والغد والصباح والمساء ، فضلاً عن المعاني الكلية ، فهذه كلها يضطر فيها إلى الرموز ، فقد يرمز عن المحبة مثلاً بالحمامة ، وعن البغض بالحية ، وعن اليوم برسم الشمس في أعلى دائرة . فلنفرض أناساً جاءوا تلك القبيلة بحراً ، وبعد مسيرهم ثلاثة أيام نزلوا الشاطىء ليلاً ، وكان شيخ القبيلة غائباً فأراد ابنه أو أحد أتباعه ابلاغه ذلك كتابة ، فلا نظنه بعد اعمال فكرته يهتدي إلى طريقة يصور بها تلك الحادثة على غير هذه الصورة :



فيعبر عن العدو برسم رجل مسلح ويريد بالنقط الكثيرة أن الأعداء عديدون وبصورة السفينة أنهم نزلوا البحر وبالقوس وفي أعلاها الدائرة ، وهما خط الهاجرة والشمس في أعلاه يريد اليوم وبالخطوط الثلاثة أنهم ساروا في البحر ثلاثة أيام وبالشجرة البر وبالقوس وفيه رسم الهلال وشيء يشبه النجوم أن الأعداد نزلوا الشاطىء ليلاً .

وهذه خطوة ثانية نحو الكتابة وفيها صور رمزية فضلاً عن الذاتية

ونسميها « الدور الصوري الرمزي »، ويمكن التعبير بها عن أكثر حاجيات الانسان(١) .

---

(١) ذهب العلماء في نشأة الابجدية مذاهب شتى :
١ ـ نشأتها من أصل مصري قديم .
وازن أصحاب هذا الرأي صور الابجدية الفينيقية بالعلامات الدالة على الصامت في المصرية القديمة من الخط الهيروغليفي ومنهم من استعان بشكلها في الخط الهيراطي . ومنهم من ذهب إلى أن العلامات المصرية لم تؤخذ بالاصوات الدالة عليها ، بل ترجمت الصور إلى الفينيقية ثم أعطيت دلالة صوتية جديدة .
ومنهم من ذهب إلى أن الابجدية اشتقت من المصرية القديمة بعد أن توسطتها الكتابة السينائية .
٢ ـ ومن العلماء من ذهب إلى أنها اشتقت من الخط الكريتي إما عن طريق الفلسطينيين الذين حملوها إلى الساميين ، وإما عن الخط الكريتي بتوسط الخط المصري القديم .
٣ ـ ومنهم من أرجع نشأة الابجدية إلى الخط الحثي القائم على الصور .
٤ ـ ومنهم من ذهب إلى نشأتها عن الخط القبرصي المقطعي .
٥ ـ ومنهم من رجح أنها نشأت عن ابجدية جبيل الشبيهة بالهيروغليفية والتي تأثرت بدورها بالمصرية القديمة .
٦ ـ ومنهم من ذهب إلى أن نشأتها عن الخط الأسفيني وبخاصة بعد أن كشف سنة ١٩٢٩ في رأس شمرا عن خط أبجدي أسفيني مستمد من الخط المقطعي الأسفيني ، وتعرف اللغة التي كتبت بهذا الخط الآن باللغة الاوجريتية .
٧ ـ ومن العلماء من ذهب إلى أن نشأة الابجدية الفينيقية كان بالسليقة ، وقد نشأ بعض الحروف من البعض الآخر . ولا يمنع أن يكون هناك تأثير سطحي لنظام الكتابة الذي كان متبعاً في البلاد التي تجاور الفينيقيين وبخاصة الكتابة الهيروغليفية الكريتية ، والكتابة الشبيهة بالهيروغليفية التي عثر عليها بناحية جبيل .
وبالرغم من أن العلم الحديث لم يقطع بنظرية من هذه النظريات ، ولكن مما لا شك فيه أن هذه الاراء كلها تلتقي على اختلافها في أن الفينيقيين هم اصحاب الابجدية المعروفة ، وعنهم انتشرت في العالم .
أما زمن نشأتها فيحدد بعد القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وذلك لأن الامارات التي كانت منتشرة في الشام وفلسطين كانت تتراسل باللغة البابلية والخط البابلي الاسفيني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وهذا يدل على أن الابجدية لم تكن قد نشأت في هذا القرن أو على الأقل لم تكن قد انتشرت . وكانت معظم الرسائل التي عثر عليها في مدينة جبيل مكتوبة على البردي المصري . وفي سنة ١٩٢٣ عثر في جبيل على تابوت الملك « أحيرام » الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو مكتوب بالابجدية الفينيقية .

ثم لا يلبثون بتوالي الأجيال أن يهتدوا إلى اتخاذ صورة الشيء للدلالة على أول مقطع من اسمه كاستخدام صورة العدو للدلالة على أول مقطع من (عدو)، وهو العين مفتوحة واستخدام رسم السفينة للدلالة على السين مفتوحة ، والشجرة على الشين مفتوحة ، وقس عليه وهو أهم خطوة في اختراع الكتابة لأن بها تتحول الأشكال الصورية من الدلالة على أسمائها كاملة إلى الدلالة على أول مقطع من مقاطعها ، وهو ما نسميه بالدور المقطعي .

ولكن في رسم صور الحيوان والنبات وغيرهما مشقة تحول دون انتشار هذه الكتابة وتداولها . على أن يد الانسان ميالة إلى التنويع التماساً للسرعة واقتصاداً في الوقت ، فلا يلبث رسم الرجل المسلح المتقدم ذكره أن يتحول إلى شكل يشبهه ، ثم يبعد الشبه كثيراً حتى لا يعرف لذلك الشكل شبه مع بقاء دلالته الأصلية . فلا يعرف الناس إلا أن ذلك الشكل يدل على العدو أو على مقطع « عا » ولا يرون علاقة بينهما .

ثم لا يلبث الانسان أن يهتدي إلى اختراع الحركات ، فبدلاً من أن يدل الشكل الواحد على المقطع الواحد وهو حرف وحركة معاً يدل على الحرف فقط ، ويُخترع له علامة تدل على الحركة أو ما يقوم مقامها ، فالشكل الذي كان يدل على العين مفتوحة يدل على العين بدون حركة ، وهكذا في ما بقي . فبدلاً من أن يكون الشكل الدال على مقطع (عا) مثلاً محصوراً في الكلمات الداخلة فيها العين مفتوحة ، أو مكسورة يستعمل للدلالة على العين مطلقاً ويعبر عن الفتح أو الضم أو الكسر بعلامة تضاف إليها ، وفي ذلك من التسهيل والاقتصاد ما لا يخفى وهذا هو الدور الهجائي .

فالأدوار التي تمر بها الكتابة قبل وصولها إلى نحو ما هي عليه الآن أربعة :

١ ـ الدور الصوَري الذاتي وتدل الصور فيه على المعاني الذاتية وهو قاصر لا يمكن التعبير به إلا عن أبسط الحوادث .

٢ ـ الدور الصوري الرمزي وفيه فضلاً عن الصور الذاتية صور رمزية تدل على المعاني المعنوية التي لا صورة لها في الخارج وفي هذا الدور يمكن التعبير عن أكثر ما يمر بذهن الانسان من المعاني على اختلاف أنواعها ، ولكن يقتضي لذلك مئات بل ألوف من الصور وفيه من المشقة ما فيه .

٣ ـ الدور المقطعي وتدل الصورة فيه على أول مقطع من اسمها وهو خطوة كبرى في اختراع الكتابة ، فبين أن اللغة في الدور السابق لا يتم التعبير عن معانيها إلا بألوف من الصور يكفيها في هذا الدور بضع مئات فقط .

٤ ـ الدور الهجائي وفيه تصبح تلك المقاطع حروفاً وهو آخر خطوة بلغت إليها الكتابة حتى الآن ، فإنك ببضع عشرات من هذه الحروف تعبر عن كل ألفاظ اللغة مهما تعددت وتنوعت .

٢ ـ تاريخ الأقلام التي استعملها الناس حتى الآن

علمت مما تقدم الطريقة التي يمكن أن تتدرج الكتابة فيها من أبسط أحوالها إلى مثل ما هي عليه الآن ، فلنتقدم إلى تأييد ذلك بما وقع فعلاً من تاريخ الخطوط التي استخدمها البشر منذ أول عهدهم بالعمران حتى بلغت ما هي عليه اليوم .

والاقلام التي استخدمها الانسان من أول أزمانه إلى الآن تعد بالمئات ، ولكن معظمها مهمل ، ولسهولة البحث فيها نقسمها إلى قسمين كبيرين هما : (١) الأقلام الأصلية (٢) الأقلام الفرعية .

الأقلام الأصلية ـ نريد بالأقلام الأصلية ما توصل إليه الانسان من تلقاء نفسه على الاسلوب الطبيعي كما رأيت في « الطريقة الطبيعية لاختراع الكتابة ».

ومن هذا النوع الأقلام التي استخدمتها الأمم المتمدنة قديماً وقد عرفنا منها أربعة وهي : الهيروغليفي ، والاسفيني ، والحثي ، والصيني ، فهذه الأقلام نشأ كل منها على حدة ، وتدرج مع الدور الصوري الذاتي إلى الدور المقطعي ، ولكنها وقفت بين الدورين الثاني والثالث أي أنها في الغالب مزيج من الدور الصوري الرمزي والدور المقطعي .

الأقلام الفرعية ـ وهي ما تفرع من الأقلام الأصلية وفيها كثير من الخطوط المستعملة والمهملة من قديم ويحدث ولبيان ذلك نقول :

١ ـ القلم الهيروغليفي :

هو أهم الأقلام الأصلية ومنه تفرعت أكثر الخطوط المشهورة في العالم على ما يظن ، وقد وصل إلينا وهو في حال الانتقال من الدور الصوري الرمزي إلى الدور المقطعي أي أن بعض صوره تدل على معان ذاتية ، وبعضها على معان رمزية ، وبعضها يدل على مقاطع . فمثال الدلالة الذاتية دلالة صورة الشيء على لفظه وهو متشابه في كل الخطوط الأصلية . وأما الصور الرمزية فلكل أمة اصطلاح مخصوص . ومن أمثلة الصور الرمزية عند المصريين فالصورة الأولى منها تدل على السلب أو الضياع ، والثانية صورة نجمة معلقة تدل على الظلام ، والثالثة ذراع مبسوطة قابضة بكفها على عصا وتدل على القوة ، والرابعة ساقان ماشيتان للدلالة على الحركة ، والخامسة رجل يده في فيه للاشارة إلى أي عمل من أعمال الفم كالتكلم والطعام والشراب ، والسادسة صورة طير صغير يرمزون به إلى الشر . وأما الصور المقطعية

عندهم فهاك مثالها مع نطقها وتفسيرها وتقرأ من اليسار إلى اليمين .

سرهينا حر تو حمس حر تو ان ان
شاروهن ل حاصرنا نحن لما

فبقي المصريون أزماناً متطاولة يكتبون بهذا القلم ، وتفرع منه قلمان استخدموهما معه وهما : الهيراتي والديموطيقي ، فكانوا يستخدمون الأقلام الثلاثة معاً . على أن الهيروغليفي كان محصوراً في الكهنة والمظنون أنه ما زال مستخدماً إلى القرن الثالث للميلاد . أما الهيراتي فهو عبارة عن الصور الهيروغليفية ، وقد تشوهت هيآتها التماساً للعجلة والديموطيقي أحدثها ، وهو أقرب إلى الحروف الهجائية[1] . وما زالت هذه الأقلام شائعة بمصر حتى استبدلها الأقباط بالحروف اليونانية القديمة ، واستعاروا بعض الحروف الديموطيقية للدلالة على مقاطع قبطية لا مثال لها في اليونانية[2] .

قلنا أن القلم الهيروغليفي أصل أكثر الخطوط المشهورة والأرجح أن الفضل في نقل هذه الخطوط وتفريقها في العالم راجع إلى الفينيقيين سكان سواحل سوريا في أقدم أزمنة التاريخ ، فإنهم عاصروا الفراعنة القدماء ، وهم أول من سلك البحار وجاب الأمصار للاتجار والاستعمار قبل الميلاد بقرون ، فاستخرجوا الحروف الهجائية من القلم الهيروغليفي ، ونقلوها إلى سائر أنحاء العالم ، فعلموها لليونان والكلدان واليهود وغيرهم قبل

---

(١) الديموطيقي خط مقطعي أيضاً .

(٢) استعار الاقباط بعض المقاطع الديموطيقية وكونوا منها بعض الحروف للدلالة على الأصوات القبطية التي لا مثيل لها في اليونانية .

المسيح بقرون ، ومنها تفرعت الخطوط المستعملة في سائر أنحاء العالم المتمدن الآن[1] .

أما توصل الفينيقيين إلى تلك الحروف فكان بالاقتباس والتحسين وليس بالاختراع ، وإنما كانوا يردون مصر للتجارة فاضطروا في معاملة المصريين وغيرهم إلى استخدام الكتابة ، وأخذوا بعض الصور الهيروغليفية أو الهيراتية كما كانت تستعمل عند المصريين وتصرفوا في رسمها لسهولة استعمالها ، فاجتمع عندهم منها على توالي الأيام ٢٢ شكلاً استخدموا كلاً منها لمقطع أو حرف من حروف لغتهم ، وسموه باسم يدل على شكله . فكان رسم الثور مثلاً عند المصريين مستعملاً للدلالة على الثور وهو في لغتهم (آوا) ، فرسم الفينيقيون شكلاً يشبه رأس الثور وجعلوه للدلالة على مقطع الألف وسموه « ألف » ومعناها في الفينيقية (ثور) واتخذوا شكلاً مربعاً يشبه البيت ويدل عند المصريين على البيت واسمه عندهم (با) فرسموا شكلاً يقاربه ودلوا به على مقطع الباء وسموه « بيث » أي بيت . واتخذوا رسماً آخر يشبه رأس جمل . . واستخدموه لحرف الجيم وسموه (جميل) أي جمل ، وهكذا في الشين المسننة فإن في الهيروغليفية يقابلها هذه الصورة وهي رسم أشجار مغروسة وقس عليه سائر الحروف . فكانوا يقتبسون الحرف فيقتضبونه ويسمونه باسم يدل على شكله حتى استوفوا كل المقاطع الموجودة في لغتهم ، وتكونت الأبجدية الفينيقية وأسماء حروفها تدل على أشكالها كما ترى في الجدول في الصفحة التالية[2] .

---

(١) تفرعت عن الفينيقية جميع الابجديات المعروفة في العالم وسلكت في ذلك خمسة مسالك : اليونانية ومنها إلى جميع خطوط أوروبا ، والعبرية القديمة ومنها إلى المؤابية والسامرية ، والعربية الجنوبية ومنها إلى الحبشية ، والآرامية القديمة ومنها إلى خطوط الشرق الأدنى والاوسط ، والبراهيمية في مسلك لا نعرفه بالضبط وعنها أخذت خطوط الهند وشرق آسيا ، والبونية في شمال افريقيا .

(٢) اسماء الحروف في الفينيقية تدل على أشكالها أما الحرف فيدل على الصوت الأول من اسم

فالفينيقيون نقلوا هذه الابجدية إلى بلاد اليونان نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد[1]، وهو القلم اليوناني القديم ونقلوها إلى ما بين النهرين ، فعلموها للاشوريين وهو القلم الكلداني القديم أو الارامي وكان الاشوريون يكتبون بالقلم الاسفيني فأهملوه واستخدموا الحرف الفينيقي لسهولة استعماله . ومن القلم اليوناني تفرعت الأقلام الرومانية والغوطية واليوناني الحديث والسلافي ، ومنها تولدت الأقلام التي تكتب بها لغات أوروبا وأمريكا وغيرها . وتفرع عن اليوناني أيضاً القلم القبطي كما تقدم ، وأقلام أخرى أهملت ، وهي التريجاني والليسياني والاتروسكاني والكارياني . ومن القلم الآرامي تولدت كل الخطوط الشرقية وفي جملتها العبراني المربع ، والسطرنجيلي ، والنبطي والهندي ، ومن السطر نجيلي تفرع السرياني والكوفي ، ومن النبطي تفرع الخط العربي النسخي الذي نكتب به نحن الآن ، ومن الهندي تفرعت خطوط الهند . وتفرع من الفينيقي رأساً أيضاً الحرف العبراني القديم . والقبرسي والقرطنجي ، وتفرع من العبراني القديم الحرف السامري وكلها مهملة . وفي الجدول بالصفحة التالية صور الحروف الفينيقية واليونانية القديمة والسامرية وبازائها ما يقابلها من الحروف العربية ، وترى المشابهة بين الفينيقي واليوناني القديم واضحة ، وكذلك بين هذا وسائر فروعه . أما الآرامي وهو أصل الخطوط الشرقية فقد كان في أول أمره نفس الحرف الارامي وهو أصل الخطوط الشرقية فقد كان في أول أمره نفس الحرف الفينيقي ، ثم أخذ يتنوع ويبتعد عنه وأول ما لاحظوه فيه من التفرع انفراج أعلى

---

(١) د : باب (الخيمة) ، هـ : سله أو فرع شجرة ، و : عروة أو اذن الوعاء ، ز : ميزان ، ح : حائط أو حاجز ، ط : كرة (من طوى) ، ل : ابرة أو عصا المعلم ، ن : سمكة (نون) أو حنش (وهي في الحبشية نحش) وربما ثعبان البحر ، س : سند أو سماك ، ص : خطاف أو سنارة (وعلى الارجح آلة من الات الصيد ، ق : قرد .

الحروف العربية	الحروف الفينيقية	الحروف اليونانية القديمة	الحروف السامرية	أسماؤها بالفينيقية	معانيها	أسماؤها بالعربية	أسماؤها باليونانية
		B					
		Λ		ألف	ثور	ألفه	ألفا
ب ﺑ		Δ		بيت	بيت	باء	فبتا
ج ﺟ		E		جيمل	جمل	جيم	جملا
د		Y		دالث	باب	دال	دلتا
ﻫ ﻬ ه		I		ه	؟	هاء	اى
و		H		واو	ديوس	واو	أو
ز	⊕	⊕		زين	سلاح	زاى	؟
ح ﺣ	Z			حيث	حيط	حاء	ايطا
ط				طيط	حية	طاء	ثيطا
ى ﻳ		K		يود	يد	ياء	يوطا
ك ﻛ				كاف	كتف	كاف	كبا
ل ﻟ		M		لامد	مساس	لام	لامدا
م ﻣ		N		ميم	مياه	ميم	مى
ن ﻧ				نون	سمك	نون	نى
س ﺳ	O	O	▽	سامك	دعامة	سين	سغما
ع ﻋ				عين	عين	عين	
ف ﻓ				قا	فم	فاء	فى
ص ﺻ				صادى	سناره	صاد	زيتا
ق ﻗ	Φ	Φ		قوف	اذن	قاف	—
ر				ريش	راس	راء	رو
ش ﺷ				شين	سن	شين	—
ت ة ة	+	T		تاو	علامة	تاء	تاو(١)

(١) معانى الحروف التى تخالف ما جاء بالجدول: ب بمعنى بيت أى ضمه،=

الحروف ذات الزوايا وانحلال الزوايا والتفاف الحروف على نفسها وهاك مثالاً يدل على ذلك .

ميتبا زى قرب معنن بر عمرن

لصلم الها لحيي نفشه

أي « العرش الذي قدمه معنان بن عمران للاله صلم لأجل حياة نفسه » فإن رؤوس الباء والعين والراء ، قد انفجرت حتى صارت مائلة إلى التربيع على أن الشكل الفينيقي لا يزال ظاهراً فيها[١] .

ثم انتشر الخط الآرامي في جهات آسيا وأخذ يتنوع عند كل أمة باختلاف أحوالها ، فتولدت منه الفروع المتقدم ذكرها ، ويهمنا منها الحرف النبطي لأنه أصل الخط العربي النسخي . وقد دعوه نبطياً لأنه كان مستعملاً عند النبطيين أو الأنباط في مدن بصرى (أسكي شام) وحبرون وصلخا (سرخد) في حوران وغيرها ، وقد عثروا على شيء من هذه الكتابة في تلك الجهات ، فوجدوا أنها على نوعين مختلفين أحدهما أقرب إلى الكتابة

= الشكل . وفي هذا أساس الاختراع الذي يعتبر من أهم الاختراعات في حياة الانسان . وهو من الاختراعات التي مرت عليها قرون عديدة لم تتغير إلا بقدر ضئيل وهذا غريب في تاريخ الحضارة .

انتقلت الابجدية إلى بلاد اليونان في ما بين سنة ألف وسنة ثمانمائة قبل الميلاد .

(١) نقش ارامي عثر عليه في تيماء ، وهو محفوظ بمتحف اللوفر في باريس ويرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد .

الارامية ، وهي الأقدم ، وهاك مثاله نقلاً عن آثار بعض جهات حوران بقرب السويدية

نفشه دى حمرت دى بنه له ادينه بعله

أي « تمثال حمرت الذي بناه له سيده ادينه».

والآخر أقرب إلى الخط العربي المعروف ، وقد عثر الباحثون على كتابة من هذا النوع منقوشة على حجر ، وقد تلاحمت حروفها نوعاً وذلك أول اتصال الحروف الغربية بعضها ببعض وهاك مثالها .

دنح قبرا دى عبد عيدو بن كهياو بن

أي « هذا هو القبر الذي صنعه عيدو بن كهيلو بن . . الخ » والكتابة المشار إليها تشير إلى القبر الذي اصطنعه عيدو بن كهيلو بن القصي لنفسه وأولاده وذريته ، وقد استنتجوا من نص الحكاية أنها كتبت ما بين السنة التاسعة ق . م والخامسة والسبعين بعده(١) .

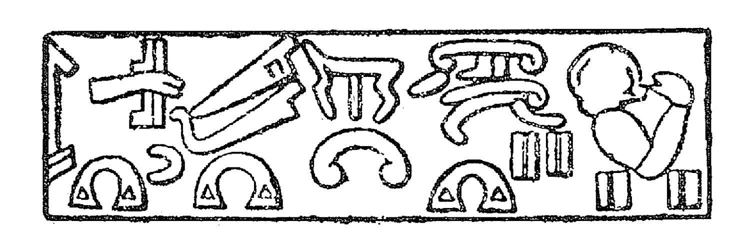
٢ـ القلم الحثي :

الحثيون أمة قديمة عمرت سوريا وآسيا الصغرى في أوائل التمدن القديم ، فعاصرت الفراعنة القدماء ، وحاربتهم وحاربت الأشوريين وغيرهم ، وقد بادت وانقطعت أخبارها قبل الميلاد بأجيال . ولكن علماء الآثار عثروا في القرن الماضي على كتابة منقوشة على أحجار عليها كتابة

---

(١) نقش نبطي من الحجر نسخة « أو يتنج » ونشر في موسوعة النقوش السامية ويرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد والنقش تسعة أسطر .

صورية كالكتابة الهيروغليفية ، وقد تمكنوا من حل بعضهـا ، فوجـدوا أنها كتـابـة أصليـة مستقلة عن القلم الهيـروغليفي . وهـاك صـورة بعض مـا وجدوه على حجر في حارة الدهان بحماة (سوريا) .



فيريدون بصـورة اليد في الفم الـدلالة عـلى التكلم . والمربعـان تحتها يدلان على مقطع (ما) والشكـل الذي يشبـه نعال الفـرس ، ومنه ثـلاثة أشكال من أسفل يدل على مقطع (اس)، ويراد به الدلالـة على الفـاعلية وقس على ذلك باقي الدلالات مما لم يقفوا على تمام حله بعد . والظاهر أن القلم الحثي قلما ولد أولاداً أو لعله ولد أولاداً نسـوه لأن الخطين الحميـري والحبشي في اعتبارنا متخلفان عن الحثي لمشابهة بينهما وبينـه وخصوصـاً أن العـلماء كانـوا في ريب من أمر هـذين الخطين ، فلم يعثـروا لهما عـلى أصل يرجعان إليـه ، فالقلم الحثي أقـرب سائـر الخطوط إليهـما على مـا نرى[1] وهاك صورة الخط الحميري .

---

(١) الخط الحميري أو ما نسميه بخط النقوش العربية الجنوبية ويسمى بالمسند لأنـه قائم عـلى سند خط أبجـدي مشتق من الخط الفينيقي . أما الخط الحبشي فمشتق من المسنـد . والمسند يكتب مثل غيره من الابجديات السامية بالحرف الصامت فقط أما الحبشي فقد أضيفت إليه الحركات ولهذا فكل صامت منه له سبعة أشكال كل بحركته .

أ	ض
ب	ط
ت	ظ
ث	ع
ج	ع
ح	ف
خ	ق
د	ك
ذ	ل
ر	م
ر	ن
ز	و
س	هـ
ش	ي
ص	

وهاك صورة الخط الحبشي :

እግዚአብሔር፡ እንዴሁ፡ ዓለመን፡ ወጅቀልና፡

فترى بينه وبين الحميري مشابهة كلية إلا أن الحبشي يكتب من اليسار إلى اليمين . فالحرف الأول من اليسار (الف) وهي كثيرة الشبه بالألف الحميرية والحرف الثاني (جيم) والثالث (زاي) وهو كالذال الحميرية تماماً وقس عليه .

٣ ـ القلم الاسفيني :

وهو القلم الذي كان الاشوريون والبابليون يستخدمونه قبل وصول

الحروف الفينيقية إليهم ، وتسمى كتابتهم بالاسفينية أو المسمارية لمشابهتها بالمسامير ، أو الاسافين وهي من قبيل الـدور الصوري الرمزي مـع شيء من المقطعي ومن أمثالها قولهم (كالو) ومعناها (احرق) ومعظم اطلال بابل واشور في العراق تغشاه هذه الكتابة نقشاً على حجـارة طينية كانـوا يطبعـون الأحرف بـأدوات تشبه الاسـافين ، أو المسـامير عـلى الطين النيىء ثم يتركونه ليجف بخلاف المصريـين القدمـاء ، فإنهم كـانوا ينقشـون كتابتهم عـلى الحجر . وقـد يتبادر إلى الـذهن لأول وهلة أن هذه الكتابة ليست من الصورية في شيء ، ولكن بـالتأمـل يتضح أنها متخلفـة عن كتابة صورية سابقة لها لأننا بالرجوع إلى أقدم أنواعها نراها تقرب من الأشكال والرسوم . ولا نعرف قلماً تفرع عن الاسفيني[1] .

٤ ـ القلم الصيني :

والكتابة الصينية قديمة وأشكالهـا تدل عـلى ألفاظ كـاملة كأقـدم أنواع الكتابة ، ولذلك فإن أشكالها تعد بـالمئات والألـوف ولكن لا يظهـر عليها أنها صورية على أننا لو تأملنا لرأيناها متخلفـة عن أصول صـورية تغيـرت بمـرور الأعـوام فتـرى في هـذا الـرسم أمثلة من الكتـابـة الصينية .

ولدى التأمل يظهـر لك أنها تشبـه رسومـاً حقيقية . وللغـات الصينية أنواع كثيرة من الحروف ترجع كلها إلى أصل واحد صـوري فقدت بتـوالي الأجيال . وحكمنا على اللغاتِ الصينية مسند بالأكثر إلى قياس التمثيل .

---

(١) القلم الاسفيني الاشوري اشتق من القلم الاسفيني الشوميري ، وكان في الاصل خطاً صورياً ثم اختصر إلى اسافين أفقية أو عمودية أو أفقية وعمودية معاً يدل كل شكـل منها عـلى مقطع . وقـد كشف في رأس شمـرا سنـة ١٩٢٩ عن خط ابجـدي اسفيني اشتق من الخط الاشـوري البابلي .

وفي الصفحة التالية جدول بينا فيه تفرع الأقلام القديمة والحديثة من أصولها[1] .

(١) الخط اليوناني القديم ومنه اشتق :
الأيبيري والقوطي واللاتيني والارمني والجيورجي والاترسكي والسلافي القديم (الكيرلسي) والسلافي القديم (الجلاجوليتي) والقبطي .
ومن اللاتيني اشتق الأنجليزي السكسوني (ومنه النوري القديم والايسلندي والنرويجي) والروني والارلندي والالماني .
ومن الاترسكي اشتق الاوسكي والامبري والفاليسكي .
ومن السلافي الكيرلسي اشتق البلغاري والصربي والروسي .
ومن البراهمي اشتق التبتي والناجري والكنري والتيلوجي والتمولي والسنغال والجاوي اللاوثي والخميري والموناني والسيامي والتشامي والبوجي .
ومن الارامية القديمة اشتق العبري المربع (وعنه الحبري) والآرامي الهندي والآرامي الفارسي (ومنه المندعي والفهلوي وعن الفهلوي الاديجوري والمغولي والبيري) والسرياني والاسطرنجيلي والتدمري والنبطي (وعنه العربي القديم ومن العربي القديم السينائي والكوفي القديم والنسخي القديم .
ومن العربي القديم اشتق المؤابي والسامري .
ومن العربي الجنوبي اشتق الحبشي .

العد والأرقام

كيف تعلم الانسان العد واخترع الأرقام ؟

استنباط العد :

العد بالأرقام قديم جداً وقد احتاج الانسان إلى العد قبل احتياجه إلى التكلم ، فقضى أجيالاً عديدة قبل أن تولدت اللغة ، وهو يعد بالاشارات وأساس العدد عنده الأصابع ولا يزال أثر ذلك باقياً إلى اليوم . فإن الخرس حتى في أعرق الأمم في المدنية يعدون على أصابعهم . وفي لغات الأمم المتوحشة ألفاظ تؤيد هذا القول ، فإن أهل الزولوس إذا أرادوا التعبير عن الستة قالوا : « تاتيسيتوبا » وتفسيرها في لسانهم « أخذ الابهام »، ومعنى ذلك أن الحاسب عد أصابع إحدى يديه وضم إليها الابهام من اليد الأخرى ولهذا السبب أصبح لفظ اليد والقدم والانسان أعداد في كثير من اللغات . فإن بعض قبائل الهنود على ضفاف نهر أورينوكو بأمريكا الجنوبية يعبرون عن الخمسة بقولهم : « اليد كلها »، وعن الستة بقولهم : « واحد من اليد الأخرى »، وهكذا إلى العشرة فيقولون : « اليدان »، ويعبرون عن الأحد عشر بقولهم : « واحد إلى القدم »، ثم « اثنان إلى القدم » وهكذا إلى الخمسة عشر فيقولون : « كل القدم » ثم « واحد إلى القدم الأخرى »، ويتدرجون على هذه الكيفية إلى العشرين فيقولون : « انسان » ثم يقولون : « واحد إلى أيدي الرجل

الآخر » أي واحد وعشرون . ولا يزالـون على نحـو ما تقـدم إلى الأربعين فيقولون : « رجلان ».

فإذا علمت ذلك هـان عليك تعليـل السبب في اتخاذ العشـرة أساساً للعد لأنها مجموع أصابع اليدين . والظاهر أن أجدادنا جعلوا قاعدة العدد أولًا الخمسـة لأنها أصـابـع يـد واحـدة ، ثم جعلوهـا العشـرة لسبب لا نعلمه . فإن زنوج السنغال في غربي افريقيا لا يزال أسـاس العدد عنـدهم الخمسة ، فإذا عـدوا الخمسة وأرادوا مـا بعدهـا قالـوا : « خمسة واحـد . خمسة اثنين . خمسة ثلاثة . . الخ » كـما نقول نحن : « أحـد عشر . اثنـا عشر . ثلاثة عشر . . الخ»، ولا يزال أثر هذا النمط من العدد محفوظاً في الأرقام الرومانية التي كان الرومـانيون يستخـدمونها قبـل استخدام الأرقـام الهندية كما سيأتي . .

عـلى أن بعض الأمم يجعلون أسـاس العـدد العشـرين . ومن هـذا القبيـل تعبـير الانجليـز عن الثمـانـين بقـولهم Fourscore أي اربعـة عشـرينـات . وقـول الفـرنسيـين لهـذا المعنى Quatre— Vingt . فيقـول الانجليز Fourscore And Three والفرنسيون يقولون Quatre — vingt trois أي ثلاثة وثمانون. ويدل ذلك على أن بعض قبائل الجرمان القدماء كانوا يعدون بالعشرين، وهي مجموع أصابع اليدين والرجلين. على أن الجمهور يعدون بالعشرات وعليها وضعت الأرقام.

الأرقام :

أما وضع العلامات للدلالة على الاعداد فأنه طبيعي وقد تدرج إلى ما نسميـه بالأرقـام . وبديهي أن الانسـان لما أراد في أول الكتـابـة أن يـدون الاعداد عبر عن الـواحد بخط أو نقـطة أو عقدة أو فـرض في عود ، فـإذا

« جدول تفرع الأقلام الفرعية عن الأقلام الأصلية »

- الهيروغليفي المصري
  - الحرف الفينيقي
    - اليوناني القديم
      - الرُّوماني وبه تكتب معظم لغات أوربا وأمريكا
      - الغوطي وبه تكتب لغات جرمانيا
      - اليوناني الحديث وبه تكتب لغات بلاد اليونان
      - القبطي وبه تكتب اللغة القبطية
      - السلافي وبه تكتب لغات روسيا
      - الفريجياني (مهمل)
      - الليسياني (مهمل)
      - الاتروسكاني (مهمل)
      - الكارياني (مهمل)
    - الآرامي
      - الهندي على أنواعه
      - العبراني المربع وتكتب به اللغة العبرانية
      - السطر نجيلي
        - السرياني
        - الكوفي
      - النبطي ومنه العربي النسخي المشهور
      - التدمري (مهمل)
    - العبراني القديم ومنه السامري (وكلاهما مهمل)
    - القبرسي (مهمل)
    - القرطجني (مهمل)
- الحثي
  - الحميري
  - الحبشي وتكتب به لغة الحبش
- الأشوري
  - الأسفيني
- الصيني
  - الأقلام الصينية واليابانية

أراد الاثنين ضاعفهما كما يفعل بعض هنود أمريكا إلى اليوم ، وهكذا كانت تفعل الأمم التي تمدنت قديماً وربما ظل الانسان أجيالاً لا يعد بغير هذه العلامات ، ولو تجاوز العشرة أو المئة . ثم رأى في ذلك مشقة وتشويشاً لأنه إذا أراد التعبير عن المئة مثلاً رسم مئة خط ، أو نقطة أو عقد بالخيط مئة عقدة أو فرض في العود مئة فرضة . فدلته الحاجة إلى اختراع كفاه مؤونة هذه المشقة . فوضع علامة للخمسة وأخرى للعشرة ومثلها للخمسين والمئة والألف . فإذا أراد التعبير عن خمسة عشر مثلاً رسم العشرة والخمسة بجانبها ، أو الثلاثين رسم ثلاث عشرات أو ٣٥ رسم ثلاث عشرات وخمسة . على أن بعض الأمم خالفت البعض الآخر في ذلك فلم تضع علامة للخمسة ولا للخمسين بل دلوا على الأولى بخمسة آحاد وعلى الثانية بخمس عشرات ، كذلك فعلت الأمم التي تمدنت قديماً في مصر وفينيقية وتدمر كما يؤخذ من آثارهم الباقية .

وترى في الشكل الآتي صور الأرقام عند المصريين القدماء وبجانبها الأرقام الهيراتية المتخلفة عنها ، ثم الأرقام الفينيقية وتليها التدمرية ثم السريانية القديمة ، وقد تدرجت فيها تدريجاً .

فترى الأرقام الهيروغليفية أبسطها كلها لأنها قاصرة على مضاعفة الواحد والعشرة والمئة ، تليها الأرقام الفينيقية وفيها علامة خاصة بالعشرين ، ثم التدمرية وفيها علامة للخمسة وأخرى للعشرين . ثم السريانية القديمة وفيها علامة للأثنين وأخرى للخمسة ، ومثلها للعشرين فضلاً عن علامات للواحد والعشرة والمئة ، فالسريانية خطت الخطوة، الأولى نحو الأرقام الهندية باتخاذ علامة خصوصية للاثنين . ولا يدل ذلك على أن الهندية مشتقة منها أو مرتقية عنها إذ يتفق أن يقع ذلك على سبيل التوارد .

	الهيروغليفي	العميرائي	الفينيقي	التدمري	السرياني
١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٥	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٧	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٨	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٩	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٩	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٤٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٥٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٦٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٧٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٨٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٩٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]

وظل الانسان قروناً عديدة بعد أن تمدن وهو يحسب ويعد قبل اختراع الأرقام الخصوصية للآحاد أي ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ، المعبر عنها بالأرقام الهندية . وبعد استنباط الأحرف الهجائية استعاضوا عن تلك العلامات بأحرف مقتطعة من أوائل الألفاظ الدالة على تلك الأعداد . فاليونانيون القدماء دلوا على الواحد بهذه العلامة I وهي خط بسيط يشير إلى الوحدة من طبيعته . ودلوا على الخمسة بالباء II وهي مقتطعة من (πεντε) (خمسة) وعلى العشرة بالدلتا (Δ) وهي مقتطعة من (δεκα) عشرة وعلى المئة بهذا الحرف H وهو غير مقتطع من اسم المئة عندهم ، ولعل لاستخدامه سبباً آخر . ودلوا على الألف بأول حرف من لفظ الألف عندهم وهو X من χιλιοι (ألف) والمظنون أن اليونانيين استخدموا هذه الاعداد من أيام صولون ، ولكنهم ينسبونها إلى هيروديان

الغراماطيقي الذي وصفها في آخر القرن الثاني للميلاد[1] .

واقتدى الرومانيون باليونان في استخدام الأحرف بدل الأرقام على نحو ما تقدم وإن كانت لا ترد كلها إلى ألفاظ تدل على قيمتها . فالأرقام الرومانية هي (١) و V (٥) و X (١٠) و C (خمسين) و L (١٠٠) و D (٥٠٠) و M (١٠٠٠) وهي لا تزال شائعة عند أمم أوروبا إلى اليوم يستخدمونها في بعض الأحوال .

ويقال نحو ذلك في استخدام الابجدية في اللغات السامية بدلاً من الأرقام . وكان الأصل في استخدامها أن يدلوا بالحرف على موضعه من الابجدية باعتبار عدد ما قبله . فالأحرف العبرانية مثلاً ٢٢ حرفاً فكان الحرف الأخير (التاء) يقوم مقام ٢٢ ثم تفننوا بجعل الأحرف التسعة الأولى تنوب عن الأحاد التسعة والحرف العاشر وما بعده تدل على العقود ومن الحرف التاسع عشر إلى ٢٢ على المئات فكان أكبر عدد يعبرون عنه بها ٤٠٠ وهو التاء . وأما العرب فعندهم ستة أحرف زائدة ، فصارت الابجدية ٢٨ حرفاً آخرها قيمته العددية ألف وهاك الابجدية العربية ، وقيمة كل منها وهو ما يعبرون عنه بحساب الجمل على هذه الصورة :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠
ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت
٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠
		ث	خ	ذ	ض	ظ	غ			
		٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠			

(١) المائة في اليونانية من هيكاتون وتكتب ايكاتون مع نطق الالف كالهاء فصورة الرقم مقتطعة أيضاً من اسم المائة .

وترجع الارقام اليونانية إلى القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد .

الأرقام الهندية :

هي الأرقام الشائعة في العالم المتمدن الآن ويسميها الافرنج الأرقام العربية . والسبب في ذلك أن هذه الحروف استنبطها الهنود في زمن لا نعرفه ، والصفة المميزة لها « الصفر » وتخصيص كل عدد من الآحاد بعلامة خاصة إلى التسعة وتحويل هذه الآحاد إلى العشرات باضافة صفر إلى جانبها ، وإلى المئات باضافة صفرين ، وإلى الألوف بثلاثة أصفار إلى ما لا نهاي له . وهي مبنية على مبدأ اقتصادي لأنها قاصرة على عشر علامات يعبر بها عن أي مبلغ يمكن أن يتصوره العقل مما لا يتأتى بالأبجدية ولا بغيرها .

والظاهر أن العرب أخذوا هذه الأرقام عن الهنود في جملة ما أخذوه عنهم من العلوم الرياضية كالتنجيم والهيأة ونحوهما في أواسط القرن الثاني للهجرة . ويظن بعض المحققين أنها نقلت مع زيج حمله بعض أهل الهند إلى بغداد سنة ٧٧٣ م . وأول من شرحها من المسلمين أبو جعفر محمد الخوارزمي في القرن التاسع للميلاد ، ثم شاعت بين المسلمين في دواوينهم ومؤلفاتهم ، حتى إذا احتك بهم الافرنج في القرن الثاني عشر باسبانيا وأخذوا عنهم الحساب من كتاب ينسب إلى الخوارزمي المذكور فسموه باسمه ويظن « زينو » المستشرق الفرنسي الشهير أن لفظ Algorism الافرنجية منحوتة من الخوارزمي (والواو في خوارزم تكتب ولا تلفظ) وهي أثر لفضل العرب على الافرنج في الحساب وكذلك Zero الافرنجية فأنها منحوتة من « صفر » العربية . وشاعت الأرقام الهندية في أوروبا وسماها الافرنج أرقاماً عربية لأنهم أخذوها عن العرب .

وفي الشكل الثاني أمثلة من الأرقام الهندية القديمة وكيف تدرجت حتى الافرنجية منحوتة من الخوارزمي (والواو في خوارزم تكتب ولا تلفظ) وهي في كل حال تختلف عن الأرقام الشائعة اليوم عندنا وعند

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ٠

الارقام الناناغاتية

أرقام الاحافير الهندية

الارقام الدفناجرية

الارقام العربية الشرقية

الارقام الغوبارية والعربية المغربية

أرقام بوتيوس

الافرنج ولكن يظهر للمتأمل مع ذلك أنها من أصل واحد .

فالأرقام الناناغاتية كانت مستخدمة عند الهنود في القرن الثاني قبل الميلاد ، وتشبهها أرقام الأحافير الهندية ، وكلاهما قريب من الأرقام القديمة البسيطة . أما الأرقام الدفناجرية فأنها تمتاز عن السابقتين بوجود الصفر فضلاً عن اتمام تولد الأرقام التسعة الأخرى . وأقدم ما عثروا عليه من هذه الأرقام مكتوب في نحو القرن الثامن للميلاد . ويلي ذلك الأرقام العربية القديمة ويسمونها الشرقية ، وهي منقولة عن أصل مكتوب في القرن العاشر للميلاد في شيراز ، وتختلف عن أرقام هذه الأيام ، ولكنها كثيرة الشبه بها . وكانت تختلف عن الأرقام التي كان يستخدمها العرب في الأندلس وغيرها من بلاد المغرب ، كما ترى في الأرقام الغوبارية. وهي التي كانت تستعمل في بلاد المغرب وأخذها الافرنج في القرن الثاني عشر ، والشبه بينها وبين الأرقام الافرنجية الشائعة اليوم ظاهر .

* * *

أما « بوتيوس » فهو من فلاسفة الرومانيين في القرن الخامس للميلاد وينسبون إليه الأرقام المرسومة في السطر الأخير . وكان الافرنج يستخدمونها في أوروبا حوالي القرن الخامس للميلاد ثم ضاعت قبل الفتح الاسلامي ، ولذلك زعم بعض الافرنج أن الأرقام الهندية (أو العربية) التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوروبا ليست مما نقله العرب إليهم ، وإنما هي عبارة

عن احياء أرقام بـوتيوس ـ قـالوا ولعـل المسلمين في المغـرب اقتبسوا هـذه الأرقام عن الافرنج ثم عاد الافرنج فأخذوها عنهم ـ على أن مـزاعمهـم في هـذا الشأن لا تـزال ضعيفة ولا يـزال جمهـور مؤرخيهم مجمعـين عـلى أن الأرقـام الشائعـة في أوروبا الآن منقـولـة عن العـرب وهؤلاء نقلوهـا عن الهنود .



جرجي زيدان

تاريخ اللغة العربيّة



دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان - بيروت ص. ب ١٤/٥٦٣٦

المقدمة

هذا كتاب صغير في بحث جديد ، تنبهنا له ونحن ننشر الطبعة الثانية من كتابنا « الفلسفة اللغوية » لأن موضوعه تابع لموضوعها أو هي خطوة ثانية في تاريخ اللغة باعتبار منشئها وتكونها ونموها . . فالفلسفة اللغوية تبحث في كيف نطق الانسان الأول ، وكيف نشأت اللغة وتولدت الألفاظ من حكاية الاصوات الخارجية ، كقصف الرعد ، وهبوب الريح ، والقطع ، والكسر ، وحكاية التف ، والنفخ ، والصفير ، ونحوها . . ومن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً ، كالتأوه ، والزفير . وكيف تنوعت تلك الاصوات لفظاً ومعنى بالنحت ، والابدال ، والقلب ، حتى صارت ألفاظاً مستقلة وتكونت الافعال ، والاسماء ، والحروف ، وصارت اللغة على نحو ما هي عليه .

وأما تاريخ اللغة ، فيتناول النظر في ألفاظها وتراكيبها ، بعد تمام تكونها ، فيبحث فيما طرأ عليهما من التغيير بالتجدد أو الدثور ، فيبين الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال . وما قام مقامها من الألفاظ الجديدة ، والتراكيب الجديدة ، بما تولد فيها ، أو اقتبسته من سواها ، مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم ، وتولد الجديد ، وأمثلة مما دثر ، أو أهمل ، أو تولد ، أو دخل . وهو بحث لغوي تاريخي

فلسفي قسمنا الكلام فيه إلى ثمانية فصول ، باعتبار الأدوار التي مرت على اللغة وهي :

١ ـ **العصر الجاهلي** : ويتناول تاريخ اللغة من أقدم أزمانها إلى ظهور الاسلام . . أوردنا فيه امثلة مما دخلها من الألفاظ الأعجمية من اللغات الحبشية ، والفارسية ، والسنسكريتية ، والهيروغليفية ، واليونانية وغيرها ، وأسندنا ذلك إلى أسباب تاريخية . وذكرنا القاعدة في تعيين أصول تلك الألفاظ ، وأمثلة مما تولد في اللغة نفسها من الألفاظ الجديدة ، وأيدنا ذلك بمقابلة العربية بأخواتها ، أو بالنظر إلى ألفاظها بحد ذاتها .

٢ ـ **العصر الاسلامي** : ونريد به ما حدث في اللغة بعد الاسلام من الألفاظ الاسلامية مما اقتضاه الشرع ، والفقه ، والعلوم اللغوية ، ونحوها .

٣ ـ **الألفاظ الإدارية في الدولة العربية** : وتشمل ما دخل اللغة العربية من الألفاظ الإدارية التي اقتضاها التمدن الاسلامي عند انشاء دولة العرب . . وهي إما دخيلة ، وإما مولدة . ويتخلل ذلك بحث في كيفية انتقال اللفظ من معنى إلى آخر .

٤ ـ **الألفاظ العلمية في الدولة العربية** : ويدخل فيها الألفاظ والتراكيب التي اقتضاها نقل العلم والفلسفة من اليونانية وغيرها إلى اللغة العربية في العصر العباسي .

٥ ـ **الألفاظ العامة في الدولة العربية** : وهي الألفاظ التي تولدت في اللغة ، أو دخلتها بغير طريق الشرع ، أو العلم ، كالألفاظ الاجتماعية ونحوها .

٦ ـ **الألفاظ النصرانية واليهودية** : وهي ما دخل اللغة العربية من

الألفاظ ، والتراكيب السريانية ، أو العبرانية ، بنقل الكتب النصرانية إلى العربية .

٧ ـ **الألفاظ الدخيلة في الدول الأعجمية** : وتتناول ما اكتسبته اللغة من الألفاظ الأعجمية بعد زوال الدولة العربية ، وتولي الدول التركية ، والكردية ، وغيرها .

٨ ـ **النهضة الحديثة** : وفيها ما اقتضاه التمدن الحديث من تولد الألفاظ الجديدة ، واقتباس الألفاظ الافرنجية للتعبير عما حدث من المعاني الجديدة في العلم ، والصناعة ، والتجارة ، والإدارة ، وغيرها .

وصدرنا الكتاب بتمهيد في نواميس الحياة وخضوع اللغة لها ، وختمناه بفصل في لغة الدواوين ، وخلاصة في مجمل ما تقدم .

على أننا نعد ما كتبناه في هذا الموضوع الجدير خواطر سانحة ، فتحنا بها باب البحث لأئمة الانشاء ، وعلماء اللغة . . . فنتقدم إليهم أن يوفوا الموضوع حقه ، أو يزيدونا منه لأنه يحتاج إلى بحث كثير ، ودرس طويل . وقد أصبحت اللغة بعد هذه النهضة في العلم ، والأدب ، والشعر ، في غاية الافتقار إليه . . ليعلم حملة الأقلام أن اللغة كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء ، تتجدد ألفاظها ، وتراكيبها على الدوام . . فلا يتهيبون من استخدام لفظ جديد لم يستخدمه العرب له . وقد يكون تهيبهم مانعاً من استثمار قرائحهم ، وربما ترتب على اطلاق سراح أقلامهم فوائد عظمى تعود على آداب اللغة العربية بالخير الجزيل . ولا بد من اعتبار القواعد العامة ، والروابط الأساسية ، مما أشرنا إليه في محله . . ناهيك بما ينجم عن معرفة أصل الكلمة وتاريخها من تفهم معناها الحقيقي .

جرجي زيدان

تمهيد

نواميس الحياة

من أهم نواميس الحياة : **النمو ، أو التجدد** وهو ينطوي على دثور الأنسجة وتولد ما يحل محلها . . ومعنى ذلك أن الجسم الحي مؤلف من خلايا لكل منها حياة مستقلة ، إذا انقضت ماتت الخلية وانحلت أجزاؤها وانصرفت، وتولدت في مكانها خلية جديدة تتكون من العصارات الغذائية، كالدم ونحوه. . فالجسم الحي في انحلال وتولد دائمين، حتى قالوا: إن جسم الانسان يتجدد كله في بضع سنين، أي لا يبقى فيه شيء من المواد التي كان يتألف منها قبلاً، وبغير هذا التجدد لا يكون الجسم حياً. وإذا حدث في جسم الحيوان ما يمنع من تجدد الانسجة أسرع إليه الفناء. . . **فالتجدد ضروري للحياة**.

وحياة الأمة مثل حياة الفرد ، بل هي ظاهرة فيها أكثر من ظهورها فيه ، لأن الأمة إنما تحيا بدثور القديم ، وتولد الجديد . . فكأن أفراد الأمة خلايا يتألف منها بدن تلك الأمة ، وهو يتجدد في قرن كما يتجدد جسم الانسان في عقد من عقود تلك القرون .

وإذا تتبعنا نمو الأمة بتوالي الأجيال ، رأيناها تتفرع وتتشعب. . فتصير الأمة الواحدة أمماً يتفاوت البعد بينها بتفاوت الأزمان والأحوال وكل

أمة من هذه ، تتشعب بتوالي « الدهور » إلى أمم أخرى ، وهكـذا إلى غير حد . . وهو ما يعبرون عنه بناموس الارتقاء العام .

اللغة كائن حي

ويتبع الأحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قبيل ظواهر الحياة أو توابعها ، وخـاصة مـا يتعلق منها بـأعمال العقـل في الانسان ، كـاللغة والعادات ، والديـانات ، والشـرائع ، والعلوم ، والآداب ، ونحـوها . . فهذه تعد من ظواهر حيـاة الأمة ، وهي خـاضعة لنـاموس النمـو والتجدد ولناموس الارتقاء العام . ولكل من هذه الظواهر تـاريخ فلسفي طـويل ، نعبر عنه بتاريخ تمدن الأمة ، أو تاريخ آدابها ، أو علومها ، أو حكومتها ، أو أديانها ، أو نحو ذلك . وهي أبحاث شـائقة فيهـا فلسفة ونـظر . ومن هذا القبيل تاريخ اللغة وآدابها .

❊ ❊ ❊

والبحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول :

أولاً : النظر في نشأتها منذ تكونها مع مـا مر عليهـا من الأحوال قبـل زمن التـاريخ ، كتكـون الأفعال ، والأسـماء ، والحروف ، وتـولـد صيـغ الاشتقـاق وأساليب التعبـير ونحو ذلـك ، والبحث في هـذا كله من شـأن الفلسفة اللغوية ، وقد فصلناه في كتابنا « الفلسفة اللغوية » .

ثانياً : النظر فيما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجيـة بعد اختـلاط أصحابها بالأمم الأخرى ، فاكتسبت من لغاتهم ألفاظاً وتعبيرات جديدة ، كـما يقتبس أهلهـا من عـادات تلك الأمم ، وأخـلاقهم ، وآدابهم ، ومـا يـرافق ذلك من تنـوع معاني الألفـاظ بتنـوع الأحـوال مـع حـدوث صيـغ جديدة ، وألفاظ جديدة .

ثـالثاً : النـظر في تـاريـخ مـا حـوتـه اللغـة من العلوم ، والآداب ،

باختلاف العصور وهو « تاريخ آداب اللغة » . وهذا التقسيم تقريبي ، إذ لا تجد حداً فاصلاً بين هذه الأقسام .

وإذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من ظواهر الأمة ، كالآداب ، أو اللغة ، أو الشرائع ، أو غيرها ، باعتبار ما مر بها من الأحوال في أثناء نموها ، وارتقائها ، وتفرعها ، رأيتها تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به المرء إلا بعد انقضاء الزمن الطويل . ويتخلل ذلك السير البطيء وثبات قوية تأتي دفعة واحدة ، فتغير الشؤون تغييراً ظاهراً . . وهو ما يعبرون عنه بالنهضة ، وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الأفكار بالاختلاط بين الأمم على أثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف ، أو يكون سبب الاختلاط ظهور نبي ، أو مشرع ، أو فيلسوف كبير ، أو نبوغ قائد طموح يحمل الناس على الفتح والغزو ، أو أمثال ذلك من أسباب الاختلاط . . فتتحاك الأفكار ، وتتمازج الطباع ، فتتنوع العادات ، والأخلاق ، والأديان ، والآداب ، واللغة تابعة لكل ذلك . . بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير، فتحتفظ بها قروناً بعد زوال تلك العادات ، أو الآداب ، أو الشرائع ، وإذا تبدل شيء منها حفظت آثار تبدله . .

وسنقتصر في هذا البحث على تاريخ اللغة العربية في دورها الثاني ، وهو تاريخ ألفاظها وتراكيبها بعد تكونها .

أدوار تاريخ اللغة

باعتبار ما طرأ من التغيير على الفاظها وتراكيبها بعد تكونها وارتقائها

إذا تدبرنا ما مر على اللغة العربية من المؤثرات الخارجية بعد تكونها وارتقائها حتى اكتسبت ما اكتسبته من الألفاظ وضروب التعبير ، رأيناها قد مرت في ثمانية أدوار ، أو عصور ، هي :

١ ـ العصر الجاهلي : وفيه ما لحق اللغة من التنوع والتغير في ألفاظها وتراكيبها قبل الاسلام .

٢ ـ العصر الاسلامي : أي أثر الاسلام في ألفاظ اللغة وتراكيبها .

٣ ـ الألفاظ الإدارية في الدولة العربية .

٤ ـ الألفاظ العلمية في الدولة العربية .

٥ ـ الألفاظ الاجتماعية ونحوها .

٦ ـ الألفاظ النصرانية .

٧ ـ الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم .

٨ ـ النهضة الحديثة .

العصر الجاهلي

ويراد به الزمن الذي مر على اللغة العربية قبل الاسلام ، ولا يمكن تعيين أوله لضياع ذلك في ثنيات الدهور التي مرت قبل زمن التاريخ . . ولكننا نعتقد أن اللغة العربية نشأت ونمت ، أي تميزت فيها الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، وتكونت فيها معظم الاشتقاقات ، والمزيدات ، وهي لا تزال في حجر أمها ، أي قبل انفصالها عن أخواتها الكلدانية ، والعبرانية ، والفينيقية ، وغيرها من اللغات السامية . وبعبارة أخرى أن أم هذه اللغات ، ويسمونها اللغة السامية أو الآرامية تم نموها ، فتكونت أفعالها ، وأسماؤها ، وحروفها ، واشتقاقاتها ، ومزيداتها قبل أن تشتت أهلها ، أو نزحوا إلى فينيقية ، وجزيرة العرب ، وما بين النهرين ، حيث اختلفت لغة كل قوم منهم بعد ذلك النزوح ، باختلاف أحوالهم . . فتولدت منها اللغات السامية المعروفة . فالساميون الذين نزلوا جزيرة العرب، تنوعت لغتهم تنوعاً يناسب ما يحيط بهم من الأحوال، أو يجاورهم من الأمم . . فتميزت عن أخواتها بأمور خاصة ، هي خصائص اللغة العربية . وتشعبت هذه اللغة في أثناء ذلك إلى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الاصقاع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة . وتفرعت لغة كل من تلك البقاع إلى فروع ، باعتبار القبائل والبطون مما لا يمكن حصره . . كل ذلك حدث قبل زمن التاريخ .

ويكفينا في هذا المقام البحث في لغة الحجاز وحدها ، وهي اللغة العربية التي وصلت إلينا ، لقد كانت قبل تدوينها ـ أي قبل الاسلام ـ لغات عديدة تعرف بلغات القبائل ، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب ، كلغات تميم ، وربيعة ، ومضر ، وقيس ، وهذيل ، وقضاعة ، وغيرها ، كما هو مشهور . وأقرب هذه اللغات شبهاً باللغة السامية الأصلية أبعدها عن الاختلاط ، وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام ، وخاصة أهل مكة ، وبالأخص قريش ، فقد كانوا أهل تجارة وسفر شمالاً إلى الشام ، والعراق ، ومصر ، وجنوباً إلى بلاد اليمن ، وشرقاً إلى خليج فارس وما وراءه ، وغرباً إلى بلاد الحبشة .

فضلاً عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة ، وفيهم الهنود ، والفرس ، والأنباط ، واليمنية ، والأحباش ، والمصريون ، عدا الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى ، فدعا ذلك كله إلى ارتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الاشتقاقات ، والتراكيب ، ما لا مثيل له في اللغات الأخرى .

وزاد ذلك الاقتباس خاصة على أثر النهضة التي حدثت في القرنين الأول ، والثاني ، قبل الاسلام ، بنزول الحبشة ، والفرس في اليمن ، والحجاز ، على أثر استبداد ذي نواس ملك اليمن . . وكان يهودياً فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد ، وخاصة أهل نجران ، فطلب إليهم اعتناق اليهودية . . فلما أبوا قتلهم حرقاً وذبحاً ، فاستنجد بعضهم بالحبشة . . فحمل الأحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً ، وأذلوا ملوكها أعواماً . ثم أنف أحد ملوكها ذي يزن ، فاستنجد بالفرس على عهد كسرى أنو شروان ، فأنجده طمعاً في الفتح . . فأخرج الأحباش من اليمن بعد أن ملكوها ٧٢ عاماً ، وكانوا في أثناء ذلك يترددون إلى الحجاز ، وحاولوا فتحه في أواسط القرن

السادس ، فجاءوا مكة بأفيالهم ، ورجالهم ولم يفلحوا . وأهتم أهل الحجاز بقدوم الحبشة إلى مكة حتى أرخوا منه وهو عام الفِيل . ولما فتح الفرس اليمن ، أقاموا فيها واختلطوا بأهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا ، وكانوا يقدمون إلى الحجاز ، وأهل الحجاز يترددون إليهم .

الألفاظ الاعجمية

فكان لهذه النهضة تأثير كبير في اللغة العربية ، فتكاثرت ألفاظها ومشتقاتها ، فلما جمعوا اللغة بلغت صيغ أبنية الأسماء فقط بضع مئات ، ثم صارت بعد ذلك ببضعة قرون ألفاً ومائتين وعشرة أمثلة . . ناهيك بما دخلها من الألفاظ الغريبة وما اقتبسته من التراكيب الاجنبية ، ولكن أكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز أصله . . على أننا نستدل على تكاثر الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو اخواتها من أمثال تلك الألفاظ . فإذا رأينا لفظاً في العربية لم نر له شبيهاً في العبرانية ، أو الكلدانية ، أو الحبشية ، ترجع عندنا أنه دخيل فيها . وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير ، أو الأدوات ، أو المصنوعات ، أو المعادن ، أو نحوها ، مما يحمل إلى بلاد العرب من بلاد الفرس ، أو الروم ، أو الهند ، أو غيرها . . ولم يكن للعرب معرفة به من قبل ، أو في أسماء بعض المصطلحات الدينية ، أو الأدبية ، وأكثر ذلك منقول عن العبرانية ، أو الحبشية ، لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب .

ويقال بالاجمال أن العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها ، ولذلك رأينا أئمة اللغة إذا أشكل عليهم أصل بعض الألفاظ الأعجمية عدوها فارسية .

ومن أمثلة ما ذكره صاحب **المزهر من الألفاظ الفارسية** « الكوز ،

الجرة ، الإبريق ، الطشت ، الخوان ، الطبق ، القصعة ، السكرجة ، السمور ، السنجاب ، الفاقم ، الفنك ، الدلق ، الخز ، الديباج ، التاختج ، السندس ، الياقوت ، الفيروزج ، البللور ، الكعك ، الدرمك ، الجردق ، السميد ، السكباج ، الزبرباج ، الاسفيذاج ، الطياهج ، الفالوذج ، اللوزينج ، الجوزينج ، البغرينج ، الجلاب ، السكنجين ، الخلنجين ، الدارصيني ، الفلفل ، الكراويا ، الزنجيل ، الخولنجان ، القرفة ، النرجس ، البنفسج ، النسرين ، الخيري ، السوسن ، المزنجوش ، الياسمين ، الجلنار ، المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل ». وعندنا أن بعض هذه الألفاظ غير فارسي كما سترى .

ومما اقتبسوه من **اليونانية واللاتينية** : الفردوس ، والقسطاس ، والبطاقة ، والقرسطون ، والقبان ، والاصطرلاب ، والقسطل ، والقنطار ، والبطريق ، والترياق ، والقطرة ، وغيرها كثير .

وأما ما نقلوه عن الحبشية، فأكثره لا يدل على أصله لتغير شكله ، ولأن الحبشية والعربية أختان تتشابه الألفاظ فيهما . والمشهور عند علماء العربية من الألفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة : كفلين ، والمشكاة ، والهرج . . ولكننا لا نشك في أنهم اقتبسوا كثيراً غيرها ، وخاصة ما يتعلق منها بالاصطلاحات الدينية .

من ذلك قولهم « المنبر » وهو عند العرب « مكان مرتفع في الجامع أو الكنيسة يقف فيه الخطيب أو الواعظ » وقد شقه صاحب القاموس من « نبر » أي ارتفع وفي ذلك الاشتقاق تكلف . وعندنا أنه معرب « ومنبر » في الحبشة أي كرسي أو مجلس أو عرش .

ومن هذا القبيل لفظ « النفاق » وهو عند العرب « ستر الكفر في القلب واظهار الإيمان » وقد شقوه من « نفق » راج أو رغب فيه ، وليس

بين المعنيين تناسب ، فاضطروا لتعليله إلى استعارة خروج اليربوع من نافقائه فقالوا : « ومنه اشتقاق المنافق في الدين » وهو تكلف نحن في غنى عنه إذا عرفنا أن « نفاق » في الحبشة معناها الهرتقة ، أو البدعة ، أو الضلال في الدين . وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشة بدخول النصرانية فيها .

وكذلك لفظ « الحواري » شقه صاحب القاموس من « حار » بمعنى البياض ، وقال في معنى الحواري أنه سمي بذلك لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم ، أو لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض ، والأظهر أن هذه اللفظة معرب « حواري » في الحبشة ، ومعناها فيها « الرسول » وهو المعنى المراد بها في العربية تماماً .

وكذلك « برهان » وقد شقها صاحب القاموس من « برهن » وشقها غيره من « بره » بمعنى القطع وأن النون زائدة فيها ، وهي في الحبشة « برهان » أي النور ، أو الايضاح ، مشتقة من « بره » عندهم أي اتضح أو أنار .

وقس على ذلك كثيراً من أمثاله ، كالمصحف ، فإنه حبشي من « صحف » أي كتب ، والمصحف الكتاب . ناهيك بأسماء الحيوانات ، أو النباتات ، أو نحوها . فإن « عنبسة » من أسماء الأسد عند العرب ، وهي اسم الأسد بالحبشة .

وقد أخذوا عن العبرانية كثيراً من الألفاظ الدينية : كالحج ، والكاهن ، والعاشوراء ، وغيرها وأكثرها نقل إلى الصيغ العربية لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين لأنهما شقيقتان ، ويضيق هذا المقام عن ايراد الأمثلة ولا ريب أن العرب اقتبسوا كثيراً من الألفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود في اثناء السفر للتجارة ، أو الحج ، لأن جزيرة

العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب . . فكل تجارات الهند المحمولة إلى مصر ، أو الشام ، أو المغرب ، كانت تمر ببلاد العرب ، ويكون للعرب في حملها أو ترويجها شأن . وقد عثرنا في السنسكريتية على ألفاظ تشبه ألفاظاً عربية ، تغلب أن تكون سنسكريتية الأصل لخلو اخوات العربية من أمثالها كقولهم « صبح » و « بهاء » فإنهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تماماً ، ويدلان على الاشراق أو الاضاءة . ولا يعقل أنهما مأخوذان عن العربية لأن السنسكريتية دونت قبل العربية بزمن مديد . ونظن لفظ « سفينة » سنسكريتي الأصل أيضاً ، وكذلك « ضياء » . . ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من أمثال ذلك .

على أننا نرجح أن العرب أخذوا عن الهنود كثيراً من **المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها ، وأسماء الحجارة الكريمة ، والعقاقير والطيب مما يحمل من بلاد الهند** . . والعرب يعدونها عربية ، أو يلحقونها بالألفاظ الفارسية تساهلاً : كالمسك مثلاً ، فقد رأيت صاحب المزهر يعده فارسياً ، وهكذا يقول صاحب القاموس . وهو في الحقيقة سنسكريتي ، ولفظه فيها « مشكا » وذكروا « الكافور » بين الألفاظ الفارسية وهو هندي على لغة أهل ملقا ولفظه عندهم « كابور » . وقد ذكروا أيضاً أن القرنفل فارسي ، والغالب عندنا أنه سنسكريتي لأن أصله من الهند وقس عليه .

القاعدة في تعيين أصول الألفاظ الأعجمية

وتعيين أصل اللفظ لالحاقه باللغة المأخوذة منها يحتاج إلى نظر لا يكفي فيه المشابهة اللفظية ، إذ كثيراً ما تتفق كلمتان من لغتين في لفظ واحد ومعنى واحد ولا تكون بينهما علاقة ، وإنما يقع ذلك على سبيل النوادر بالاتفاق . . إلا إذا دلت القرائن على انتقال احداهما من لغة إلى

أخرى وساعد الاشتقاق على ذلك .

فإذا اتفق لفظان متقاربان لفظاً ومعنى في لغتين ، وكان بين أهل تينك اللغتين علاقات متبادلة من تجارة ، أو صناعة ، أو سياسة ، جاز لنا الظن أن احداهما اقتبست من الأخرى . . فإذا كان ذلك اللفظ من أسماء المحاصيل ، أو المصنوعات ، أو الأدوات ، فيرجح الحاقه باللغة السابقة إلى ذلك ، كلفظ « المسك » مثلاً فإنه موجود في العربية وفي الفارسية وفي السنسكريتية وفروعها . . فإذا عرفنا أن المسك يحمل إلى العالم من تونكين ، وتيبت ، ونيبال ، والصين ، وأن الهنود القدماء كانوا يحملون الطيب إلى الأمم القديمة ويمرون بسفنهم ببلاد العرب ، ترجح عندنا أن العرب أخذوا هذه اللفظة عن الهنود ، كما أخذها الفرس منهم ، أو لعلها انتقلت إلى الفارسية من العربية . . لأن الفرس يعدونها عربية ، كما يعدها العرب فارسية . . أو هي في الفارسية باعتبار أنها فرع من السنسكريتية كما هي في الانجليزية بطريق التفرع ، وكما هي في اللاتينية لأنها أخت السنسكريتية ، ومن اللاتينية انتقلت إلى الفرنسية لأنها فرع من اللاتينية .

ويقال نحو ذلك في « كافور » فإن العرب يعدونها فارسية ، والفرس يقولون أنها عربية . . وهي موجودة أيضاً في السنسكريتية ، واللاتينية ، وفروعهما . . فبأيها نلحقها ؟

في مثل هذه الحال ، يجب البحث في مصدر الكافور . . فإذا علمنا أنه يصدر من اليابان والصين ومن ملقا ، وأن اسمه باللغة الملقية « كابور » ترجح عندنا أنه ملقي الأصل . وكذلك « الزنجبيل » ـ الجذور المعروفة ـ فإن العرب يقولون أنها تعريب « شنكبيل » في الفارسية ، والفرس يقولون أنها عربية . . ولم نجد « شنكبيل » في القاموس الفارسي . وإذا بحثنا عن اسم هذا العقار في اللغات الأخرى ، رأينا اسمه في اليونانية « زنجباريس » وفي اللاتينية « زنجبار » فأول ما يتبادر إلى

الـذهن أنه من « زنجبـار » البلد المعروف ، وإنـه سمي بذلـك لأنـه كـان يحمـل منه أو لسبب آخـر . . فإذا رجعنـا إلى منبت هـذا العقـار ، رأينـاه هنـديا . . ورأينـا اسمه في اللغـة السنسكريتيـة « زرنجابيـرا » مشتقـة من « كرينجا » أو « زرنجا » أي القرن ، لمشابهة جذوره به . . فيترجح عنـدنا أنه سنسكريتي الأصل .

ومن هذا القبيل « الفلفل » فإن العرب يقولون أنه فارسي ، والفرس يقولون أنه عربي . . وهـو موجـود أيضاً بمثـل هذا اللفظ في الانجليـزية ، والالمانية ، واللاتينية ، ويوجد أيضاً في السنسكريتية ، ويلفظ فيها « بالا » أو « فيفالا » ولما كان الفلفل من محاصيل الهند ، وأجوده يرد من مالابـار ، نرجح أن هذه اللفظة سنسكريتية الأصـل . ومعنى « ببالا » عنـدهم أيضاً « التينة المقدسة » .

ويقـال عكس ذلك في الألفـاظ الدالـة على محـاصيل بـلاد العـرب أو حيواناتهـا ، كالقهـوة مثلاً . . فـإنها موجـودة في الفارسيـة وفي كل لغـات أوروبا ، فالأرجح أنها عربية الأصل لأن هذه اللفظة كـانت عند العـرب قبل اصطناع القهوة اسماً من أسماء الخمـر . . فأطلقـوها عـلى قهوة البن . ومثـل ذلك أسـماء الجمـل ، والـزرافـة ، والغـزال ، وغيـرهـا من اسـماء الحيوانات العـربية . . وربمـا كان بعضهـا مأخـوذاً في الأصل من لغـة غير عربية .

وإذا كانت اللفظة المشتركة بين لغتين من قبيل المصنوعات ، فالحـاقها بأصحاب تلك الصناعة من الأمتين أولى . . فقد اختلط العـرب بالفـرس وخاصة بعد الاسلام ، وأخذوا ، منهم كثيراً من المـلابس والأنسجة ، ولم ينقلوها إلى لسانهم . . بل عـربوهـا وأبقوهـا على مـا هي ، كالسـراويل ، والقبـاء (ومنها الجبـة) والتبان ، والجـورب ، والـديبـاج ، والارجـوان ، والسرموج ، والقفـطان ، والطربـوش ، والبابـوج . . كما فعـل أهل هـذا

العصر بأسماء الملابس الافرنجية التي اقتبسوها من الافرنج في تمدنهم الأخير ، كالبنطلون ، والجاكت ، واللستيك ، وغيرها . .

واقتبس العرب من الفرس كثيراً من ألوان الأطعمة ، وأنواع الأسلحة والفرش والأدوات ، وأبقوها على لفظها الأعجمي . . . وهي كثيرة ، يضيق هذا المقام عن ذكرها ، ومنها الجلاب ، والجلنار ، والبنفسج ، والخشاف ، والخوذة ، والدسكرة ، والدولاب ، والدهقان ، والسرجين ، والسرداب ، والطنبور ، والفرسح وغيرها كثير . . فالحاقها بلغاتها الأصلية ، يسوغه أولاً التاريخ لأنه يدلنا على أن العرب اقتبسوا تلك المواد من الفرس ، فإذا تأيد ذلك بالاشتقاق اللغوي ، كان الدليل اثبت . . مثل « جلاب » فإنها مؤلفة في الأصل الفارسي من « كل آب » أي ماء الزهر . و« خشاف » من « خوش أب » و « سرداب » من « سرد أب » أو « سردابه » بيت الثلج من « سرد » أي بارد و « أب » ماء . والطربوش من « سربوش » أي غطاء الرأس . والبابوج من « بابوش » أي غطاء القدم .

وكثيراً ما يكفي الاشتقاق اللغوي وحده في معرفة أصل اللفظة ، بشرط ملاحظة مقابلة اللغات . فإذا وجدنا لفظة في العربية ومثلها في الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية مثلاً ، ولم يساعدنا التاريخ على معرفة حقيقة أصلها ، عمدنا إلى اشتقاقها وصيغتها ، فإذا لم يكن لها مجانس في أخوات العربية وكان لها ذلك في أخوات الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية ، نرجح أنها من احدى هذه اللغات مثل « البلاط » بمعنى « قصر الملك » فقد عدها العرب عربية ، وشقوها من البلاط المعروف لأن القصور تفرش به . ولكن هذه اللفظة في اللاتينية Palatium ومعناها قصر الملك . فإذا ادعى مدع أنها عربية الأصل ، وأن الرومان اقتبسوها من العرب ، قلنا أن الرومان يرجعون بأصلها إلى تل كان في رومية بهذا الاسم ، نزل عليه

أوغسطس قيصر وأقام فيه ، فسمى قصره به . . وإذا اعجزنا الدليل التاريخي ، عمدنا إلى الاشتقاق . . فإن Pala في السنسكريتية معناها الحامي أو المدافع ، وكان الملوك القدماء إنما يبنون القصور للتحصن بها . . وقد لا يهدينا التاريخ مطلقاً كما في لفظ « جاموس » فإن التاريخ لا يساعدنا على معرفة أصلها ، هل هي عربية أم فارسية ، فإذا رجعنا إلى الاشتقاق لم نر لها اشتقاقاً في العربية ، أما في الفارسية فإنها مركبة من لفظين « كاو » ثور أو بقرة و« ميش » كبش ، ولكن الجاموس هندي الأصل . ومعنى « جاوميشا » في السنسكريتية « البقرة الكاذبة » .

عود

وبالجملة فقد دخل العربية ألفاظ كثيرة من معظم اللغات التي كانت شائعة في التاريخ القديم ، ممن خالط العرب كالمصريين القدماء ، والحثيين ، والفينيقيين، والكلدان ، والهنود ، والفرس . . حتى الزنوج والنوبة وغيرهم مما لم يعد تمييز أصله ممكناً لتقادم عهده واختلاف شكله .

ومن أمثلة ما أخذوه عن اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية لفظ « قبس » بمعنى الشعلة ، فهي في الهيروغليفية « خبس » ومعناها مصباح . وبعض تلك الاقتباسات أخذها العرب رأساً عن أصحابها ، والبعض الآخر حملت إليهم على يد الأمم الأخرى ، كما نقل لهم اليهود لفظ «نبي» من اللغة المصرية القديمة «الهيروغليفية» واصل معناه فيها «رئيس العائلة» أو «رب المنزل».

وكما نقل لهم الفرس « الشطرنج » عن اللغة الهندية السنسكريتية ، فحسبها العرب فارسية . . وقالوا أنها تعريب « شترنك » بالفارسية ، ومعناها ستة ألوان ـ ولعلهم يريدون « ششرنك » ـ والصواب أنها لعبة هندية قديمة ، كانت تسمى في اللغة السنسكريتية « شُتورنكا » أي الأجزاء الأربعة التي يتألف منها الجند عندهم . . وهي الأفراس ، والأفيال ،

والمركبات ، والمشاة . . فأخذها الفرس عنهم نحو القرن السادس للميلاد ، ثم أخذها العرب عن الفرس فحسبوها فارسية ، وتكلفوا في تحليلها كما رأيت .

ولم يقتصر العرب على اقتباس الألفاظ من اللغات الأخرى واستبقائها على حالها ، ولكنهم صرفوها وشقوا منها الأفعال ، ونوعوا معناها على ما اقتضته أحوالهم . . فقد شقوا من لفظ النبي : « نبأ » و « تنبأ » و « نابأ » .

وشقوا من قبس أفعالاً وأسماءً عديدة .

ومن هذا القبيل « اللجام » وهو من « لكام » في الفارسية ، فشقوا منه أولاً « الجم الدابة » ألبسها اللجام و « التجمت الدابة » مطاوع ألجم . وجمعوا لجام على لجم وألجمه ، ثم استخدموه مجازاً فقالوا : « لجمه الماء » أي بلغ فاه ، وقالوا « لفظ لجامه » أي انصرف من حاجته مجهوداً من الاعياء والعطش . . وقولهم « التقيّ ملجم » أرادوا به أنه مقيد اللسان والكف .

والمهر الخاتم في الفارسية ، استعاره العرب وبنوا منه فعلاً فقالوا : مهر الكتاب أي ختمة بالمهر .

ومن ذلك ما شقوه من لفظ « ديوان » وهي أعجمية فقالوا : « دوّن » أي كتب اسمه في الجندية .

وقِس على ذلك كثيراً من الألفاظ الدخيلة التي يعتقد العرب أنها عربية ، وقد شقوا منها الأفعال والأسماء مثل « سراب » وهي تعريب « سير آب » في الفارسية أي مملوء ماء . والزمهرير من « زم اريز » بالفارسية أي ضباب بارد. وجزاف من «كزاف» بالفارسية اي العبث من الكلام والضنك من «تنك» في الفارسية ضيق، وقد شقوا منها أفعالاً وأسماءاً ترجع إلى هذا المعنى.

ثم أن أكثر ما أدخله العرب إلى لغتهم من الألفاظ الاجنبية ، لم يكن لـه ما يقـوم مقامـه في لسانهم عـلى أن كثيراً منـه كانت لـه عنـدهم أسـماء مشهـورة . . لا يبعـد أن يكـون بعضهـا دخيـلاً أيضـاً ، فغلب استعمـال الدخيل الجديد وأهمل القديم . من ذلك أن العرب كانوا يسمـون الإبريق « تامورة » والطاجن « مقلى » والهـاوون « منحاز » أو « مهـراس » والميزاب « متقب » والسكـرجـة « الثقـوة » والمسـك « المشمـوم » والجـاسـوس « الناطس » والتوت « الفـرصاد » والاتـرج « المتك » والكـوسج « الاثط » والباذنجان « الانب » والرصاص « الصـرفان » والخيـار « القتد » . . فهـذه الأسماء وأمثالها ، أهملها العرب قبل الاسلام ، بعد أن استبدلوهـا بأسـماء دخيلة . . فعلوا ذلك عفواً بـلا تواطؤ أو قصـد ، وإنما هـو نامـوس النمو يقضي عليهم بذلك .

التغيير في الألفاظ

ذكرنا فيما تقدم أمثلة مما دخل اللغة العربيـة من الألفاظ الاجنبيـة قبل زمن التاريخ الـذي عبرنـا عنه بـالعصر الجـاهلي ... ونـذكر الآن مـا لحق ألفاظها الأصليـة من التنوع والتفـرع في ذلك العصـر . والأدلة عـلى ذلك كثيرة ، نكتفي منها بالواضح الصريح . . فنذكـر أولاً ما نستـدل عليه من مقابلة العربية بأخواتها العبرانية والسـريانيـة ، ثم ما تشهـد به حـال اللغة العربية نفسها .

مقابلة العربية باخواتها

من الحقـائق المقررة ، أن العـربية والعبـرانية والسـريانيـة ، كانت في قديم الزمان لغة واحدة ، كما كانت لغات عرب الشام ومصر ، والعراق ،

والحجاز ، في صدر الاسلام . فلما تفرق الشعب السامي ، أخذت لغة كل قبيلة تتنوع بالنمو والتجدد على مقتضيات أحوالها ، فتولدت منها لغات عديدة . . أشهرها اليوم العربية ، والعبرانية ، والسريانية . . كما تفرعت عربية قريش بعد الاسلام إلى لغات الشام ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، وغيرها . ولكن الفرق بين فروع اللغة السامية ، أبعد مما بين فروع اللغة العربية ، لتقيد هذه بالقرآن وكتب اللغة . فإذا راجعت الالفاظ السامية المشتركة في العربية وأخواتها ، رأيت مدلولاتها قد اختلفت في كل واحدة عما في الأخرى . والأدلة على ذلك لا تحصى ، إذ لا تخلو المعجمات من شاهد أو غير شاهد في كل صفحة من صفحاتها . . فنكتفي بالاشارة إلى بعضها على سبيل المثال . .

فلفظ « الشتاء » في العربية مثلاً هو أصل مادة « شتا » في القاموس ، وكل مشتقاتها ترجع في دلالتها إلى معنى الشتاء (الفصل المعروف)، فقالوا : شتا في المكان ، أقام فيه شتاء ، وشتا فلان دخل في الشتاء ، وأشتى القوم اشتاء أجدبوا في الشتاء . . الخ .

ولم يدلنا صاحب القاموس على أصل هذا المعنى في هذا اللفظ ، ولكنه أورد رأي المبرد في ذلك ، فقال إن الشتاء « جمع شتوة » وأن الشتوة « الغبراء التي تهب فيها الرياح والأرض يابسة فيهيج الغبار » وفي قوله تكلف . . على أننا إذا راجعنا هذه المادة في اللغات السامية ، رأينا الأصل في دلالتها « الشرب » أو « الري » أو « الصب » فهي كذلك في العبرانية والسريانية إلى اليوم . وقد شقوا منها الأفعال والأسماء لمعان كثيرة ترجع إلى الري ونحوه . . إلاّ فصل الشتاء فأنهم شقوا له كلمة من أصل آخر يقرب منه لفظاً ويؤخذ من مراجعات كثيرة أن المادة الاصلية (شتا) كانت تدل على الرطوبة أو الري في اللغة السامية ، فلما تفرقت القبائل كما تقدم ، تولدت منها المشتقات وتنوعت معانيها على مقتضى الأحوال ،

فتولد منها لفظ الشتاء للمعنى المعروف له في العربية ، وأهمل معنى الشرب أو الري منها . ومع ذلك فلو تدبرت مشتقات هذه اللفظة في أخوات العربية ، لرأيتها تختلف الواحدة عما في الأخرى .

وإذا بحثنا عن لفظ « شهر » في العربية بالمقابلة مع أخواتها رأينا الأصل فيه الدلالة على الاستدارة ، ثم سموا القمر به لأنه مستدير ، ثم أطلقه العرب على الشهر لأنهم كانوا يوقتون بالقمر . على أن دلالته على القمر لا تزال باقية في العربية إلى اليوم ، وكذلك في السريانية (سهرا) تدل عندهم على الشهر والقمر . وأما العبرانية فإن للقمر فيها لفظاً مشتقاً من مادة أخرى هي (يرح) والأصل في معناها « الدوران » فاشتقوا منها « يارح » للدلالة على القمر وعلى الشهر . ومن هذه المادة في العربية « رواح » أي العشى . . « فكانوا يقولون : « راح فلان » أي جاء أو ذهب في العشي أي أن أصل المعنى راجع إلى « العشى » بغير تقييد بالذهاب أو المجيء مثل قولهم : أصبح وأمسى . . ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب في العشي ، ثم صارت للدلالة على مطلق الذهاب . . حدث كل ذلك التنوع بلا قصد ولا تواطؤ .

ومن بقايا « يرح » في العربية ، مادة أشكل على أئمة اللغة معرفة أصلها ، فعدها بعضهم فارسية ، وعدها آخرون يونانية ، واكتفى غيرهم بأنها غير عربية . وهي في الحقيقة سامية الأصل ، نعني بها لفظ « آراخ » أو « ورخ » أو « أرخ » بمعنى وقت ، والاظهر عندنا أنها من بقايا اسم الشهر عندهم « يرح » ـ والابدال بين الخاء والحاء هين ـ ومنه «التاريخ» تعريف الوقت ، ثم تنوع معنى هذه اللفظة ، فصاروا يدلون بها على علم التاريخ ، أي ذكر الوقائع والحوادث .

ومن هذا القبيل « كتب » فإن الأصل في دلالتها « حفر في الحجر ، أو الخشب » فالظاهر أنهم استعملوها في أول عهدهم بالكتابة ، وكانوا

يكتبون على الحجارة أو الخشب حفراً أو نحتاً ، شأن الكتابة عند الأمم القديمة . فلما صاروا يكتبون بالمداد على الرقوق أو الأقمشة ، تحول معناها إلى الكتابة المعروفة ، ولم يبق لدلالتها على الحفر أثر في العربية ، وإن كنا نرى أن أثر ذلك في « قطب » ونحوها من تفرعات « قط » حكاية صوت القطع . فيلوح لنا أن الأصل في دلالة كتب (أو قطب) على الحفر، أنهم كانوا يقولون مثلاً « قط بالخشب » أي قطع في الخشب أو حفرَ الخشب ، ثم الصقوا الباء بالفعل فصار « كتب » أو « قطب » كما الصق عامتنا الباء المذكورة بفعل المجيء ، فبدلاً من أن يقولوا « جاء به » قالوا « جابه » وصرفوه فقالوا « يجيبه ، وجابوه ، ويجيبوه » بدلا من « يجيء به ، وجاءوا به ، ويجيئون به . . »

ومثل « كتب » أيضاً « سطر » فأنها كانت تدل في الأصل على الحفر ، ثم تحول معناها للدلالة على الكتابة للسبب عينه . ولا تزال « سطر » تدل على الحفر أيضاً في العبرانية ، وأما في العربية فقد بقيت الدلالة على ذلك في لفظ مجانس لها هو « شطر » أو نحوها .

وكثيراً ما تحول المعنى في بعض الألفاظ بانتقاله من الكل إلى الجزء أو من الصفة إلى الموصوف مثل « اللحم » في العربية ، فإن معناها في اللغات السامية « الطعام » على اجماله ، ثم خصصه العرب بالدلالة على أهم الأطعمة عندهم وهو اللحم ، وصار في السريانية يدل على الخبز والأصل في « طبخ » الدلالة على « الذبح » واللفظان متشابهان ، فتحول معناها في العربية إلى معالجة اللحم للطعام ، واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها لفظاً .

و« الملح » أصل دلالته في اللغات السامية كلها من « ملح أو ملأ » أي نبع الماء . ثم تحول معناها إلى أكبر مستودعات الماء وهو « البحر » ونظراً لظهور الملوحة في مياه البحار أكثر من سائر صفاتها ، ولأن الملح

يستخرج منها سموا الملح بها . والظاهر أن هذه اللفظة كانت في أمهات اللغات السامية والآرية قبل تفرقها . . فإن اسم البحر في اليونانية يشبه أن يكون مبدلاً من « ملح » أو أن تكون ملح مبدلة منه ، وكذلك في اللغة السنسكريتية .

و «انبو» كانت تدل في اللغة السامية الأصلية على « الثمر » عموماً ، وما زالت تدل على ذلك في اللغة الاشورية ، والآرامية أما في العبرانية فقد أدغمت النون في الباء وعوض عنها بالتشديد فصارت (آبه) بتشديد الباء ، عملا بقاعدة جارية في نحو ذلك باللغة العبرانية . . ثم شقوا من هذه اللفظة فعلاً فقالوا (ابب) بمعنى أثمر . وأما في السريانية فقد أصاب هذه اللفظة نفس ما أصابها في العبرانية ، وصارت (ابا) وهي تدل عندهم على الفاكهة ، كالتين ، والبطيخ ، والزبيب ، واللوز ، والرمان . وأما في العربية ، فقد حدث نحو ذلك ، ولكن « الإب» صار عندهم للدلالة على الكلأ والمرعى أو ما أنبتت الأرض وقالوا : « الإب » للبهائم كالفاكهة للناس » .

* * *

وتحولت « انبو » أيضاً بالابدال إلى « عنبو » ومنها « عنب » للدلالة على نوع واحد من الأثمار هو ثمر الكرم ، وهذه دلالتها الآن في اللغات العربية ، والعبرانية ، والسريانية ، بعد أن كانت تدل في أقدم أزمانها على الثمر عموماً .

ويقال نحو ذلك في « عبد » فأنها في اللغات السامية تدل على العمل ، وخاصة الحرث في الحقل ، ولم يبق من مشتقات « عبد » في العربية ما يدل على معناها الأصلي إلا « المعبدة » أي « المجرفة » أو « المحراث » . وفيما خلا ذلك فإن عبد ومشتقاتها إنما تدل على العبادة ، ومنها « العبد » أي الرق و « التعبد » لأن خدمة الحقول كان أكثرهم من

لنا هذا الناموس بأجلى بيان . . إذ نرى للمادة الواحدة أو اللفظ الواحد عدة معان متفرعة من معنى واحد ، ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الأحوال . ولا نحتاج في اثبات ذلك إلى أيراد الشواهد لأنه بديهي ، وإنما يحسن بنا أن نشير إلى اسباب ذلك التنوع وهي كثيرة ، وقد ذكرنا بعضها فيما تقدم من الكلام في مقابلة الألفاظ العربية بألفاظ أخواتها ، كاشتقاق معنى الملح من البحر ، ومعنى الثلج من البياض ، وغير ذلك مما بينه تناسب في المعنى . وقد تكتسب الكلمة معنى جديداً من عادة أو عقيدة ، مثل قولهم : « بني على أهله أو بأهله » بمعنى تزوج . وليس في أصل فعل البناء هذا المعنى ، وإنما اكتسبه من عادة كانت جارية عند العرب ، وهي أن الداخل بأهله كان يضرب عليه قبة ليلة الزفاف . ومن هذا القبيل تحول معنى القمر إلى الشهر ، لأنهم كانوا يوقتون بالقمر .

ومن أسباب زيادة النمو في اللغة العربية غير النحت والابدال والقلب ، التصحيف وهو التبادل بين الحروف المتشابهة شكلاً كالباء ، والتاء ، والثاء ، والنون ، والياء ، أو الجيم ، والحاء ، والخاء ، أو الدال ، والذال ، أو الراء ، والزاي ، أو السين والشين ، وقس عليه . .

فمن أمثلة ما ورد بمعنى واحد وسببه التصحيف ، قولهم رجل صلب وصلت ، والدبر والدير ، والكرت والكرب ، ورغات ورغاب ، والجلجلة والحلحلة ، وجاض وحاص ، والنافجة والنافحة ، وهو كثير . . وقد ذكر منه علماء اللغة مئات . والغالب أن ذلك التصحيف لم يحدث إلا بعد تدوين اللغة ، لأنه خطأ بقراءة الخطوط .

ومما اختصت به لغة العرب من نتائج هذا النمو ، ورود الألفاظ الكثرة للمعنى الواحد . . فعندهم للسنة ٢٤ اسماً ، وللنور ٢١ اسماً ، وللظلام ٥٢ اسماً ، وللشمس ٢٩ اسماً ، وللسحاب ٥٠ اسماً ، وللمطر ٨٤ اسماً ، وللبئر ٨٨ اسماً ، وللماء ١٧٠ اسماً ، وللبن ١٢ اسماً ،

وللعسل نحو ذلك ، وللخمر ، مائة اسم ، ولـلاسد ٣٥٠ اسـماً ، وللحية مائة اسم ، ومثل ذلك للجمل ، أما الناقة فأسماؤ هـا ٢٥٥اسماً . . وقِس على ذلك اسماء : الثور ، والفـرس ، والحمار وغيـرها من الحيـوانات التي كانت مألـوفة عنـد العرب ، وأسـماء الاسلحة ، : كـالسيف ، والرمـح ، وغيـرهمـا . نـاهيـك بمتـرادف الصفـات ، فعنـدهم للطويـل ٩١ لفـظاً ، وللقصـير ١٦٠ لفظاً ، ونحـو ذلك للشجـاع ، والكريم ، والبخيـل ، ممـا يضيق المقام عن استيفائه .

ومن خصـائص اللغة العـربية اسـماء الاضداد ، فـإن فيها مئات من الألفاظ يدل كل منهما عـلى معنيين متضـادين : مثل قـولهم « قعد » للقيـام والجـلوس و « نـضـح » لـلعـطش والـري و « ذاب » لـلسـيـلولـة والجمود و « أفسد » للاسراع والابطاء و « أقوى » للافتقار أو الاستغناء .

ومن خصائصها أيضاً ، دلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة . . فمن ألفاظها نيف ومائتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معان . . ونيف ومائة لفظ يدل الواحد منها على أربعة ، وكـذلك التي تـدل على خمسـة معان . وقس على ذلك ما يدل على ستة معان ، فسبعة فثمانية فتسعة إلى خمسة وعشرين معنى ، كـالحميم ، والفن ، والطيس ، وممـا تزيـد مدلـولالتـه عـلى ذلـك « الخـال » فـأنها تـدل عـلى ٢٧ معنى ، وللفظ « العــين » ٣٥ معنى وللفظ « العجوز » ٦٠ معنى .

فتكاثر المترادفات والاضداد ودلالة اللفظ الواحد عـلى معان كثيـرة لا يحدث إلا من تفرع ألفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيـل . وبالطبـع لم يتكون للشيء الـواحد مئـة اسم أو مائتـان بتوالي الأجيـال . . وأحدث تلك الألفاظ أكثرها استعمالاً ، وأقدمها أقربها إلى الاهمال .

والاعلال ، والحقيقة ، والمجاز ، والنقض ، والمنع ، والقلب ، والرفع ، والنصب ، والخفض ، والمديد ، والطويل ، وغيرها من اسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف ، وهي كثيرة جداً ولها فروع واشتقاقات . . حتى لقد أصبح للفظ الواحد معنى فقهي ، وآخر لغوي ، وآخر عروضي ، وآخر ديني ، مما لا يمكن حصره . وسنذكر أمثلة أخرى عند الكلام على اصطلاحات المنطق وعلم الكلام .

وأحدث الاسلام تغييراً كبيراً في أساليب التعبير ، كقولهم : « أطال الله بقاءك » فإن أول من قالها عمر بن الخطاب لعلي بي أبي طالب .

٣ ـ الألفاظ المهملة

وكما أحدث الاسلام ألفاظاً جديدة للتعبير عن معان جديدة ، اقتضاها الشرع الجديد والعلم الجديد . . فقد محا من اللغة ألفاظاً قديمة ، ذهبت بذهاب بعض اعتقادات الجاهلية وعاداتهم . . منها قولهم : « المرباع » وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية . و « النشيطة » وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم ، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصدوه . و « المكس » وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية . وكذلك : الاتاوة ، والحلوان . ومما أبطل قولهم : « أنعم صباحاً وأنعم ظلاماً » وقولهم للملك : « أبيت اللعن » وقول المملوك لمالكه : « ربي » . وتسمية من لم يحج « صرورة » وغير ذلك . وقد نرى بعض هذه الألفاظ مستعملاً في اللغة الآن فهو ، إما مستعمل في غير معناه الأصلي . . وإما أنه قد أرجع إليه بعد اهماله . .

على أننا لا نشك في اهمال كثير من الألفاظ العربية في القرنين الأولين للهجرة ، ولا سبب لذلك غير ما يقتضيه النمو من التجدد والدثور . .

يكفي لتحقيق ذلك ، مراجعة المعجمات وتدبر ألفاظها ، فإنك ترى فيها مئات وألوفاً من الألفاظ التي بطل استعمالها ، ولا نظنهم جمعوها في صدر الاسلام ، إلاّ لأنهاكانت شائعة على ألسنة العرب .

وقد يعترض على ذلك أن تلك الألفاظ إنما أهملت في العصور الأخيرة فلا ننكر إهمال بعضها في هذه العصور ، ولكن جانباً كبيراً منها أهمل في العصور الأولى ، فضلاً عما قل استعماله قبل الاسلام . . حتى لقد كان أحدهم يسمع اعرابياً يتكلم ، فإذا ذكر ألفاظاً مهملة أغلق على السامع فهمها ولو كان لغوياً . .

* * *

يروى عن أبي زيد الانصاري أنه قال : « بينما أنا في المسجد الحرام ، إذ وقف علينا اعرابي ، فقال : يا مسلمون ـ بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ـ إني امرؤ من هذا الملطاط الشرقي ، المواصي أسياف تهامه ، عكفت علينا سنون محش ، فاجتبت الذري ، وهمشت العرى ، وجمشت النجم ، وأعجبت البهم ، وهمت الشحم ، والتحبت اللحم ، وأحجنت العظم ، وغادرت التراب موراً ، والماء غوراً ، والناس اوزاعاً ، والنبط قعاعاً ، والضهيل جراعاً ، والمقام جعجاعاً ، يصبحنا الهاوي ، ويطرقنا العاوي ، فخرجت لا أتلفع بوصيده ، ولا أتقوت بمهيده ، فالبخصات وقعه ، والركبات زلعه ، والأطراف فقعه ، والجسم مسلهم ، والنظر مدرهم ، اعشوا فاغطش ، وأضحى فاخفش ، اسهل ظالعاً ، واحزن راكعاً ، فهل من آمر بمير ، أو داع بخير ، وقاكم الله سطوة القادر ، وملكة الكاهر ، وسوء الموارد ، وفضوح المصادر . . قال أبو زيد فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه واستفسرت منه ما لم أعرفه » وأبو زيد الانصاري من فطاحل أئمة اللغة . وأمثال هذه كثيرة في أخبار العرب .

و « الحجابة » تدل في الأصل على الستر والمنع ، فالحاجب الساتر أو المانع ، فكان حاجب الخليفة من أصغر رجال الدولة . فلما ضعف الخلفاء واستبد الحجاب ، صار معنى الحاجب عندهم مثل معنى الوزير .

* * *

وقس على ذلك سائر مناصب الدولة ، كالامارة ، والشرطة ، والقضاء، والحسبة، والنقابة، والامامة ، وغيرها من اصطلاحات الجند كالمسترزقة ، والمتطوعة ، والعلوفة ، والعسكر . . وضروب الحرب وأبواب الهجوم ، كالزحف ، والكر ، والفر ، والبيات ، والكفاح ، والغرة . . . وصنوف الاسلحة : كالدبابة ، والكبش ، والعرادة ، وغيرها . ناهيك باصطلاحات الدواوين على اجمالها ، كقولهم الثغور ، والعواصم ، والاقليم ، والقصة ، والعمل ، والولاية ، والضياع ، والحكومة ، والسكة ، والتوقيع ، والوظيفة ، والخراج ، والجزية ، والعشور ، والمرافق ، والصوافي ، والجوالي ، والجباية ، والوقف ، والمصادرة ، والمستغلات ، والصدقة ، والمكوس ، والمراصد ، ودار الضرب ، والضمان والدفاتر ، والجرائد ، والخرائط ، والايغار ، والراتب ، والجاري ، والعطاء ، والبيعة ، والدعوة ، والختم ، والخطط ، والمطالعة ، والمؤامرة ، وغير ذلك كثير جداً .

فالألفاظ المذكورة عربية الأصل وأكثرها معروف قبل الاسلام ، ولكن مدلولاتها تغيرت بتغير أحوال المسلمين بعد انشاء دولتهم . . إذ حدث بانشائها معان جديدة اضطروا في التعبير عنها الى ألفاظ جديدة، فنوعوا ما عندهم . . إما عمداً أو عفواً فصارت إلى ما هي عليه .

« فالخراج » مثلا كان معناه في الجاهلية الكراء والغلة ، ويدل ذلك

على معنى ضرب الخراج في الاسلام ، فإنهم كانوا يعدون الأرض ملكاً لهم وقد سلموها لأهلها على سبيل الايجار بالكراء ، فصار معنى الخراج بعد ذلك « ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها » ثم صار الخراج مقاسمة ، أو مساحة أو سيحاً أو سقياً ، وأكثرها ألفاظ جديدة لمعانٍ جديدة . .

و « الحكومة » كانت تدل في الجاهلية على الفصل بين المتخاصمين لأنها مصدر حكم أي قضى ، وتلك كانت أعمال صاحب الحكومة في الجاهلية ، ثم تحول معناها إلى « ارباب السياسية أو رجال الدولة » .

و « السكة » في الأصل الحديدة المنقوشة التي كانوا يضربون عليها النقود ، ثم سميت النقود بها ، واشتقوا منها الأفعال والأسماء لهذا المعنى .

* * *

و « التوقيع » الأصل فيه « التأثير » من قولهم : « وقع الوبر ظهر البعير توقيعاً أثر فيه » ثم استعملوه في الاسلام لما يوقعه الكاتب على القصص المرفوعة إلى الخليفة ، أو السلطان ، أو الأمير ، فكان الكاتب يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه . . فإذا عرضت قصة (عرضحال) على السلطان ، أمر الكاتب أن يوقع عليها (يؤشر) بما يجب اجراؤه . ثم تحول معناها إلى اسم علامة السلطان كالامضاء عندنا . . وعلى نحو هذا النمط تحول معنى « الامضاء » اليوم إلى التوقيع ، ومعناه في الأصل« التنفيذ » فكان توقيع السلطان على القصة عبارة عن أمر رجال الدولة في امضائها ، أي تنفيذ توقيعه ثم تحول معناها إلى التوقيع أي وضع العلامة على الصكوك ونحوها .

ومن هذا القبيل « الوظيفة » فإن الأصل في معناها « ما يقدر من

عمل ، وطعام ، ورزق ، وغير ذلك » ومنها وظف عليه الخراج ونحوه ، أي قدره . . فاستعملها كتاب الدولة العربية لهذا المعنى مع بعض الانحراف ، فقالوا : « وظف الرجل توظيفاً عين له في كل يوم وظيفة » فالموظف هو الذي يأخذ الوظيفة ، أو الراتب . . ثم توسعوا في لفظ الوظيفة ، فدلوا بها على المنصب أو الخدمة المعينة . والمشهور أن استعمالها لهذا المعنى من اصطلاحات هذا العصر ، ولكنه أقدم من ذلك كثيراً . . فقد استعملها لهذا المعنى جماعة من فحول الكتبة ، كابن خلدون في مقدمته . والمقريزي في خططه ، وغيرهما . وتولد في اثناء تحول هذه اللفظة إلى هذا المعنى ألفاظ أخرى تقوم مقامها في معناها الأول ، كالراتب ، والجاري ، والماهية (وهذه فارسية الأصل من « ماه » شهر والماهية الشهرية) . . واستحدثوا لفظة أخرى للمنصب لم يكن لها هذا المعنى من قبل ، وهي « الخطة » فمعناها في القاموس « الأرض التي تنزلها ولم ينزل بها نازل قبلك » و « الخطة » بالضم « الخصلة وشبه القصة والأمر والجهل » فاستعملوها بمعنى المنصب لعلاقة لا نعلمها . . ومن ذلك قول ابن خلدون : « الوزارة أم الخطط الاسلامية والرتب الملوكية » .

٢ ـ انتقال اللفظ من معنى إلى آخر

وانتقال الألفاظ من معنى إلى آخر بلا علاقة ظاهرة بين المعنيين كثير في اللغة العربية ، ومنها الاضداد ، أي اللفظ ذو المعنيين المتضادين . وأسباب هذا الانتقال كثيرة يصعب تتبعها في كل ما نراه من الاختلاف في معاني اللفظ الواحد أو مشتقاته ، لكننا نذكر أربعة منها على سبيل المثال :

١ ـ دخول كلمة أعجمية لفظها يشبه لفظ كلمة عربية ، فيجعلونها من مشتقاتها . . كما فعلوا بالبلاط بمعنى القصر ، فإنهم أخذوها عن

اللاتينية ، فأشبهت لفظ البلاط الحجر المعروف فجعلوها من مشتقات « بلط » .

ومثل قولهم « تباشير » فقد شقها القاموس من « بشر » فقال : « التباشير البشرى . . . وتباشير الصبح أوائله ، وكذلك أوائل كل شيء ولا يكون منه فعل » واللفظ فارسية مركبة من تبا « مثل » وشير « لبن » أي أبيض كاللبن ، وكان الفرس يدلون لها على بياض الصبح عند أول شروق الشمس ، فاقتبسها العرب منهم ودلوا بها على أوائل كل شيء وعلى البشرى .

٢ - استعمال لفظين معاً ، ثم اهمال أحدهما بالاستعمال التماساً للاختصار ، فيبقى الآخر للدلالة على ذلك المعنى . . مثل قولهم « ارتفاع » بمعنى جباية فيقولون : « ارتفاع الدولة » ويريدون مقدار جبايتها أي مجموع دخلها . وليس في هذه اللفظة ما يلمح منه هذا المعنى ولا ذكره لها القاموس . وأصل هذا الدلالة أنهم كانوا يستعملون ارتفاع مع لفظ جباية ، فيقولون : « ارتفاع جباية الدولة » أي مقدار ما بلغت إليه جبايتها (من ارتفع السعر أي غلا) ثم اسقطوا « الجباية » للاختصار فظلت « ارتفاع » وحدها لنفس ذلك المعنى .

ومثل ذلك قولهم : « أشفى العليل » بمعنى « امتنع شفاؤه » (أي ضد معنى المادة الأصلي الشفاء) وسبب هذا التضاد أن « اشفى » من مشتقات « شفا » الواوية بمعنى الاشراف أو الاقتراب ، وليس من مشتقات « شفى اليائية كما أوردها القاموس . . فكانوا يقولون : « أشفى المريض على الموت » أي أشرف عليه ، ثم اختصروه فقالوا : « أشفى المريض » لنفس هذا المعنى ، والتبس على صاحب القاموس أصل مادتها ، فعدها من مشتقات شفى .

وكذلك قولهم : « عقد له » بمعنى « ولاه » وليس في مادة « عقد » ما

الرجل على المجهول ، زال عقله أو فسد أو دخلته الجن » . ونظراً لاختفاء الأرواح عن حواس البشر ، وخاصة عن انظارهم ، دلوا بتلك اللفظة على الظلمة ، والاختفاء أو الاستتار . . فقالوا جن الليل : أظلم ، وجنه الليل : ستره . . فتعلل بذلك تنوع معنى هذه اللفظة إلى المعاني الخمسة التي ذكرناها ، وكل ما لمشتقات هذه اللفظة من المعاني يرجع إلى أحدها .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نتتبع تاريخ هذه اللفظة في الافرنجية وما يقابلها في اللغات السامية . . فقد خسرت دلالتها على « الروح » في كل اللغات الآرية (إلا الفارسية والسنسكريتية) وصارت تدل على ما يقارب ذلك وهو التوليد من Gen ومشتقاتها ، ومنها Genus في اللاتينية ومشتقاتها بمعنى الصنف من الناس . . ويقابلها في العربية « جنس » ويقابل Gen في العربية « جيل » واللفظ والمعنى متقاربان .

ولم تخسر لفظة « جان » دلالتها على « الروح » إلا بعد أن تولد ما يقوم مقامها ، لأسباب ترجع إلى تغيير حدث في عادات الأمم أو اعتقاداتهم . وأهم ما حدث في اعتقادات البشر الانتقال من الشرك إلى التوحيد . . فلما اعتقد الساميون بالتوحيد ، أصبحت الأرواح السماوية عندهم أي الملائكة خدماً للاله العظيم . . ينفذها حيث شاء لتبليغ أوامره أو نواهيه ، فعبروا عن الروح بلفظ « الرسول » وهذا معنى « الملاك » في اللغات السامية فإنه اسم مفعول من « هلك » أرسل ، وأصل المادة « هلك » مشى أو سار . . ومنها قولهم في التوراة ملاك الرب : أي رسول الله . وقد فقدت هذه المادة في العربية، ولا يزال أثرها باقياً في «ألوكة» أي الرسالة .

وحدث نحو ذلك في اللغات الآرية فإن معنى الملاك عندهم يرجع إلى Angel وهي مأخوذة من (انجلوس) اليونانية ومعناها « الرسول » كأنهم ترجموا لفظ ملاك إلى لسانهم حرفياً .

٤ ـ اكتساب اللفظ معنى جديداً من عادة شائعة ، كما اكتسب لفظ « بنى » معنى الزواج من ضرب القباب على العروس ليلة الزفاف ، وجملة « عقد له » معنى « ولاه » وقد تقدم ذكرها .

وبالجملة ، فقد حدث في اثناء التغيير الإداري في الدولة الاسلامية ، نهضة عظيمة أحدثت تغييراً كبيراً في اللغة لفظاً ومعنى . . وليس ما ذكرناه إلا أمثلة قليلة .

١ ـ الألفاظ الادارية الأعجمية

أما الألفاظ التي اقتبسها العرب في أثناء انشاء دولتهم فكثيرة أيضاً ، نأتي بأمثلة منها :

من أقدم ما اقتبسوه من الألفاظ الإدارية الفارسية « الديوان » على عهد عمر بن الخطاب ، فأنه أول من دوّن الدواوين في الاسلام ، فوضع الديوان على نحو ما كان عند الفرس ، واستعار له اللفظ الفارسي . . فاستعمله أولاً للدلالة على ديوان الجند ، فكانوا إذا قالوا الديوان أرادوا ديوان الجند فقط ، ثم اطلقوه على سائر الدواوين ، وألحقوا به ألفاظاً تميز بينها : كديوان الانشاء ، وديوان العرض ، وديوان الضياع ، وديوان الخراج ، وهي كثيرة . ودلوا به على الكتاب الذي تدوّن فيه أسماء الجنود ، فكانوا إذا قالوا : فلان من أهل الديوان ، أرادوا أنه ممن أثبتت أسماؤهم في ذلك الكتاب . ثم أطلق على كل كتاب ، ثم انحصر في الدلالة على الكتب التي تجمع فيها الأشعار . . فإذا قالوا : ديوان فلان : أرادوا به مجموع أشعاره .

ولما كان أهل الديوان يجتمعون في مكان واحد ، سموا ذلك المكان ديواناً ، وأطلقوا لفظ الديوان على كل مجلس يجتمع فيه لاقامة المصالح أو

النظر فيها . . والعامة تعبر بالديوان عن المقعد .

وقِس على ذلك كثيراً من الألفاظ الفارسية المتعلقة باصطلاحات الحكومة ، وخاصة الجند والأسلحة ونحوها : كالخوذة ، والجامكية ، والجزية ، والدولاب ، والدلق ، ودهقان ، والدانق ، ورستاق ، وسباهي ، والبريد ، وزنديق ، وكسري ، ونيشان ، ويلمق ، والطراز ونحوها .

والألفاظ اليونانية الإدارية قليلة في اللغة العربية ، ومنها : الاسطول ، والمنجنيق ، والدرهم ، والبطاقة ، والقنداق ، والكردوس ، والليمان .

وإذا تدبرت تاريخ هذه الألفاظ في لغتها الأصلية أو بعد انتقالها إلى العربية ، رأيت مدلولاتها تنوعت بتنوع الأحوال ، فالدرهم مثلاً الأصل فيه الدلالة على الوزن ، ثم دلوا به على نقد وزنه درهم ، ثم أطلق على النقود كلها .

وأما الألفاظ اللاتينية فمنها : البلاط (بمعنى قصر الملك) والدينار والدمستق . وربما أدخلوا ألفاظاً تركية ، أو هندية ، أو كلدانية ، أو نبطية ، أو نحوها . . مما يضيق المقام عن استيفائه . .

الألفاظ العلمية

العصر العباسي

نريد بالألفاظ العلمية ما اقتضاه نقل كتب العلم، والفلسفة إلى اللغة العربية في العصر العباسي من الألفاظ الجديدة، لتأدية ما جَدّ من المعاني، مما لم يكن له مثيل في لسان العرب، كالمصطلحات الطبية، والكيماوية، والفلسفية، والطبيعية، والرياضية، والفلكية، والمنطقية، وما ألحق بذلك من مصطلحات علم الكلام، والتصوف، ونحوهما. وشأن أهل العصر العباسي في نقل تلك العلوم من اليونانية، والفارسية. والهندية، وغيرها، مثل شأننا في نقل علوم هذا العصر من الفرنسية، والانجليزية، والألمانية، وغيرها.. بل هم كانوا أحوج منا إلى اقتباس الألفاظ الأعجمية، وتنويع المعاني العربية لاستغنائنا عن كثير من ذلك، بما وصل إلينا مما اقتبسوه ونوعوه من تلك الألفاظ.

ولم تقتصر تلك النهضة العلمية على تنويع الألفاظ وتبديلها، ولكنها أحدثت تنويعاً في التعبير يسهل علينا تصوره لكثرته في نهضتنا هذه مما سنذكره في حينه.. فالتغيير الذي أصاب اللغة العربية بنقل كتب العلم، والفلسفة قسمان: أحدهما في المفردات، والآخر في التراكيب. والتغيير اللفظي أما بتنوع الألفاظ العربية، أو باقتباس ألفاظ أعجمية.

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان - بيروت ص.ب ١٤/٥٦٣٦

المقدمة

هذا كتاب صغير في بحث جديد ، تنبهنا له ونحن ننشر الطبعة الثانية من كتابنا « الفلسفة اللغوية » لأن موضوعه تابع لموضوعها أو هي خطوة ثانية في تاريخ اللغة باعتبار منشئها وتكونها ونموها . . فالفلسفة اللغوية تبحث في كيف نطق الانسان الأول ، وكيف نشأت اللغة وتولدت الألفاظ من حكاية الاصوات الخارجية ، كقصف الرعد ، وهبوب الريح ، والقطع ، والكسر ، وحكاية التف ، والنفخ ، والصفير ، ونحوها . . ومن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزياً ، كالتأوه ، والزفير . وكيف تنوعت تلك الاصوات لفظاً ومعنى بالنحت ، والابدال ، والقلب ، حتى صارت ألفاظاً مستقلة وتكونت الافعال ، والاسماء ، والحروف ، وصارت اللغة على نحو ما هي عليه .

وأما تاريخ اللغة ، فيتناول النظر في ألفاظها وتراكيبها ، بعد تمام تكونها ، فيبحث فيما طرأ عليهما من التغيير بالتجدد أو الدثور ، فيبين الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال . وما قام مقامها من الألفاظ الجديدة ، والتراكيب الجديدة ، بما تولد فيها ، أو اقتبسته من سواها ، مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم ، وتولد الجديد ، وأمثلة مما دثر ، أو أهمل ، أو تولد ، أو دخل . وهو بحث لغوي تاريخي

فلسفي قسمنا الكلام فيه إلى ثمانية فصول ، باعتبار الأدوار التي مرت على اللغة وهي :

١ ـ **العصر الجاهلي** : ويتناول تاريخ اللغة من أقدم أزمانها إلى ظهور الاسلام . . أوردنا فيه امثلة مما دخلها من الألفاظ الأعجمية من اللغات الحبشية ، والفارسية ، والسنسكريتية ، والهيروغليفية ، واليونانية وغيرها ، وأسندنا ذلك إلى أسباب تاريخية . وذكرنا القاعدة في تعيين أصول تلك الألفاظ ، وأمثلة مما تولد في اللغة نفسها من الألفاظ الجديدة ، وأيدنا ذلك بمقابلة العربية بأخواتها ، أو بالنظر إلى ألفاظها بحد ذاتها .

٢ ـ **العصر الاسلامي** : ونريد به ما حدث في اللغة بعد الاسلام من الألفاظ الاسلامية مما اقتضاه الشرع ، والفقه ، والعلوم اللغوية ، ونحوها .

٣ ـ **الألفاظ الإدارية في الدولة العربية** : وتشمل ما دخل اللغة العربية من الألفاظ الإدارية التي اقتضاها التمدن الاسلامي عند انشاء دولة العرب . . وهي إما دخيلة ، وإما مولدة . ويتخلل ذلك بحث في كيفية انتقال اللفظ من معنى إلى آخر .

٤ ـ **الألفاظ العلمية في الدولة العربية** : ويدخل فيها الألفاظ والتراكيب التي اقتضاها نقل العلم والفلسفة من اليونانية وغيرها إلى اللغة العربية في العصر العباسي .

٥ ـ **الألفاظ العامة في الدولة العربية** : وهي الألفاظ التي تولدت في اللغة ، أو دخلتها بغير طريق الشرع ، أو العلم ، كالألفاظ الاجتماعية ونحوها .

٦ ـ **الألفاظ النصرانية واليهودية** : وهي ما دخل اللغة العربية من

الألفاظ ، والتراكيب السريانية ، أو العبرانية ، بنقل الكتب النصرانية إلى العربية .

٧ ـ **الألفاظ الدخيلة في الدول الأعجمية** : وتتناول ما اكتسبته اللغة من الألفاظ الأعجمية بعد زوال الدولة العربية ، وتولي الدول التركية ، والكردية ، وغيرها .

٨ ـ **النهضة الحديثة** : وفيها ما اقتضاه التمدن الحديث من تولد الألفاظ الجديدة ، واقتباس الألفاظ الافرنجية للتعبير عما حدث من المعاني الجديدة في العلم ، والصناعة ، والتجارة ، والإدارة ، وغيرها .

وصدرنا الكتاب بتمهيد في نواميس الحياة وخضوع اللغة لها ، وختمناه بفصل في لغة الدواوين ، وخلاصة في مجمل ما تقدم .

على أننا نعد ما كتبناه في هذا الموضوع الجدير خواطر سانحة ، فتحنا بها باب البحث لأئمة الانشاء ، وعلماء اللغة . . . فنتقدم إليهم أن يوفوا الموضوع حقه ، أو يزيدونا منه لأنه يحتاج إلى بحث كثير ، ودرس طويل . وقد أصبحت اللغة بعد هذه النهضة في العلم ، والأدب ، والشعر ، في غاية الافتقار إليه . . ليعلم حملة الأقلام أن اللغة كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء ، تتجدد ألفاظها ، وتراكيبها على الدوام . . فلا يتهيبون من استخدام لفظ جديد لم يستخدمه العرب له . وقد يكون تهيبهم مانعاً من استثمار قرائحهم ، وربما ترتب على اطلاق سراح أقلامهم فوائد عظمى تعود على آداب اللغة العربية بالخير الجزيل . ولا بد من اعتبار القواعد العامة ، والروابط الأساسية ، مما أشرنا إليه في محله . . ناهيك بما ينجم عن معرفة أصل الكلمة وتاريخها من تفهم معناها الحقيقي .

جرجي زيدان

تمهيد

نواميس الحياة

من أهم نواميس الحياة : **النمو** ، أو **التجدد** وهو ينطوي على دثور الأنسجة وتولد ما يحل محلها . . ومعنى ذلك أن الجسم الحي مؤلف من خلايا لكل منها حياة مستقلة ، إذا انقضت ماتت الخلية وانحلت أجزاؤها وانصرفت، وتولدت في مكانها خلية جديدة تتكون من العصارات الغذائية، كالدم ونحوه. . فالجسم الحي في انحلال وتولد دائمين، حتى قالوا: إن جسم الانسان يتجدد كله في بضع سنين، أي لا يبقى فيه شيء من المواد التي كان يتألف منها قبلاً، وبغير هذا التجدد لا يكون الجسم حياً. وإذا حدث في **جسم الحيوان ما يمنع من تجدد الانسجة أسرع إليه الفناء . . . فالتجدد ضروري للحياة.**

وحياة الأمة مثل حياة الفرد ، بل هي ظاهرة فيها أكثر من ظهورها فيه ، لأن الأمة إنما تحيا بدثور القديم ، وتولد الجديد . . فكأن أفراد الأمة خلايا يتألف منها بدن تلك الأمة ، وهو يتجدد في قرن كما يتجدد جسم الانسان في عقد من عقود تلك القرون .

وإذا تتبعنا نمو الأمة بتوالي الأجيال ، رأيناها تتفرع وتتشعب . . فتصير الأمة الواحدة أمماً يتفاوت البعد بينها بتفاوت الأزمان والأحوال وكل

أمة من هذه ، تتشعب بتوالي « الدهور » إلى أمم أخرى ، وهكذا إلى غير حد . . وهو ما يعبرون عنه بناموس الارتقاء العام .

اللغة كائن حي

ويتبع الأحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قبيل ظواهر الحياة أو توابعها ، وخاصة ما يتعلق منها بأعمال العقل في الانسان ، كاللغة والعادات ، والديانات ، والشرائع ، والعلوم ، والآداب ، ونحوها . . فهذه تعد من ظواهر حياة الأمة ، وهي خاضعة لناموس النمو والتجدد ولناموس الارتقاء العام . ولكل من هذه الظواهر تاريخ فلسفي طويل ، نعبر عنه بتاريخ تمدن الأمة ، أو تاريخ آدابها ، أو علومها ، أو حكومتها ، أو أديانها ، أو نحو ذلك . وهي أبحاث شائقة فيها فلسفة ونظر . ومن هذا القبيل تاريخ اللغة وآدابها .

* * *

والبحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول :

أولاً : النظر في نشأتها منذ تكونها مع ما مر عليها من الأحوال قبل زمن التاريخ ، كتكون الأفعال ، والأسماء ، والحروف ، وتولد صيغ الاشتقاق وأساليب التعبير ونحو ذلك ، والبحث في هذا كله من شأن الفلسفة اللغوية ، وقد فصلناه في كتابنا « الفلسفة اللغوية » .

ثانياً : النظر فيما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى ، فاكتسبت من لغاتهم ألفاظاً وتعبيرات جديدة ، كما يقتبس أهلها من عادات تلك الأمم ، وأخلاقهم ، وآدابهم ، وما يرافق ذلك من تنوع معاني الألفاظ بتنوع الأحوال مع حدوث صيغ جديدة ، وألفاظ جديدة .

ثالثاً : النظر في تاريخ ما حوته اللغة من العلوم ، والآداب ،

باختلاف العصور وهو « تاريخ آداب اللغة ». وهذا التقسيم تقريبي ، إذ لا تجد حداً فاصلاً بين هذه الأقسام .

وإذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من ظواهر الأمة ، كالآداب ، أو اللغة ، أو الشرائع ، أو غيرها ، باعتبار ما مر بها من الأحوال في أثناء نموها ، وارتقائها ، وتفرعها ، رأيتها تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به المرء إلا بعد انقضاء الزمن الطويل . ويتخلل ذلك السير البطيء وثبات قوية تأتي دفعة واحدة ، فتغير الشؤون تغييراً ظاهراً . . وهو ما يعبرون عنه بالنهضة ، وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الأفكار بالاختلاط بين الأمم على أثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف ، أو يكون سبب الاختلاط ظهور نبي ، أو مشرع ، أو فيلسوف كبير ، أو نبوغ قائد طموح يحمل الناس على الفتح والغزو ، أو أمثال ذلك من أسباب الاختلاط . . فتتحاك الأفكار ، وتتمازج الطباع ، فتتنوع العادات ، والأخلاق ، والأديان ، والآداب ، واللغة تابعة لكل ذلك . . بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير، فتحتفظ بها قروناً بعد زوال تلك العادات ، أو الآداب ، أو الشرائع ، وإذا تبدل شيء منها حفظت آثار تبدله . .

وسنقتصر في هذا البحث على تاريخ اللغة العربية في دورها الثاني ، وهو تاريخ ألفاظها وتراكيبها بعد تكونها .

أدوار تاريخ اللغة

باعتبار ما طرأ من التغيير على الفاظها وتراكيبها بعد تكونها وارتقائها

إذا تدبرنا ما مر على اللغة العربية من المؤثرات الخارجية بعد تكونها وارتقائها حتى اكتسبت ما اكتسبته من الألفاظ وضروب التعبير، رأيناها قد مرت في ثمانية أدوار، أو عصور، هي :

١ ـ العصر الجاهلي : وفيه ما لحق اللغة من التنوع والتغير في ألفاظها وتراكيبها قبل الاسلام .

٢ ـ العصر الاسلامي : أي أثر الاسلام في ألفاظ اللغة وتراكيبها .

٣ ـ الألفاظ الإدارية في الدولة العربية .

٤ ـ الألفاظ العلمية في الدولة العربية .

٥ ـ الألفاظ الاجتماعية ونحوها .

٦ ـ الألفاظ النصرانية .

٧ ـ الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم .

٨ ـ النهضة الحديثة .

العصر الجاهلي

ويراد به الزمن الذي مر على اللغة العربية قبل الاسلام ، ولا يمكن تعيين أوله لضياع ذلك في ثنيات الدهور التي مرت قبل زمن التاريخ . . ولكننا نعتقد أن اللغة العربية نشأت ونمت ، أي تميزت فيها الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، وتكونت فيها معظم الاشتقاقات ، والمزيدات ، وهي لا تزال في حجر أمها ، أي قبل انفصالها عن أخواتها الكلدانية ، والعبرانية ، والفينيقية ، وغيرها من اللغات السامية . وبعبارة أخرى أن أم هذه اللغات ، ويسمونها اللغة السامية أو الآرامية تم نموها ، فتكونت أفعالها ، وأسماؤها ، وحروفها ، واشتقاقاتها ، ومزيداتها قبل أن تشتت أهلها ، أو نزحوا إلى فينيقية ، وجزيرة العرب ، وما بين النهرين ، حيث اختلفت لغة كل قوم منهم بعد ذلك النزوح ، باختلاف أحوالهم . . فتولدت منها اللغات السامية المعروفة . فالساميون الذين نزلوا جزيرة العرب، تنوعت لغتهم تنوعاً يناسب ما يحيط بهم من الأحوال، أو يجاورهم من الأمم . . فتميزت عن أخواتها بأمور خاصة ، هي خصائص اللغة العربية . وتشعبت هذه اللغة في أثناء ذلك إلى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الاصقاع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة . وتفرعت لغة كل من تلك البقاع إلى فروع ، باعتبار القبائل والبطون مما لا يمكن حصره . . كل ذلك حدث قبل زمن التاريخ .

ويكفينا في هذا المقام البحث في لغة الحجاز وحدها ، وهي اللغة العربية التي وصلت إلينا ، لقد كانت قبل تدوينها ـ أي قبل الاسلام ـ لغات عديدة تعرف بلغات القبائل ، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب ، كلغات تميم ، وربيعة ، ومضر ، وقيس ، وهذيل ، وقضاعة ، وغيرها ، كما هو مشهور . وأقرب هذه اللغات شبهاً باللغة السامية الأصلية أبعدها عن الاختلاط ، وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام ، وخاصة أهل مكة ، وبالأخص قريش ، فقد كانوا أهل تجارة وسفر شمالاً إلى الشام ، والعراق ، ومصر ، وجنوباً إلى بلاد اليمن ، وشرقاً إلى خليج فارس وما وراءه ، وغرباً إلى بلاد الحبشة .

فضلاً عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة ، وفيهم الهنود ، والفرس ، والأنباط ، واليمنية ، والأحباش ، والمصريون ، عدا الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى ، فدعا ذلك كله إلى ارتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الاشتقاقات ، والتراكيب ، ما لا مثيل له في اللغات الأخرى .

وزاد ذلك الاقتباس خاصة على أثر النهضة التي حدثت في القرنين الأول ، والثاني ، قبل الاسلام ، بنزول الحبشة ، والفرس في اليمن ، والحجاز ، على أثر استبداد ذي نواس ملك اليمن . . وكان يهودياً فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد ، وخاصة أهل نجران ، فطلب إليهم اعتناق اليهودية . . فلما أبوا قتلهم حرقاً وذبحاً ، فاستنجد بعضهم بالحبشة . . فحمل الأحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً ، وأذلوا ملوكها أعواماً . ثم أنف أحد ملوكها ذي يزن ، فاستنجد بالفرس على عهد كسرى أنو شروان ، فأنجده طمعاً في الفتح . . فأخرج الأحباش من اليمن بعد أن ملكوها ٧٢ عاماً ، وكانوا في أثناء ذلك يترددون إلى الحجاز ، وحاولوا فتحه في أواسط القرن

باختلاف العصور وهو « تاريخ آداب اللغة ». وهذا التقسيم تقريبي ، إذ لا تجد حداً فاصلاً بين هذه الأقسام .

وإذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من ظواهر الأمة ، كالآداب ، أو اللغة ، أو الشرائع ، أو غيرها ، باعتبار ما مر بها من الأحوال في أثناء نموها ، وارتقائها ، وتفرعها ، رأيتها تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به المرء إلا بعد انقضاء الزمن الطويل . ويتخلل ذلك السير البطيء وثبات قوية تأتي دفعة واحدة ، فتغير الشؤون تغييراً ظاهراً . . وهو ما يعبرون عنه بالنهضة ، وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الأفكار بالاختلاط بين الأمم على أثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف ، أو يكون سبب الاختلاط ظهور نبي ، أو مشرع ، أو فيلسوف كبير ، أو نبوغ قائد طموح يحمل الناس على الفتح والغزو ، أو أمثال ذلك من أسباب الاختلاط . . فتتحاك الأفكار ، وتتمازج الطباع ، فتتنوع العادات ، والأخلاق ، والأديان ، والآداب ، واللغة تابعة لكل ذلك . . بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير، فتحتفظ بها قروناً بعد زوال تلك العادات ، أو الآداب ، أو الشرائع ، وإذا تبدل شيء منها حفظت آثار تبدله . .

وسنقتصر في هذا البحث على تاريخ اللغة العربية في دورها الثاني ، وهو تاريخ ألفاظها وتراكيبها بعد تكونها .

أدوار تاريخ اللغة

باعتبار ما طرأ من التغيير على الفاظها وتراكيبها بعد تكونها وارتقائها

إذا تدبرنا ما مر على اللغة العربية من المؤثرات الخارجية بعد تكونها وارتقائها حتى اكتسبت ما اكتسبته من الألفاظ وضروب التعبير ، رأيناها قد مرت في ثمانية أدوار ، أو عصور ، هي :

١ ـ العصر الجاهلي : وفيه ما لحق اللغة من التنوع والتغير في ألفاظها وتراكيبها قبل الاسلام .

٢ ـ العصر الاسلامي : أي أثر الاسلام في ألفاظ اللغة وتراكيبها .

٣ ـ الألفاظ الإدارية في الدولة العربية .

٤ ـ الألفاظ العلمية في الدولة العربية .

٥ ـ الألفاظ الاجتماعية ونحوها .

٦ ـ الألفاظ النصرانية .

٧ ـ الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم .

٨ ـ النهضة الحديثة .

العصر الجاهلي

ويراد به الزمن الذي مر على اللغة العربيـة قبل الاسـلام ، ولا يمكن تعيين أوله لضياع ذلك في ثنيات الدهور التي مرت قبـل زمن التاريـخ . . ولكننـا نعتقد أن اللغـة العربية نشـأت ونمت ، أي تميزت فيهـا الأسـماء ، والأفعال ، والحروف ، وتكونت فيها معـظم الاشتقاقـات ، والمزيـدات ، وهي لا تزال في حجر أمهـا ، أي قبل انفصـالها عن أخـواتها الكلدانيـة ، والعبرانية ، والفينيقية ، وغيرها من اللغات السـامية . وبعبـارة أخرى أن أم هذه اللغات ، ويسمونها اللغة السامية أو الآراميـة تم نموهـا ، فتكونت أفعالها ، وأسماؤ ها ، وحروفها ، واشتقاقاتها ، ومزيـداتها قبـل أن تشتت أهلها ، أو نزحوا إلى فينيقية ، وجزيرة العرب ، وما بـين النهرين ، حيث اختلفت لغـة كل قـوم منهم بعد ذلـك النزوح ، بـاختـلاف أحـوالهم . . فتولدت منها اللغات السـامية المعـروفة . فـالساميـون الذين نـزلوا جـزيرة العرب، تنوعت لغتهم تنوعاً يناسب ما يحيط بهم من الأحوال، أو يجاورهم من الأمم . . فتميزت عن أخواتها بأمور خاصة ، هي خصـائص اللغة العربية . وتشعبت هذه اللغة في أثناء ذلك إلى فروع يختلف بعضهـا عن بعض بـاختـلاف الاصقـاع ، وهي لغـات الحجـاز ، واليـمن ، والحبشة . وتفرعت لغـة كل من تلك البقـاع إلى فروع ، بـاعتبار القبـائل والبطون مما لا يمكن حصره . . كل ذلك حدث قبل زمن التاريخ .

ويكفينا في هذا المقام البحث في لغة الحجاز وحدها ، وهي اللغة العربية التي وصلت إلينا ، لقد كانت قبل تدوينها ـ أي قبل الاسلام ـ لغات عديدة تعرف بلغات القبائل ، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب ، كلغات تميم ، وربيعة ، ومضر ، وقيس ، وهذيل ، وقضاعة ، وغيرها ، كما هو مشهور . وأقرب هذه اللغات شبهاً باللغة السامية الأصلية أبعدها عن الاختلاط ، وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام ، وخاصة أهل مكة ، وبالأخص قريش ، فقد كانوا أهل تجارة وسفر شمالاً إلى الشام ، والعراق ، ومصر ، وجنوباً إلى بلاد اليمن ، وشرقاً إلى خليج فارس وما وراءه ، وغرباً إلى بلاد الحبشة .

فضلاً عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة ، وفيهم الهنود ، والفرس ، والأنباط ، واليمنية ، والأحباش ، والمصريون ، عدا الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى ، فدعا ذلك كله إلى ارتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الاشتقاقات ، والتراكيب ، ما لا مثيل له في اللغات الأخرى .

وزاد ذلك الاقتباس خاصة على أثر النهضة التي حدثت في القرنين الأول ، والثاني ، قبل الاسلام ، بنزول الحبشة ، والفرس في اليمن ، والحجاز ، على أثر استبداد ذي نواس ملك اليمن . . وكان يهودياً فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد ، وخاصة أهل نجران ، فطلب إليهم اعتناق اليهودية . . فلما أبوا قتلهم حرقاً وذبحاً ، فاستنجد بعضهم بالحبشة . . فحمل الأحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً ، وأذلوا ملوكها أعواماً . ثم أنف أحد ملوكها ذي يزن ، فاستنجد بالفرس على عهد كسرى أنو شروان ، فأنجده طمعاً في الفتح . . فأخرج الأحباش من اليمن بعد أن ملكوها ٧٢ عاماً ، وكانوا في أثناء ذلك يترددون إلى الحجاز ، وحاولوا فتحه في أواسط القرن

السادس ، فجاءوا مكة بأفيالهم ، ورجالهم ولم يفلحوا . وأهتم أهل الحجاز بقدوم الحبشة إلى مكة حتى أرخوا منه وهو عام الفِيل . ولما فتح الفرس اليمن ، أقاموا فيها واختلطوا بأهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا ، وكانوا يقدمون إلى الحجاز ، وأهل الحجاز يترددون إليهم .

الألفاظ الاعجمية

فكان لهذه النهضة تأثير كبير في اللغة العربية ، فتكاثرت ألفاظها ومشتقاتها ، فلما جمعوا اللغة بلغت صيغ أبنية الأسماء فقط بضع مئات ، ثم صارت بعد ذلك ببضعة قرون ألفاً ومائتين وعشرة أمثلة . . ناهيك بما دخلها من الألفاظ الغريبة وما اقتبسته من التراكيب الاجنبية ، ولكن أكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز أصله . . على أننا نستدل على تكاثر الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو اخواتها من أمثال تلك الألفاظ . فإذا رأينا لفظاً في العربية لم نر له شبيهاً في العبرانية ، أو الكلدانية ، أو الحبشية ، ترجع عندنا أنه دخيل فيها . وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير ، أو الأدوات ، أو المصنوعات ، أو المعادن ، أو نحوها ، مما يحمل إلى بلاد العرب من بلاد الفرس ، أو الروم ، أو الهند ، أو غيرها . . ولم يكن للعرب معرفة به من قبل ، أو في أسماء بعض المصطلحات الدينية ، أو الأدبية ، وأكثر ذلك منقول عن العبرانية ، أو الحبشية ، لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب .

ويقال بالاجمال أن العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها ، ولذلك رأينا أئمة اللغة إذا أشكل عليهم أصل بعض الألفاظ الأعجمية عدوها فارسية .

ومن أمثلة ما ذكره صاحب المزهر من الألفاظ الفارسية « الكوز ،

الجرة ، الإبريق ، الطشت ، الخوان ، الطبق ، القصعة ، السكرجة ، السمور ، السنجاب ، الفاقم ، الفنك ، الدلق ، الخز ، الديباج ، التاختج ، السندس ، الياقوت ، الفيروزج ، البللور ، الكعك ، الدرمك ، الجردق ، السميد ، السكباج ، الزبرباج ، الاسفيذاج ، الطياهج ، الفالوذج ، اللوزينج ، الجوزينج ، البغرينج ، الجلاب ، السكنجين ، الخلنجين ، الدارصيني ، الفلفل ، الكراويا ، الزنجيل ، الخولنجان ، القرفة ، النرجس ، البنفسج ، النسرين ، الخيري ، السوسن ، المزنجوش ، الياسمين ، الجلنار ، المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل ». وعندنا أن بعض هذه الألفاظ غير فارسي كما سترى .

ومما اقتبسوه من **اليونانية واللاتينية** : الفردوس ، والقسطاس ، والبطاقة ، والقرسطون ، والقبان ، والاصطرلاب ، والقسطل ، والقنطار ، والبطريق ، والترياق ، والقطرة ، وغيرها كثير .

وأما ما نقلوه عن الحبشية ، فأكثره لا يدل على أصله لتغير شكله ، ولأن الحبشية والعربية أختان تتشابه الألفاظ فيهما . والمشهور عند علماء العربية من الألفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة : كفلين ، والمشكاة ، والهرج . . ولكننا لا نشك في أنهم اقتبسوا كثيراً غيرها ، وخاصة ما يتعلق منها بالاصطلاحات الدينية .

من ذلك قولهم « المنبر » وهو عند العرب « مكان مرتفع في الجامع أو الكنيسة يقف فيه الخطيب أو الواعظ » وقد شقه صاحب القاموس من « نبر » أي ارتفع وفي ذلك الاشتقاق تكلف . وعندنا أنه معرب « ومنبر » في الحبشة أي كرسي أو مجلس أو عرش .

ومن هذا القبيل لفظ « النفاق » وهو عند العرب « ستر الكفر في القلب واظهار الإيمان » وقد شقوه من « نفق » راج أو رغب فيه ، وليس

بين المعنيين تناسب ، فاضطروا لتعليله إلى استعارة خروج اليربوع من نافقائه فقالوا : « ومنه اشتقاق المنافق في الدين » وهو تكلف نحن في غنى عنه إذا عرفنا أن « نفاق » في الحبشة معناها الهرتقة ، أو البدعة ، أو الضلال في الدين . وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشة بدخول النصرانية فيها .

وكذلك لفظ « الحواري » شقه صاحب القاموس من « حار » بمعنى البياض ، وقال في معنى الحواري أنه سمي بذلك لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم ، أو لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض ، والأظهر أن هذه اللفظة معرب « حواري » في الحبشة ، ومعناها فيها « الرسول » وهو المعنى المراد بها في العربية تماماً .

وكذلك « برهان » وقد شقها صاحب القاموس من « برهن » وشقها غيره من « بره » بمعنى القطع وأن النون زائدة فيها ، وهي في الحبشة « برهان » أي النور ، أو الايضاح ، مشتقة من « بره » عندهم أي اتضح أو أنار .

وقس على ذلك كثيراً من أمثاله ، كالمصحف ، فإنه حبشي من « صحف » أي كتب ، والمصحف الكتاب . ناهيك بأسماء الحيوانات ، أو النباتات ، أو نحوها . فإن « عنبسة » من أسماء الأسد عند العرب ، وهي اسم الأسد بالحبشة .

وقد أخذوا عن العبرانية كثيراً من الألفاظ الدينية : كالحج ، والكاهن ، والعاشوراء ، وغيرها وأكثرها نقل إلى الصيغ العربية لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين لأنهما شقيقتان ، ويضيق هذا المقام عن ايراد الأمثلة ولا ريب أن العرب اقتبسوا كثيراً من الألفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود في اثناء السفر للتجارة ، أو الحج ، لأن جزيرة

العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب . . فكل تجارات الهند المحمولة إلى مصر ، أو الشام ، أو المغرب ، كانت تمر ببلاد العرب ، ويكون للعرب في حملها أو ترويجها شأن . وقد عثرنا في السنسكريتية على ألفاظ تشبه ألفاظاً عربية ، تغلب أن تكون سنسكريتية الأصل لخلو اخوات العربية من أمثالها كقولهم « صبح » و « بهاء » فإنهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تماماً ، ويدلان على الاشراق أو الاضاءة . ولا يعقل أنهما مأخوذان عن العربية لأن السنسكريتية دونت قبل العربية بزمن مديد . ونظن لفظ « سفينة » سنسكريتي الأصل أيضاً ، وكذلك « ضياء » . . ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من أمثال ذلك .

على أننا نرجح أن العرب أخذوا عن الهنود كثيراً من **المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها ، وأسماء الحجارة الكريمة ، والعقاقير والطيب مما يحمل من بلاد الهند** . . والعرب يعدونها عربية ، أو يلحقونها بالألفاظ الفارسية تساهلاً : كالمسك مثلاً ، فقد رأيت صاحب المزهر يعده فارسياً ، وهكذا يقول صاحب القاموس . وهو في الحقيقة سنسكريتي ، ولفظه فيها « مشكا » وذكروا « الكافور » بين الألفاظ الفارسية وهو هندي على لغة أهل ملقا ولفظه عندهم « كابور ». وقد ذكروا أيضاً أن القرنفل فارسي ، والغالب عندنا أنه سنسكريتي لأن أصله من الهند وقس عليه .

القاعدة في تعيين أصول الألفاظ الأعجمية

وتعيين أصل اللفظ لالحاقه باللغة المأخوذة منها يحتاج إلى نظر لا يكفي فيه المشابهة اللفظية ، إذ كثيراً ما تتفق كلمتان من لغتين في لفظ واحد ومعنى واحد ولا تكون بينهما علاقة ، وإنما يقع ذلك على سبيل النوادر بالاتفاق . . إلا إذا دلت القرائن على انتقال احداهما من لغة إلى

أخرى وساعد الاشتقاق على ذلك .

فإذا اتفق لفظان متقاربان لفظاً ومعنى في لغتين ، وكان بين أهل تينك اللغتين علاقات متبادلة من تجارة ، أو صناعة ، أو سياسة ، جاز لنا الظن أن احداهما اقتبست من الأخرى . . فإذا كان ذلك اللفظ من أسماء المحاصيل ، أو المصنوعات ، أو الأدوات ، فيرجح الحاقه باللغة السابقة إلى ذلك ، كلفظ « المسك » مثلاً فإنه موجود في العربية وفي الفارسية وفي السنسكريتية وفروعها . . فإذا عرفنا أن المسك يحمل إلى العالم من تونكين ، وتيبت ، ونيبال ، والصين ، وأن الهنود القدماء كانوا يحملون الطيب إلى الأمم القديمة ويمرون بسفنهم ببلاد العرب ، ترجح عندنا أن العرب أخذوا هذه اللفظة عن الهنود ، كما أخذها الفرس منهم ، أو لعلها انتقلت إلى الفارسية من العربية . . لأن الفرس يعدونها عربية ، كما يعدها العرب فارسية . . أو هي في الفارسية باعتبار أنها فرع من السنسكريتية كما هي في الانجليزية بطريق التفرع ، وكما هي في اللاتينية لأنها أخت السنسكريتية ، ومن اللاتينية انتقلت إلى الفرنسية لأنها فرع من اللاتينية .

ويقال نحو ذلك في « كافور » فإن العرب يعدونها فارسية ، والفرس يقولون أنها عربية . . وهي موجودة أيضاً في السنسكريتية ، واللاتينية ، وفروعها . . فبأيها نلحقها ؟

في مثل هذه الحال ، يجب البحث في مصدر الكافور . . فإذا علمنا أنه يصدر من اليابان والصين ومن ملقا ، وأن اسمه باللغة الملقية « كابور » ترجح عندنا أنه ملقي الأصل . وكذلك « الزنجبيل » ـ الجذور المعروفة ـ فإن العرب يقولون أنها تعريب « شنكبيل » في الفارسية ، والفرس يقولون أنها عربية . . ولم نجد « شنكبيل » في القاموس الفارسي . وإذا بحثنا عن اسم هذا العقار في اللغات الأخرى ، رأينا اسمه في اليونانية « زنجباريس » وفي اللاتينية « زنجبار » فأول ما يتبادر إلى

الذهن أنه من « زنجبار » البلد المعروف ، وإنه سمي بذلك لأنه كان يحمل منه أو لسبب آخر . . فإذا رجعنا إلى منبت هذا العقار ، رأيناه هنديا . . ورأينا اسمه في اللغة السنسكريتية « زرنجابيرا » مشتقة من « كرينجا » أو « زرنجا » أي القرن ، لمشابهة جذوره به . . فيترجح عندنا أنه سنسكريتي الأصل .

ومن هذا القبيل « الفلفل » فإن العرب يقولون أنه فارسي ، والفرس يقولون أنه عربي . . وهو موجود أيضاً بمثل هذا اللفظ في الانجليزية ، والالمانية ، واللاتينية ، ويوجد أيضاً في السنسكريتية ، ويلفظ فيها « بالا » أو « فيفالا » ولما كان الفلفل من محاصيل الهند ، وأجوده يرد من مالابار ، نرجح أن هذه اللفظة سنسكريتية الأصل . ومعنى « ببالا » عندهم أيضاً « التينة المقدسة » .

ويقال عكس ذلك في الألفاظ الدالة على محاصيل بلاد العرب أو حيواناتها ، كالقهوة مثلاً . . فإنها موجودة في الفارسية وفي كل لغات أوروبا ، فالأرجح أنها عربية الأصل لأن هذه اللفظة كانت عند العرب قبل اصطناع القهوة اسماً من أسماء الخمر . . فأطلقوها على قهوة البن . ومثل ذلك أسماء الجمل ، والزرافة ، والغزال ، وغيرها من اسماء الحيوانات العربية . . وربما كان بعضها مأخوذاً في الأصل من لغة غير عربية .

وإذا كانت اللفظة المشتركة بين لغتين من قبيل المصنوعات ، فالحاقها بأصحاب تلك الصناعة من الأمتين أولى . . فقد اختلط العرب بالفرس وخاصة بعد الاسلام ، وأخذوا ، منهم كثيراً من الملابس والأنسجة ، ولم ينقلوها إلى لسانهم . . بل عربوها وأبقوها على ما هي ، كالسراويل ، والقباء (ومنها الجبة) والتبان ، والجورب ، والديباج ، والارجوان ، والسرموج ، والقفطان ، والطربوش ، والبابوج . . كما فعل أهل هذا

العصر بأسماء الملابس الافرنجية التي اقتبسوها من الافرنج في تمدنهم الأخير ، كالبنطلون ، والجاكت ، واللستيك ، وغيرها . .

واقتبس العرب من الفرس كثيراً من ألوان الأطعمة ، وأنواع الأسلحة والفرش والأدوات ، وأبقوها على لفظها الأعجمي . . . وهي كثيرة ، يضيق هذا المقام عن ذكرها ، ومنها الجلاب ، والجلنار ، والبنفسج ، والخشاف ، والخوذة ، والدسكرة ، والدولاب ، والدهقان ، والسرجين ، والسرداب ، والطنبور ، والفرسخ وغيرها كثير . . فالحاقها بلغاتها الأصلية ، يسوغه أولاً التاريخ لأنه يدلنا على أن العرب اقتبسوا تلك المواد من الفرس ، فإذا تأيد ذلك بالاشتقاق اللغوي ، كان الدليل اثبت . . مثل « جلاب » فإنها مؤلفة في الأصل الفارسي من « كل آب » أي ماء الزهر . و« خشاف » من « خوش أب » و « سرداب » من « سرد أب » أو « سردابه » بيت الثلج من « سرد » أي بارد و « أب » ماء . والطربوش من « سربوش » أي غطاء الرأس . والبابوج من « بابوش » أي غطاء القدم .

وكثيراً ما يكفي الاشتقاق اللغوي وحده في معرفة أصل اللفظة ، بشرط ملاحظة مقابلة اللغات . فإذا وجدنا لفظة في العربية ومثلها في الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية مثلاً ، ولم يساعدنا التاريخ على معرفة حقيقة أصلها ، عمدنا إلى اشتقاقها وصيغتها ، فإذا لم يكن لها مجانس في أخوات العربية وكان لها ذلك في أخوات الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية ، نرجح أنها من احدى هذه اللغات مثل « البلاط » بمعنى « قصر الملك » فقد عدها العرب عربية ، وشقوها من البلاط المعروف لأن القصور تفرش به . ولكن هذه اللفظة في اللاتينية Palatium ومعناها قصر الملك . فإذا ادعى مدع أنها عربية الأصل ، وأن الرومان اقتبسوها من العرب ، قلنا أن الرومان يرجعون بأصلها إلى تل كان في رومية بهذا الاسم ، نزل عليه

أوغسطس قيصر وأقام فيه ، فسمى قصره به . . وإذا اعجزنا الدليل التاريخي ، عمدنا إلى الاشتقاق . . فإن Pala في السنسكريتية معناها الحامي أو المدافع ، وكان الملوك القدماء إنما يبنون القصور للتحصن بها . . وقد لا يهدينا التاريخ مطلقاً كما في لفظ « جاموس » فإن التاريخ لا يساعدنا على معرفة أصلها ، هل هي عربية أم فارسية ، فإذا رجعنا إلى الاشتقاق لم نر لها اشتقاقاً في العربية ، أما في الفارسية فإنها مركبة من لفظين « كاو » ثور أو بقرة و« ميش » كبش ، ولكن الجاموس هندي الأصل . ومعنى « جاوميشا » في السنسكريتية « البقرة الكاذبة » .

عود

وبالجملة فقد دخل العربية ألفاظ كثيرة من معظم اللغات التي كانت شائعة في التاريخ القديم ، ممن خالط العرب كالمصريين القدماء ، والحثيين ، والفينيقيين، والكلدان ، والهنود ، والفرس . . حتى الزنوج والنوبة وغيرهم مما لم يعد تمييز أصله ممكناً لتقادم عهده واختلاف شكله .

ومن أمثلة ما أخذوه عن اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية لفظ « قبس » بمعنى الشعلة ، فهي في الهيروغليفية « خبس » ومعناها مصباح . وبعض تلك الاقتباسات أخذها العرب رأساً عن أصحابها ، والبعض الآخر حملت إليهم على يد الأمم الأخرى ، كما نقل لهم اليهود لفظ «نبي» من اللغة المصرية القديمة «الهيروغليفية» واصل معناه فيها «رئيس العائلة» أو «رب المنزل».

وكما نقل لهم الفرس « الشطرنج » عن اللغة الهندية السنسكريتية ، فحسبها العرب فارسية . . وقالوا أنها تعريب « شترنك » بالفارسية ، ومعناها ستة ألوان ـ ولعلهم يريدون « ششرنك » ـ والصواب أنها لعبة هندية قديمة ، كانت تسمى في اللغة السنسكريتية « شتُورنكا » أي الأجزاء الأربعة التي يتألف منها الجند عندهم . . وهي الأفراس ، والأفيال ،

والمركبات ، والمشاة . . فأخذها الفرس عنهم نحو القرن السادس للميلاد ، ثم أخذها العرب عن الفرس فحسبوها فارسية ، وتكلفوا في تحليلها كما رأيت .

ولم يقتصر العرب على اقتباس الألفاظ من اللغات الأخرى واستبقائها على حالها ، ولكنهم صرفوها وشقوا منها الأفعال ، ونوعوا معناها على ما اقتضته أحوالهم . . فقد شقوا من لفظ النبي : « نبأ » و « تنبأ » و « نابأ » .

وشقوا من قبس أفعالاً وأسماءً عديدة .

ومن هذا القبيل « اللجام » وهو من « لكام » في الفارسية ، فشقوا منه أولاً « الجم الدابة » ألبسها اللجام و « التجمت الدابة » مطاوع ألجم . وجمعوا لجام على لجم وألجمه ، ثم استخدموه مجازاً فقالوا : « لجمه الماء » أي بلغ فاه ، وقالوا « لفظ لجامه » أي انصرف من حاجته مجهوداً من الاعياء والعطش . . وقولهم « التقيّ ملجم » أرادوا به أنه مقيد اللسان والكف .

والمهر الخاتم في الفارسية ، استعاره العرب وبنوا منه فعلاً فقالوا : مهر الكتاب أي ختمة بالمهر .

ومن ذلك ما شقوه من لفظ « ديوان » وهي أعجمية فقالوا : « دوّن » أي كتب اسمه في الجندية .

وقِس على ذلك كثيراً من الألفاظ الدخيلة التي يعتقد العرب أنها عربية ، وقد شقوا منها الأفعال والأسماء مثل « سراب » وهي تعريب « سيرآب » في الفارسية أي مملوء ماء . والزمهرير من « زم اريز » بالفارسية أي ضباب بارد. وجزاف من «كزاف» بالفارسية اي العبث من الكلام والضنك من «تنك» في الفارسية ضيق، وقد شقوا منها أفعالاً وأسماءاً ترجع إلى هذا المعنى.

ثم أن أكثر ما أدخله العرب إلى لغتهم من الألفاظ الاجنبية ، لم يكن له ما يقوم مقامه في لسانهم على أن كثيراً منه كانت له عندهم أسماء مشهورة . . لا يبعد أن يكون بعضها دخيلاً أيضاً ، فغلب استعمال الدخيل الجديد وأهمل القديم . من ذلك أن العرب كانوا يسمون الإبريق « تامورة » والطاجن « مقلى » والهاوون « منحاز » أو « مهراس » والميزاب « مثقب » والسكرجة « الثقوة » والمسك « المشموم » والجاسوس « الناطس » والتوت « الفرصاد » والاترج « المتك » والكوسج « الاثط » والباذنجان « الانب » والرصاص « الصرفان » والخيار « القتد » . . فهذه الأسماء وأمثالها ، أهملها العرب قبل الاسلام ، بعد أن استبدلوها بأسماء دخيلة . . فعلوا ذلك عفواً بلا تواطؤ أو قصد ، وإنما هو ناموس النمو يقضي عليهم بذلك .

التغيير في الألفاظ

ذكرنا فيما تقدم أمثلة مما دخل اللغة العربية من الألفاظ الاجنبية قبل زمن التاريخ الذي عبرنا عنه بالعصر الجاهلي ... ونذكر الآن ما لحق ألفاظها الأصلية من التنوع والتفرع في ذلك العصر . والأدلة على ذلك كثيرة ، نكتفي منها بالواضح الصريح . . فنذكر أولاً ما نستدل عليه من مقابلة العربية بأخواتها العبرانية والسريانية ، ثم ما تشهد به حال اللغة العربية نفسها .

مقابلة العربية باخواتها

من الحقائق المقررة ، أن العربية والعبرانية والسريانية ، كانت في قديم الزمان لغة واحدة ، كما كانت لغات عرب الشام ومصر ، والعراق ،

والحجاز ، في صدر الاسلام . فلما تفرق الشعب السامي ، أخذت لغة كل قبيلة تتنوع بالنمو والتجدد على مقتضيات أحوالها ، فتولدت منها لغات عديدة . . أشهرها اليوم العربية ، والعبرانية ، والسريانية . . كما تفرعت عربية قريش بعد الاسلام إلى لغات الشام ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، وغيرها . ولكن الفرق بين فروع اللغة السامية ، أبعد مما بين فروع اللغة العربية ، لتقيد هذه بالقرآن وكتب اللغة . فإذا راجعت الالفاظ السامية المشتركة في العربية وأخواتها ، رأيت مدلولاتها قد اختلفت في كل واحدة عما في الأخرى . والأدلة على ذلك لا تحصى ، إذ لا تخلو المعجمات من شاهد أو غير شاهد في كل صفحة من صفحاتها . . فنكتفي بالاشارة إلى بعضها على سبيل المثال . .

فلفظ « الشتاء » في العربية مثلاً هو أصل مادة « شتا » في القاموس ، وكل مشتقاتها ترجع في دلالتها إلى معنى الشتاء (الفصل المعروف)، فقالوا : شتا في المكان ، أقام فيه شتاء ، وشتا فلان دخل في الشتاء ، وأشتى القوم اشتاء أجدبوا في الشتاء . . الخ .

ولم يدلنا صاحب القاموس على أصل هذا المعنى في هذا اللفظ ، ولكنه أورد رأي المبرد في ذلك ، فقال إن الشتاء « جمع شتوة » وأن الشتوة « الغبراء التي تهب فيها الرياح والأرض يابسة فيهيج الغبار » وفي قوله تكلف . . على أننا إذا راجعنا هذه المادة في اللغات السامية ، رأينا الأصل في دلالتها « الشرب » أو « الري » أو « الصب » فهي كذلك في العبرانية والسريانية إلى اليوم . وقد شقوا منها الأفعال والأسماء لمعان كثيرة ترجع إلى الري ونحوه . . إلّا فصل الشتاء فأنهم شقوا له كلمة من أصل آخر يقرب منه لفظاً ويؤخذ من مراجعات كثيرة أن المادة الاصلية (شتا) كانت تدل على الرطوبة أو الري في اللغة السامية ، فلما تفرقت القبائل كما تقدم ، تولدت منها المشتقات وتنوعت معانيها على مقتضى الأحوال ،

فتولد منها لفظ الشتاء للمعنى المعروف له في العربية ، وأهمل معنى الشرب أو الري منها . ومع ذلك فلو تدبرت مشتقات هذه اللفظة في أخوات العربية ، لرأيتها تختلف الواحدة عما في الأخرى .

وإذا بحثنا عن لفظ « شهر » في العربية بالمقابلة مع أخواتها رأينا الأصل فيه الدلالة على الاستدارة ، ثم سموا القمر به لأنه مستدير ، ثم أطلقه العرب على الشهر لأنهم كانوا يوقتون بالقمر . على أن دلالته على القمر لا تزال باقية في العربية إلى اليوم ، وكذلك في السريانية (سهرا) تدل عندهم على الشهر والقمر . وأما العبرانية فإن للقمر فيها لفظاً مشتقاً من مادة أخرى هي (يرح) والأصل في معناها « الدوران » فاشتقوا منها « يارح » للدلالة على القمر وعلى الشهر . ومن هذه المادة في العربية « رواح » أي العشى . . « فكانوا يقولون : « راح فلان » أي جاء أو ذهب في العشي أي أن أصل المعنى راجع إلى « العشى » بغير تقييد بالذهاب أو المجيء مثل قولهم : أصبح وأمسى . . ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب في العشي ، ثم صارت للدلالة على مطلق الذهاب . . حدث كل ذلك التنوع بلا قصد ولا تواطؤ .

ومن بقايا « يرح » في العربية ، مادة أشكل على أئمة اللغة معرفة أصلها ، فعدها بعضهم فارسية ، وعدها آخرون يونانية ، واكتفى غيرهم بأنها غير عربية . وهي في الحقيقة سامية الأصل ، نعني بها لفظ « آراخ » أو « ورخ » أو « أرخ » بمعنى وقت ، والاظهر عندنا أنها من بقايا اسم الشهر عندهم « يرح » ـ والابدال بين الخاء والحاء هين ـ ومنه «التاريخ» تعريف الوقت ، ثم تنوع معنى هذه اللفظة ، فصاروا يدلون بها على علم التاريخ ، أي ذكر الوقائع والحوادث .

ومن هذا القبيل « كتب » فإن الأصل في دلالتها « حفر في الحجر ، أو الخشب » فالظاهر أنهم استعملوها في أول عهدهم بالكتابة ، وكانوا

يكتبون على الحجارة أو الخشب حفراً أو نحتاً ، شأن الكتابة عند الأمم القديمة . فلما صاروا يكتبون بالمداد على الرقوق أو الأقمشة ، تحول معناها إلى الكتابة المعروفة ، ولم يبق لدلالتها على الحفر أثر في العربية ، وإن كنا نرى أن أثر ذلك في « قطب » ونحوها من تفرعات « قط » حكاية صوت القطع . فيلوح لنا أن الأصل في دلالة كتب (أو قطب) على الحفر، أنهم كانوا يقولون مثلاً « قط بالخشب » أي قطع في الخشب أو حفر الخشب ، ثم الصقوا الباء بالفعل فصار « كتب » أو « قطب » كما الصق عامتنا الباء المذكورة بفعل المجيء ، فبدلاً من أن يقولوا « جاء به » قالوا « جابه » وصرفوه فقالوا « يجيبه ، وجابوه ، ويجيبوه » بدلا من « يجيء به ، وجاءوا به ، ويجيئون به . . »

ومثل « كتب » أيضاً « سطر » فأنها كانت تدل في الأصل على الحفر ، ثم تحول معناها للدلالة على الكتابة للسبب عينه . ولا تزال « سطر » تدل على الحفر أيضاً في العبرانية ، وأما في العربية فقد بقيت الدلالة على ذلك في لفظ مجانس لها هو « شطر » أو نحوها .

وكثيراً ما تحول المعنى في بعض الألفاظ بانتقاله من الكل إلى الجزء أو من الصفة إلى الموصوف مثل « اللحم » في العربية ، فإن معناها في اللغات السامية « الطعام » على اجماله ، ثم خصصه العرب بالدلالة على أهم الأطعمة عندهم وهو اللحم ، وصار في السريانية يدل على الخبز والأصل في « طبخ » الدلالة على « الذبح » واللفظان متشابهان ، فتحول معناها في العربية إلى معالجة اللحم للطعام ، واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها لفظاً .

و« الملح » أصل دلالته في اللغات السامية كلها من « ملح أو ملأ » أي نبع الماء . ثم تحول معناها إلى أكبر مستودعات الماء وهو « البحر » ونظراً لظهور الملوحة في مياه البحار أكثر من سائر صفاتها ، ولأن الملح

يستخرج منها سموا الملح بها . والظاهر أن هذه اللفظة كانت في أمهات اللغات السامية والآرية قبل تفرقها . . فإن اسم البحر في اليونانية يشبه أن يكون مبدلاً من « ملح » أو أن تكون ملح مبدلة منه ، وكذلك في اللغة السنسكريتية .

و «انبو» كانت تدل في اللغة السامية الأصلية على « الثمر » عموماً ، وما زالت تدل على ذلك في اللغة الاشورية ، والآرامية أما في العبرانية فقد أدغمت النون في الباء وعوض عنها بالتشديد فصارت (آبه) بتشديد الباء ، عملا بقاعدة جارية في نحو ذلك باللغة العبرانية . . ثم شقوا من هذه اللفظة فعلاً فقالوا (ابب) بمعنى أثمر ، وأما في السريانية فقد أصاب هذه اللفظة نفس ما أصابها في العبرانية ، وصارت (ابا) وهي تدل عندهم على الفاكهة ، كالتين ، والبطيخ ، والزبيب ، واللوز ، والرمان . وأما في العربية ، فقد حدث نحو ذلك ، ولكن « الإب» صار عندهم للدلالة على الكلأ والمرعى أو ما أنبتت الأرض وقالوا : « الإب » للبهائم كالفاكهة للناس » .

* * *

وتحولت « انبو » أيضاً بالابدال إلى « عنبو » ومنها « عنب » للدلالة على نوع واحد من الأثمار هو ثمر الكرم ، وهذه دلالتها الآن في اللغات العربية ، والعبرانية ، والسريانية ، بعد أن كانت تدل في أقدم أزمانها على الثمر عموماً .

ويقال نحو ذلك في « عبد » فأنها في اللغات السامية تدل على العمل ، وخاصة الحرث في الحقل ، ولم يبق من مشتقات « عبد » في العربية ما يدل على معناها الأصلي إلا « المعبدة » أي « المجرفة » أو « المحراث » . وفيما خلا ذلك فإن عبد ومشتقاتها إنما تدل على العبادة ، ومنها « العبد » أي الرق و « التعبد » لأن خدمة الحقول كان أكثرهم من

لنا هذا الناموس بأجلى بيان . . إذ نرى للمادة الواحدة أو اللفظ الواحد عدة معان متفرعة من معنى واحد ، ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الأحوال . ولا نحتاج في اثبات ذلك إلى ايراد الشواهد لأنه بديهي ، وإنما يحسن بنا أن نشير إلى اسباب ذلك التنوع وهي كثيرة ، وقد ذكرنا بعضها فيما تقدم من الكلام في مقابلة الألفاظ العربية بألفاظ أخواتها ، كاشتقاق معنى الملح من البحر ، ومعنى الثلج من البياض ، وغير ذلك مما بينه تناسب في المعنى . وقد تكتسب الكلمة معنى جديداً من عادة أو عقيدة ، مثل قولهم : « بني على أهله أو بأهله » بمعنى تزوج . وليس في أصل فعل البناء هذا المعنى ، وإنما اكتسبه من عادة كانت جارية عند العرب ، وهي أن الداخل بأهله كان يضرب عليه قبة ليلة الزفاف . ومن هذا القبيل تحول معنى القمر إلى الشهر ، لأنهم كانوا يوقتون بالقمر .

ومن أسباب زيادة النمو في اللغة العربية غير النحت والابدال والقلب ، التصحيف وهو التبادل بين الحروف المتشابهة شكلاً كالباء ، والتاء ، والثاء ، والنون ، والياء ، أو الجيم ، والحاء ، والخاء ، أو الدال ، والذال ، أو الراء ، والزاي ، أو السين والشين ، وقس عليه . .

فمن أمثلة ما ورد بمعنى واحد وسببه التصحيف ، قولهم رجل صلب وصلت ، والدبر والدير ، والكرت والكرب ، ورغات ورغاب ، والجلجلة والحلحلة ، وجاض وحاص ، والنافجة والنافحة ، وهو كثير . . وقد ذكر منه علماء اللغة مئات . والغالب أن ذلك التصحيف لم يحدث إلا بعد تدوين اللغة ، لأنه خطأ بقراءة الخطوط .

وما اختصت به لغة العرب من نتائج هذا النمو ، ورود الألفاظ الكثرة للمعنى الواحد . . فعندهم للسنة ٢٤ اسماً ، وللنور ٢١ اسماً ، وللظلام ٥٢ اسماً ، وللشمس ٢٩ اسماً ، وللحساب ٥٠ اسماً ، وللمطر ٨٤ اسماً ، وللبئر ٨٨ اسماً ، وللماء ١٧٠ اسماً ، وللبن ١٢ اسماً ،

وللعسل نحو ذلك ، وللخمر ، مائة اسم ، وللاسد ٣٥٠ اسماً ، وللحية مائة اسم ، ومثل ذلك للجمل ، أما الناقة فأسماؤ ها ٢٥٥ اسماً . . وقِس على ذلك اسماء : الثور ، والفرس ، والحمار وغيرها من الحيوانات التي كانت مألوفة عند العرب ، وأسماء الاسلحة ، : كالسيف ، والرمح ، وغيرهما . ناهيك بمترادف الصفات ، فعندهم للطويل ٩١ لفظاً ، وللقصير ١٦٠ لفظاً ، ونحو ذلك للشجاع ، والكريم ، والبخيل ، مما يضيق المقام عن استيفائه .

ومن خصائص اللغة العربية اسماء الاضداد ، فإن فيها مئات من الألفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين : مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس و « نضح » للعطش والري و « ذاب » للسيلولة والجمود و « أفسد » للاسراع والابطاء و « أقوى » للافتقار أو الاستغناء .

ومن خصائصها أيضاً ، دلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة . . فمن ألفاظها نيف ومائتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معان . . ونيف ومائة لفظ يدل الواحد منها على أربعة ، وكذلك التي تدل على خمسة معان . وقس على ذلك ما يدل على ستة معان ، فسبعة فثمانية فتسعة إلى خمسة وعشرين معنى ، كالحميم ، والفن ، والطيس ، ومما تزيد مدلولاته على ذلك « الخال » فأنها تدل على ٢٧ معنى ، وللفظ « العين » ٣٥ معنى وللفظ « العجوز » ٦٠ معنى .

فتكاثر المترادفات والاضداد ودلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة لا يحدث إلا من تفرع ألفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل . وبالطبع لم يتكون للشيء الواحد مئة اسم أو مائتان بتوالي الأجيال . . وأحدث تلك الألفاظ أكثرها استعمالاً ، وأقدمها أقربها إلى الاهمال .

والاعلال ، والحقيقة ، والمجاز ، والنقض ، والمنع ، والقلب ، والرفع ، والنصب ، والخفض ، والمديد ، والطويل ، وغيرها من اسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف ، وهي كثيرة جداً ولها فروع واشتقاقات . . حتى لقد أصبح للفظ الواحد معنى فقهي ، وآخر لغوي ، وآخر عروضي ، وآخر ديني ، مما لا يمكن حصره . وسنذكر أمثلة أخرى عند الكلام على اصطلاحات المنطق وعلم الكلام .

وأحدث الاسلام تغييراً كبيراً في أساليب التعبير ، كقولهم : « أطال الله بقاءك » فإن أول من قالها عمر بن الخطاب لعلي بي أبي طالب .

٣ ـ الألفاظ المهملة

وكما أحدث الاسلام ألفاظاً جديدة للتعبير عن معان جديدة ، اقتضاها الشرع الجديد والعلم الجديد . . فقد محا من اللغة ألفاظاً قديمة ، ذهبت بذهاب بعض اعتقادات الجاهلية وعاداتهم . . منها قولهم : « المرباع » وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية . و « النشيطة » وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم ، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصدوه . و « المكس » وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية . وكذلك : الاتاوة ، والحلوان . ومما أبطل قولهم : « أنعم صباحاً وأنعم ظلاماً » وقولهم للملك : « أبيت اللعن » وقول المملوك لمالكه : « ربي » . وتسمية من لم يحج « صرورة » وغير ذلك . وقد نرى بعض هذه الألفاظ مستعملاً في اللغة الآن فهو ، إما مستعمل في غير معناه الأصلي . . وإما أنه قد أرجع إليه بعد اهماله . .

على أننا لا نشك في اهمال كثير من الألفاظ العربية في القرنين الأولين للهجرة ، ولا سبب لذلك غير ما يقتضيه النمو من التجدد والدثور . .

يكفي لتحقيق ذلك ، مراجعة المعجمات وتدبر ألفاظها ، فإنك ترى فيها مئات وألوفاً من الألفاظ التي بطل استعمالها ، ولا نظنهم جمعوها في صدر الاسلام ، إلّا لأنهاكانت شائعة على ألسنة العرب .

وقد يعترض على ذلك أن تلك الألفاظ إنما أهملت في العصور الأخيرة فلا ننكر إهمال بعضها في هذه العصور ، ولكن جانباً كبيراً منها أهمل في العصور الأولى ، فضلاً عما قل استعماله قبل الاسلام . . حتى لقد كان أحدهم يسمع اعرابياً يتكلم ، فإذا ذكر ألفاظاً مهملة أغلق على السامع فهمها ولو كان لغوياً . .

❊ ❊ ❊

يروى عن أبي زيد الانصاري أنه قال : « بينما أنا في المسجد الحرام ، إذ وقف علينا اعرابي ، فقال : يا مسلمون - بعد الحمد لله والصلاة على نبيه - إني امرؤ من هذا الملطاط الشرقي ، المواصي أسياف تهامه ، عكفت علينا سنون محش ، فاجتبت الذري ، وهمشت العرى ، وجمشت النجم ، وأعجبت البهم ، وهمت الشحم ، والتحبت اللحم ، وأحجنت العظم ، وغادرت التراب موراً ، والماء غوراً ، والناس اوزاعاً ، والنبط قعاعاً ، والضهيل جراعاً ، والمقام جعجاعاً ، يصبحنا الهاوي ، ويطرقنا العاوي ، فخرجت لا أتلفع بوصيده ، ولا أتقوت بمهيده ، فالبخصات وقعه ، والركبات زلعه ، والأطراف فقعه ، والجسم مسلهم ، والنظر مدرهم ، اعشوا فاغطش ، وأضحى فاخفش ، اسهل ظالعاً ، واحزن راكعاً ، فهل من آمر بمير ، أو داع بخير ، وقاكم الله سطوة القادر ، وملكة الكاهر ، وسوء الموارد ، وفضوح المصادر . . قال أبو زيد فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه واستفسرت منه ما لم أعرفه » وأبو زيد الانصاري من فطاحل أئمة اللغة . وأمثال هذه كثيرة في أخبار العرب .

الألفاظ الإدارية في الدولة الإسلامية

مصالح الدولة

كانت مصالح الدولة قبل الاسلام ، عبارة عن مناصب كبار الامراء من قريش في الكعبة ، كالسدانة ، والسقاية ، والرفادة ، والقيادة ، والمشورة ، والاعنة ، والسفارة ، والحكومة ، والعمارة ، وغيرها . . وكلها عربية يدل لفظها على معناها . فلما ظهر الاسلام ، وفتح المسلمون الشام ، والعراق ومصر ، وفارس ، أنشأوا على انقاض دولتي الروم ، والفرس ، دولة دونوا فيها الدواوين ، ونظموا الجند ، وسنوا القوانين ، على ما اقتضاه تمدنهم ، مما لم يكن له مثيل في جاهليتهم . . فاضطروا للتعبير عن ذلك إلى ألفاظ جديدة ، فاستعاروا بعضها من لغات القوم الذين أقاموا بينهم وخاصة الفرس ، واليونان ، والرومان ، واستعملوا لما بقي ألفاظاً عربية حولوا معانيها حتى تؤدي معاني تلك الموضوعات ، كما فعلوا في الاصطلاحات الشرعية واللغوية . ولو شئنا ذكر كل ما استحدث من تلك الألفاظ لما وسعه غير المجلدات . . فنكتفي بالأمثلة .

١ ـ الألفاظ الادارية العربية

أول الألفاظ الإدارية التي استحدثت في الدولة العربية « الخليفة »

فأنها كانت تدل في الأصل على من يخلف غيره ويقوم مقامه بدون تخصيص ، ثم انحصر معناها فيمن يخلف النبي ، وأول الخلفاء أبو بكر . . ومنها صارت تؤدي معنى « السلطان يحكم بين الخصوم والسلطان الأعظم والمحكم الذي يستخلف عن قبله » ويقال نحو ذلك في سائر مناصب الدولة ، كالوزارة ، والامارة ، والنقابة ، والكتابة ، والحجابة ، والشرطة ، ونحوها . .

فإن الوزارة كانت تدل على المعاونة ، ثم تغير معناها باختلاف الدول واختلاف حال الوزراء فيها . . ويشتق دار مستتر لفظ الوزير من أصل فارسي قديم (بهلوي) هذا نطقه « ويجيرا » ومعناه حكم ، أو أقر .

* * *

ومثل ذلك « الكاتب » فقد رأيت فيما تقدم أن الأصل في دلالة « كتب » الحفر على الخشب أو الحجر ، لأنهم كانوا يكتبون بالحفر . . فلما كتبوا بالمداد ، صار معناها الكتابة المعروفة . ولما ظهر الاسلام احتاجوا إلى من يكتب السور فكان الذين يكتبونها يسمون كتبة الوحي . وكان بعضهم يكتبون بين الناس في المدينة ، فلما تولى أبو بكر استخدم كاتباً يكتب له الكتب إلى العمال والقواد . . ولما تولى عمر دون الدواوين استخدم الكتبة لضبط اسماء الجند وأعطياتهم ، فصار الكاتب يدل على الكتابة والحساب . ولما استبد الكتاب في الدولة المصرية وغيرها ، صار الكاتب بمعنى الوزير . . ويراد بالكاتب الآن العالم المنشيء .

ومن ذلك لفظ « الدولة » فقد كانوا يريدون به « انقلاب الزمان والعقبة في المال والفتح في الحرب » ثم دلوا به على الملك ووزرائه ورجال حكومته ، ولم يكن لها هذه الدلالة قبلاً .

و « الحجابة » تدل في الأصل على الستر والمنع ، فالحاجب الساتر أو المانع ، فكان حاجب الخليفة من أصغر رجال الدولة . فلما ضعف الخلفاء واستبد الحجاب ، صار معنى الحاجب عندهم مثل معنى الوزير .

* * *

وقس على ذلك سائر مناصب الدولة ، كالامارة ، والشرطة ، والقضاء، والحسبة، والنقابة، والامامة ، وغيرها من اصطلاحات الجند كالمسترزقة ، والمتطوعة ، والعلوفة ، والعسكر . . وضروب الحرب وأبواب الهجوم ، كالزحف ، والكر ، والفر ، والبيات ، والكفاح ، والغرة . . . وصنوف الاسلحة : كالدبابة ، والكبش ، والعرّادة ، وغيرها . ناهيك باصطلاحات الدواوين على اجمالها ، كقولهم الثغور ، والعواصم ، والاقليم ، والقصة ، والعمل ، والولاية ، والضياع ، والحكومة ، والسكة ، والتوقيع ، والوظيفة ، والخراج ، والجزية ، والعشور ، والمرافق ، والصوافي ، والجوالي ، والجباية ، والوقف ، والمصادرة ، والمستغلات ، والصدقة ، والمكوس ، والمراصد ، ودار الضرب ، والضمان والدفاتر ، والجرائد ، والخرائط ، والايغار ، والراتب ، والجاري ، والعطاء ، والبيعة ، والدعوة ، والختم ، والخطط ، والمطالعة ، والمؤامرة ، وغير ذلك كثير جداً .

فالألفاظ المذكورة عربية الأصل وأكثرها معروف قبل الاسلام ، ولكن مدلولاتها تغيرت بتغير أحوال المسلمين بعد انشاء دولتهم . . إذ حدث بانشائها معان جديدة اضطروا في التعبير عنها الى ألفاظ جديدة، فنوعوا ما عندهم . . إما عمداً أو عفواً فصارت إلى ما هي عليه .

« فالخراج » مثلا كان معناه في الجاهلية الكراء والغلة ، ويدل ذلك

على معنى ضرب الخراج في الاسلام ، فإنهم كانوا يعدون الأرض ملكاً لهم وقد سلموها لأهلها على سبيل الايجار بالكراء ، فصار معنى الخراج بعد ذلك « ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها » ثم صار الخراج مقاسمة ، أو مساحة أو سيحاً أو سقياً ، وأكثرها ألفاظ جديدة لمعانٍ جديدة . .

و « الحكومة » كانت تدل في الجاهلية على الفصل بين المتخاصمين لأنها مصدر حكم أي قضى ، وتلك كانت أعمال صاحب الحكومة في الجاهلية ، ثم تحول معناها إلى « ارباب السياسية أو رجال الدولة » .

و « السكة » في الأصل الحديدة المنقوشة التي كانوا يضربون عليها النقود ، ثم سميت النقود بها ، واشتقوا منها الأفعال والأسماء لهذا المعنى .

* * *

و « التوقيع » الأصل فيه « التأثير » من قولهم : « وقع الوبر ظهر البعير توقيعاً أثر فيه » ثم استعملوه في الاسلام لما يوقعه الكاتب على القصص المرفوعة إلى الخليفة ، أو السلطان ، أو الأمير ، فكان الكاتب يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه . . فإذا عرضت قصة (عرضحال) على السلطان ، أمر الكاتب أن يوقع عليها (يؤشر) بما يجب اجراؤه . ثم تحول معناها إلى اسم علامة السلطان كالامضاء عندنا . . وعلى نحو هذا النمط تحول معنى « الامضاء » اليوم إلى التوقيع ، ومعناه في الأصل« التنفيذ » فكان توقيع السلطان على القصة عبارة عن أمر رجال الدولة في امضائها ، أي تنفيذ توقيعه ثم تحول معناها إلى التوقيع أي وضع العلامة على الصكوك ونحوها .

ومن هذا القبيل « الوظيفة » فإن الأصل في معناها « ما يقدر من

يقرب من هذا المعنى ، ولا رأينا في القاموس أنها تستعمل لمعنى الولاية ، ولكنها كثيرة الورود في كتب التاريخ لهذا المعنى . والأصل في هذه الدلالة ، أن الخلفاء في صدر الاسلام ، كانوا إذا وجهوا جيشاً إلى حرب عقدوا له الألوية وسلموها إلى الامراء ، لكل أمير لواء . . وكان توجيههم إلى الفتح يتضمن معنى الألوية على البلاد التي يفتحونها ، ثم صار الخلفاء بعدهم يعقدون ذلك اللواء للأمراء عند توليتهم بعض الامارات . . فيقال : « عقد له اللواء على البلاد الفلاني » أي ولاه ، ثم اختصروا فقالوا : « عقد له ».

ولمثل هذا السبب يستعمل كتابنا اليوم « برهة » بمعنى الزمن القصير ، وهي تدل في الأصل على الزمن الطويل . . فالظاهر أنهم كانوا يقولون : « برهة قصيرة » أو « برهة وجيزة » للزمن القصير . . ثم استعملوا برهة وحدها لهذا المعنى .

٣ ـ تفرع اللفظ الواحد بالقلب والابدال إلى ألفاظ كثيرة تدل على تفرعات المعنى الأصلي . . وأمثلة ذلك كثيرة في اللغة لا حاجة إلى ذكرها . ولكن قد يتنوع المعنى ويبقى اللفظ على حاله ، فيندر أن يهتدي إلى سبب ذلك التنوع . . ومن أغرب الأمثلة على ذلك « جن » ومشتقاتها ، فأنها تدل على معاني كثيرة ترجع إلى « الظلمة ، والاختفاء ، والجنون ، والجن ، والجنة » . . ولا يخفى ما بين هذه المعاني من التباين والتناقض . فلنتبع هذه اللفظة إلى أصلها لعلنا نهتدي إلى تعليل هذا الاختلاف :

يظهر لنا أن هذه المادة قديمة في تاريخ اللغة ، بدليل وجودها في جميع اللغات السامية وأمهات اللغات الآرية . . فهي في العبرانية ، والسريانية على نحو ما هي في العربية لفظاً ومعنى . وفي السنسكريتية « جان » الروح وكذلك في الفارسية ، ويظهر أنها حدثت والانسان في أول أدوار حياته ،

أي يوم كان المغول ، والآريون ، والساميون ، وغيرهم عائلة واحدة لأن الصينيين يدلون على الروح بنحو هذا اللفظ أي « تسن » وأما في اليونانية ، واللاتينية فتدل على الولادة ، أو التسلسل ، وهما من فروع المعنى الأصلي . .

و « جانا » في السنسكريتية « مسكن الأرواح، أو الآلهة » ولعل هذا هو الأصل في دلالة لفظ « الجنة » (الفردوس) في اللغات السامية أيضاً . . ثم تنوقلت حكاية الخليقة عند الساميين أجيالاً قبل تدوينها ، فعرض في أثناء ذلك انتقالهم إلى اعتقاد التوحيد ، فأثر هذا الانتقال على معنى تلك اللفظة وتحول إلى ما نعلمه . .

فلما كتب سفر الخليقة ، كان المعنى الأول قد تنوسي من اللغة العبرانية ، فضاع كما ضاع معنى لفظ « عدن » . . فأدى ذلك إلى الرجم في تفسيرهما بعد ذلك . أما في السنسكريتية ، فلفظ «أدن»، أو عدن » معناه الأكل ، أو الطعام . . وربما كان هذا هو المراد بجنة عدن في حكاية سفر الخليقة، لأن الله خلق الانسان ووضعه في « جنة عدن » وغرس له فيها الاشجار ليأكل ، ومنعه من شجرة الخير والشر . . كأنه أقامه في جنة فيها أكل . .

* * *

ثم أن دلالة مادة « جان » أو « جن » على الروح في اللغات السامية لا يزال أثرها باقياً في لفظ « الجان » العربية ، والأصل في دلالتها « كل ما استتر عن الحواس من الملائكة أو الشياطين » أي الأرواح على اطلاقها . وكان اعتقاد الناس في سبب الجنون ، أنه حلول تلك الأرواح في المجنون . . فعبروا عن الجنون بلفظ مشتق من « الجان » : فقالوا : « جن

الرجل على المجهول ، زال عقله أو فسد أو دخلته الجن ». ونظراً لاختفاء الأرواح عن حواس البشر ، وخاصة عن انظارهم ، دلوا بتلك اللفظة على الظلمة ، والاختفاء أو الاستتار . . فقالوا جن الليل : أظلم ، وجنه الليل : ستره . . فتعلل بذلك تنوع معنى هذه اللفظة إلى المعاني الخمسة التي ذكرناها ، وكل ما لمشتقات هذه اللفظة من المعاني يرجع إلى أحدها .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نتتبع تاريخ هذه اللفظة في الافرنجية وما يقابلها في اللغات السامية . . فقد خسرت دلالتها على « الروح » في كل اللغات الآرية (إلا الفارسية والسنسكريتية) وصارت تدل على ما يقارب ذلك وهو التوليد من Gen ومشتقاتها ، ومنها Genus في اللاتينية ومشتقاتها بمعنى الصنف من الناس . . ويقابلها في العربية « جنس » ويقابل Gen في العربية « جيل » واللفظ والمعنى متقاربان .

ولم تخسر لفظة « جان » دلالتها على « الروح » إلا بعد أن تولد ما يقوم مقامها ، لأسباب ترجع إلى تغيير حدث في عادات الأمم أو اعتقاداتهم . وأهم ما حدث في اعتقادات البشر الانتقال من الشرك إلى التوحيد . . فلما اعتقد الساميون بالتوحيد ، أصبحت الأرواح السماوية عندهم أي الملائكة خدماً للاله العظيم . . ينفذها حيث شاء لتبليغ أوامره أو نواهيه ، فعبروا عن الروح بلفظ « الرسول » وهذا معنى « الملاك » في اللغات السامية فإنه اسم مفعول من « هلك » أرسل ، وأصل المادة « هلك » مشى أو سار . . ومنها قولهم في التوراة ملاك الرب : أي رسول الله . وقد فقدت هذه المادة في العربية ، ولا يزال أثرها باقياً في «ألوكة» أي الرسالة .

وحدث نحو ذلك في اللغات الآرية فإن معنى الملاك عندهم يرجع إلى Angel وهي مأخوذة من (انجلوس) اليونانية ومعناها « الرسول » كأنهم ترجموا لفظ ملاك إلى لسانهم حرفياً .

٤ ـ اكتساب اللفظ معنى جديداً من عادة شائعة ، كما اكتسب لفظ « بنى » معنى الزواج من ضرب القباب على العروس ليلة الزفاف ، وجملة « عقد له » معنى « ولاه » وقد تقدم ذكرها .

وبالجملة ، فقد حدث في اثناء التغيير الإداري في الدولة الاسلامية ، نهضة عظيمة أحدثت تغييراً كبيراً في اللغة لفظاً ومعنى . . وليس ما ذكرناه إلا أمثلة قليلة .

١ ـ الألفاظ الادارية الأعجمية

أما الألفاظ التي اقتبسها العرب في أثناء انشاء دولتهم فكثيرة أيضاً ، نأتي بأمثلة منها :

من أقدم ما اقتبسوه من الألفاظ الإدارية الفارسية « الديوان » على عهد عمر بن الخطاب ، فأنه أول من دوّن الدواوين في الاسلام ، فوضع الديوان على نحو ما كان عند الفرس ، واستعار له اللفظ الفارسي . . فاستعمله أولاً للدلالة على ديوان الجند ، فكانوا إذا قالوا الديوان أرادوا ديوان الجند فقط ، ثم اطلقوه على سائر الدواوين ، وألحقوا به ألفاظاً تميز بينها : كديوان الانشاء ، وديوان العرض ، وديوان الضياع ، وديوان الخراج ، وهي كثيرة . ودلوا به على الكتاب الذي تدوّن فيه أسماء الجنود ، فكانوا إذا قالوا : فلان من أهل الديوان ، أرادوا أنه ممن أثبتت أسماؤهم في ذلك الكتاب . ثم أطلق على كل كتاب ، ثم انحصر في الدلالة على الكتب التي تجمع فيها الأشعار . . فإذا قالوا : ديوان فلان : أرادوا به مجموع أشعاره .

ولما كان أهل الديوان يجتمعون في مكان واحد ، سموا ذلك المكان ديواناً ، وأطلقوا لفظ الديوان على كل مجلس يجتمع فيه لاقامة المصالح أو

النظر فيها . . والعامة تعبر بالديوان عن المقعد .

وقِس على ذلك كثيراً من الألفاظ الفارسية المتعلقة باصطلاحات الحكومة ، وخاصة الجند والأسلحة ونحوها : كالخوذة ، والجامكية ، والجزية ، والدولاب ، والدلق ، ودهقان ، والدانق ، ورستاق ، وسباهي ، والبريد ، وزنديق ، وكسري ، ونيشان ، ويلمق ، والطراز ونحوها .

والألفاظ اليونانية الإدارية قليلة في اللغة العربية ، ومنها : الاسطول ، والمنجنيق ، والدرهم ، والبطاقة ، والقنداق ، والكردوس ، والليمان .

وإذا تدبرت تاريخ هذه الألفاظ في لغتها الأصلية أو بعد انتقالها إلى العربية ، رأيت مدلولاتها تنوعت بتنوع الأحوال ، فالدرهم مثلاً الأصل فيه الدلالة على الوزن ، ثم دلوا به على نقد وزنه درهم ، ثم أطلق على النقود كلها .

وأما الألفاظ اللاتينية فمنها : البلاط (بمعنى قصر الملك) والدينار والدمستق . وربما أدخلوا ألفاظاً تركية ، أو هندية ، أو كلدانية ، أو نبطية ، أو نحوها . . مما يضيق المقام عن استيفائه . .

الألفاظ العلمية

العصر العباسي

نريد بالألفاظ العلمية ما اقتضاه نقل كتب العلم، والفلسفة إلى اللغة العربية في العصر العباسي من الألفاظ الجديدة، لتأدية ما جَدّ من المعاني، مما لم يكن له مثيل في لسان العرب، كالمصطلحات الطبية، والكيماوية، والفلسفية، والطبيعية، والرياضية، والفلكية، والمنطقية، وما ألحق بذلك من مصطلحات علم الكلام، والتصوف، ونحوهما. وشأن أهل العصر العباسي في نقل تلك العلوم من اليونانية، والفارسية، والهندية، وغيرها، مثل شأننا في نقل علوم هذا العصر من الفرنسية، والانجليزية، والألمانية، وغيرها.. بل هم كانوا أحوج منا إلى اقتباس الألفاظ الأعجمية، وتنويع المعاني العربية لاستغنائنا عن كثير من ذلك، بما وصل إلينا مما اقتبسوه ونوعوه من تلك الألفاظ.

ولم تقتصر تلك النهضة العلمية على تنويع الألفاظ وتبديلها، ولكنها أحدثت تنويعاً في التعبير يسهل علينا تصوره لكثرته في نهضتنا هذه مما سنذكره في حينه.. فالتغيير الذي أصاب اللغة العربية بنقل كتب العلم، والفلسفة قسمان: أحدهما في المفردات، والآخر في التراكيب. والتغيير اللفظي أما بتنوع الألفاظ العربية، أو باقتباس ألفاظ أعجمية.

١ ـ الألفاظ العلمية العربية

هي ألفاظ عربية تنوعت معانيها ، للدلالة على ما حدث من المعاني الجديدة العلمية ، والفلسفية ، التي تنوعت من قبل للدلالة على المعاني الشرعية ، واللغوية ، والأدبية في صدر الاسلام .

وأول تلك الألفاظ ، أسماء العلوم التي نقلت إلى لساننا أو حدثت فيه على أثر ذلك ، كالطبيعيات ، والالهيات ، والرياضيات ، والمنطق ، والهيئة ، والجبر ، والمقابلة ، ونحو ذلك . مع ما في كل علم من الاصطلاحات الخاصة به ، وهي كثيرة جداً . . إليك أمثلة منها :

(١) ـ الألفاظ الطبية

فالألفاظ الطبية العربية لم يكن منها في الجاهلية إلا مفردات قليلة ، كالحجامة ، والكي ، ونحوهما . . فحدث منها ما يدل على فنون الطب : كالكحالة ، والصيدلية ، والتشريح ، والجراحة ، والتوليد ، ومنها ما يختص باصطلاحات كل فن : كأسماء الرطوبات . والأمزجة ، والاختلاط من الحار ، والبارد ، والجاف ، واليابس ، والسوداء ، والصفراء ، والبلغم ، والنبض ، والتخمة ، والانذار ، والهضم والبحران ، والمشاركات .

وأسماء الأدوية : كالمسخنات ، والمبردات ، والمرطبات . والمجففات ، والمسهلات ، والتطولات ، والمخدرات ، والاستفراغات ، والسعوطات ، والادهان ، والمراهم ، والاطلية .

والكلمات الدالة على أثر تلك الأدوية ، مثل : ملطف ، ومحلل ، ومنضج ، ومخشن ، وهاضم ، وكاسر الرياح ، ومخمر ، ومحكك ، ومقرح ، وأكال ، ولاذع ، ومفتت ، ومعفن ، وكاو ، ومبرد ، ومقو ،

ومخدر ، ومرطب ، وعاصر ، وقابض ، ومسهل ، ومدر ، ومعرق ، ومزلق ، ومملس ، وترياق ، وغير ذلك .

من الألفاظ الجراحية : الفسخ ، والهتك ، والوثي ، والرض ، والخلع ، والفتق ، وتفرق الاتصال ، ومفارقة الوضع ، والجبار وغيره .

ناهيك بأسماء الأمراض أو أعراضها : كالصداع ، والكابوس ، والصرع ، والتشنج ، واللقوة ، والرعشة ، والاختلاج ، والسرطان ، والسلاق ، والشترة ، والشرناق ، والخانوق ، والذبحة ، والربو ، وذات الجنب ، وذات الرئة ، والجهر ، والضمور ، والخفقان ، والغثيان ، واليرقان ، والاستسقاء ، والدبيلة ، والاسهال ، والزحير ، والسحج ، والسدد ، والهيضة ، والبواسير ، ونحو ذلك . . مما لا يمكن حصره .

ومن أوصاف الأمراض أنواع الحميات ، كالمزمنة ، والحادة ، والمختلطة ، والغب ، والمطبقة ، والربع ، والدق ، وغيرها . . غير الألفاظ التشريحية : كأسماء الأوعية الدموية ، ورطوبات العين ، وسائر الأعضاء الباطنة التي لم يكن العرب يعرفونها .

ولأكثر الألفاظ الطبية العربية معان لغوية ، عرفها العرب قبل عصر العلم . . فلما احتاجوا إلى المعاني الجديدة استعملوا من تلك الألفاظ ما يقرب معناه من المعنى المقصود .

(٢) ـ الألفاظ الرياضية

ويقال نحو ذلك في الألفاظ الكيماوية ، والرياضية ، والفلكية ، وسائر العلوم الطبيعية ، مما يضيق هذا المقام عن استيفائه ، وقد يلزم لاصطلاحات كل علم كتاب بذاته .

فمن أمثلة الألفاظ الفلكية ، أكثر أسماء الأبراج ، والأفلاك ،

والمصطلحات الفلكية ، والازياج ، وما يلحق ذلك ، كالرصد ، والتعديل ، والتقويم ، والخسوف ، والكسوف .

ومن الألفاظ الرياضية في الهندسة ، والحساب ، والجبر ، ما لا يحصى ، كالمماس ، والمخروط ، والمثلث ، والمربع ، وغير ذلك .

(٣) ـ الألفاظ الفلسفية والمنطقية والكلامية

وأما الفلسفة والمنطق ، فاصطلاحاتهما تفوق الحصر . . ومن العلوم التي اقتضاها التمدن الاسلامي بعد نقل الفلسفة والمنطق إلى لسان العرب ، علم الكلام والتصوف مع التوسع في الفقه والأصول . وقد كان لهذه العلوم تأثير كبير في اللغة العربية ، فنوّعت ألفاظها ، وأحدثت فيها ألفاظاً جديدة :

وذلك كقولهم : الكون ، والظهور ، والقدم ، والحدوث ، والاثبات ، والنفي ، والحركة ، والسكون ، والمماسة ، والمباينة ، والوجود ، والعدم ، والطفرة ، والاجسام ، والاعراض ، والتعديل ، والتحرير ، والمصاف ، من اصطلاحات علم الكلام . والهاجس ، والمريد ، والمراد ، والسالك ، والمسافر ، والسطح ، والقطب ، والهيبة ، والانس ، والبقاء ، والعناء ، والشاهد ، والفترة ، والمجاهدة ، من اصطلاحات التصوف .

وقد تكاثرت الاصطلاحات الكلامية والصوفية والفقهية والاصولية حتى صارت تعد بالألوف ، فاضطروا إلى وضع المعجمات الخاصة لتفسيرها ، وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم . ومن أشهر تلك المعجمات كتاب « التعريفات » للجرجاني في نيف ومائة صفحة و« كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي في نحو ألفي صفحة

كبيرة و « كليات أبي البقاء » في أربعمائة صفحة و «اصطلاحات الصوفية» الواردة في الفتوحات المكية وغيرها . فإذا ذكروا لفظاً أوردوا معناه اللغوي ثم معناه الاصطلاحي في الفقه أو الكلام أو التصوف أو الأصول مع ما يناسب ذلك من المعاني الرياضية أو الطبيعية أو النحوية . . وقد يغفلون المعنى اللغوي على الاطلاق .

فيقول الجرجاني في لفظ « القياس » مثلاً : « القياس في اللغة عبارة عن التقدير ، يقال : قست النعل بالنعل إذا قدرته وسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره . وفي الشريعة عبارة عن المعنى المستنبط من النص لتعدية الحكم من المنصوص عليه إلى غيره ، وهو الجمع بين الأصل والفرع في الحكم . وفي المنطق قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر ، كقولنا العالم متغير وكل متغير حادث ، فإنه قول مركب من قضيتين . . إذا سلمتا لزم عنهما لذاتهما العالم حادث هذا عند المنطقيين . وعند أهل الأصول ، القياس ابانة مثل حكم المذكورين بمثل علته في الآخر واختيار لفظ الابانة دون الاثبات ، لأن القياس مظهر للحكم لا مثبت ، وذكر مثل الحكم ومثل العلة احتراز عن لزوم القول بانتقال الأوصاف واختيار لفظ المذكورين ليشمل القياس بين الموجودين وبين المعدومين » ثم ميز الجرجاني بين أنواع القياس بألفاظ تلحق به كالقياس الجلي والخفي والاستثنائي والاقترابي وقياس المساواة، ولكل منها معنى اصطلاحي خاص .

وفي الاصطلاحات الصوفية : « الهاجس » يعبرون به عن الخاطر الأول ، وهو الخاطر الرباني ، وهو لا يخطىء أبداً . . وقد يسميه سهل السبب الأول ونقر الخاطر ، فإذا تحقق في النفس سموه ارادة ، فإذا تردد الثالثة سموه همة ، وفي الرابعة سموه عزماً ، وعند التوجه إلى القلب إن كان خاطر فعل سموه قصداً ، ومع الشروع في الفعل سموه نية .

و « المريد » هو المتجرد عن ارادته ، وقال أبو حامد : « وهو الذي فتح له باب الأسماء ودخل في جملة المتوصلين إلى الله بالاسم ». و « المراد » عبارة عن المجذوب عن ارادته مع تهيء الأمور له . فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة . و « السالك » هو الذي مشى على المقامات بحاله ، لا بعمله فكان العلم له عيناً . و « المسافر » هو الذي سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات . . فعبر من عدوة الدنيا إلى عدوة القصوى . و « السفر » عبارة عن القلب ، إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى بالذكر . . وقِس على ذلك .

٢ ـ الألفاظ العلمية الأعجمية

حينما قام العرب بتعريب العلوم ، نقلوا من اصطلاحاتها إلى لسانهم ما استطاعوا نقله ، ونوَّعوا الألفاظ على مقتضى المراد كما تقدم . وما لم يستطيعوا تعريبه ، نقلوه بلفظه إلى لسانهم . . وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير ، والأمراض ، أو الأدوات ، أو المصنوعات التي لم يكن لها شبيه في بلادهم .

فمما اقتبسوه من أسماء العقاقير : الافسنتين ، والبقدونس ، والزيزفون ، والسقمونيا ، والقنطاريون ، والمصطكي من اللغة اليونانية . والبابونج ، والبورق ، والبنج ، وخيار شمبر ، والراتينج ، والزرجون ، والزرنيخ ، والزاج ، والسرقين ، والاسفيداج ، والشاهترج ، والشيرج ، والمرداسنج من اللغة الفارسية .

ومن أسماء الأمراض ونحوها من الاستعمالات الطبية : القولنج ، والترياق ، والكيموس ، والكيلوس ، وقيفال ، ولومان ، وملنخوليا من اليونانية . . وسرسام ، ومارستان من الفارسية .

ومن المصنوعات والأدوات : الاصطرلاب ، والقيراط ، والانبيق ، والصابون من اليونانية . . والبركار ، والبوتقة ، والجنزار ، والدسكرة ، والاسطوانة من الفارسية .

ومن الاصطلاحات الفلسفية نحوها : الهيولي ، والاسطقس ، والفلسفة ، والطلسم ، والمغنطيس ، والاقليم ، والقاموس ، والقانون من اليونانية . . غير ما اقتبسوه من اللغة الهندية ، وأكثره من أسماء العقاقير ونحوها .

فترى مما تقدم أن أهل تلك النهضة لم يكونوا يستنكفون من اقتباس الألفاظ الأعجمية ، ولم يتعبوا أنفسهم في وضع ألفاظ عربية لتأدية المعاني التي نقلوها عن الأعاجم . . بل كانوا كثيراً ما يستخدمون للمعنى الواحد لفظين من لغتين أعجميتين . فالسرسام مثلاً اسم فارسي لورم حجاب الدماغ ، استعمله العرب للدلالة على هذا المرض . . ولما ترجموا الطب من لغة اليونان استخدموا اسمه اليوناني وهو « قرانيطس » ولو استنكفوا من استخدام الألفاظ الأعجمية لاستغنوا عن اللفظين جميعاً .

٣ - التراكيب الأعجمية في اللغة العربية

هذا مطلب بعيد الأطراف ، يستغرق درساً طويلاً وبحثاً عميقاً ، لا يأذن بها المقام . . فنكتفي بالتنبيه إليه ، ونأتي ببعض الأمثلة لتأييد قولنا . لكننا بالقياس على ما دخل اللغة العربية من التراكيب الاجنبية في أثناء نهضتنا الأخيرة ، بما نقلناه من علوم الافرنج إلى لساننا ، نقطع بحدوث مثل ذلك في النهضة العباسية ، ونقلة العلم يومئذ من غير أهل اللسان العربي . .

على أننا لو فحصنا لغة ذلك العصر ، وقابلنا بين عبارة كتب الطب ،

والفلسفة ، وعبارة كتب الادب ، لرأينا الفرق بينهما واضحاً . وإذا دققنا النظر في سبب ذلك الفرق ، رأينا عبارة أصحاب الفلسفة تمتاز بأمور ، هي سبب ضعفها وركاكتها منها :

١ ـ استخدام فعل الكون بكثرة على نحو ما يستعمله أهل اللغات الافرنجية .

٢ ـ كثرة الجمل المعترضة الشائعة عندهم .

٣ ـ الاكثار من استعمال الفعل المجهول .

٤ ـ استعمال ضمير الغائب « هو » بين المبتدأ والخبر حيث يمكن الاستغناء عنه .

٥ ـ ادخال الألف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات ، كقولهم روحاني ، ونفساني ، وباقلاني ، ونحو ذلك ، مما هو مألوف في اللغات الآرية ولا يستحسن في اللسان العربي .

ومن التعبيرات التي اقتبسها العرب من اللغة اليونانية ، ما لم يكن لهم مندوحة عنها ولابأس منها :

١ ـ تركيب الألفاظ مع لا النافية ، وادخال أل التعريف عليها ، كقولهم اللانهاية ، واللاأدرية ، واللاضرورة .

٢ ـ صوغ الاسم من الحروف أو الضمير ، مثل قولهم اللمية ، والكيفية ، والكمية ، والهوية .

٣ ـ نقل الألفاظ من الوصفية إلى الاسمية ، كقولهم المائية ، والمنضجة ، والخاصة .

ومن هذا القبيل ، اقتباسهم بعض التعبيرات الفارسية الإدارية مثل قولهم « صاحب الشرطة » و « صاحب الستار » وهو تعبير فارسي .

الألفاظ العامة

كل ما ذكرناه من أمثلة نمو اللغة العربية في العصر الاسلامي ، إنما هو قاصر على تفرع ألفاظها وتجددها ، بما اقتضاه الشرع ، والعلم ، والفلسفة ، والإدارة ، والسياسة . وهناك تغييرات أخرى ، نتجت عما طرأ على الآداب الاجتماعية من التغيير ، فضلاً عن التجارة والصناعة ، وما اقتضاه كل منهما من تنوع الألفاظ العربية أو اقتباس الألفاظ الاجنبية ، كأسماء الأنغام الموسيقية ، والألحان وفروعها . . عدا ما اقتبسه المسلمون من العادات الاجنبية ، وما يتبع ذلك من اسماء الملابس ، والأطعمة ، والاحتفالات مما تغني شهرته عن ايراده .

وهناك تغييرات أخرى أصابت ألفاظ اللغة بغير داع من الدواعي التي قدمناها ، بل هي جرت في ذلك على ناموس الارتقاء العام القاضي على الاحياء بالتجدد والتنوع والتفرع ، لأسباب بعضها معلوم ، وبعضها غير معلوم . والغالب في هذا التنوع أن يكون بالانتقال من معنى كلي إلى معنى جزئي ، أو من معنى إلى ما يشبهه ، أو يتعلق به ، مما يعبرون عنه بالتوليد . . فالألفاظ المولودة هي التي أحدثها المولدّون بعد أن دوّنت اللغة وضبطت ألفاظها في أوائل الاسلام . والألفاظ المولدة أكثر كثيراً مما يظن اللغويون ، بل هي تتولد على الدوام بلا انقطاع . وكل ما تقدم ذكره من

الألفاظ الاسلامية ، والإدارية ، والعلمية ، والتجارية ، إنما هـو من قبيل المولد ، ولكنهم قلما يسمونها مولـدة . . وعندهم أن القـاموس هـو الحكم الفصـل في العربي والمـولد العـامي ، فما لا يـذكره القـاموس بـين الألفاظ العربية عدوه عامياً أو مولداً وحظروا استعماله .

ولكن القاموس وحده لا يكفي للحكم في ذلك ، لأنـه لم يتضمن كل ما تناقلته ألسنة البلغاء أو تداولتـه أقلام الكتـاب ، ولا كل مـا نطقت به العرب . . وقد فـطن إلى ذلك أئمـة اللغة في العصـر الاسلامي ومـا بعده ونبهوا إليه . . قال ابن فارس : « إن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها ، وأن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير » وقال السيوطي : « ومع كثرة ما في القاموس من النوادر والشوارد ، فقد فاته أشياء ظفرتُ بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة ، حتى هممت أن أجمعها في جزء مذيلاً عليه » .

فعـدم ورود اللفظ في القـامـوس لا يـدل دائـماً عـلى أنـه عـامي أو ضعيف .. نـاهيك بـألفاظ كثيـرة ، اكتسبت بالحضـارة معاني جـديـدة لم يدونها القاموس ، لأن الأئمة اعتبروها من قبيل الألفاظ العـامية . . ولكن الكتـاب استعملوهـا ، وفيهم المشـاهـير المشهـود لهم بـالبـلاغـة وسـلامـة الذوق .

* * *

فالأصل في معنى « البيت » في القاموس البناء المعروف ، والشـرف ، والشريـف . فكانوا يقولـون بيت بني تميم أي شرفهم ، وفـلان بيت قومـه أي شريفهم ، وبيت القصيدة أحسن أبيـاتها قـال « والعامـة تقول هـو من بيت فـلان ، أي من عـائلتـه » مـع أن استعمـال البيت بمعنى العـائلة ممـا تـداولته أقـلام البلغاء وفي مقـدمتهم ابن خلدون ، وقـد عـرَّفـه بقـولـه : « البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافـاً مذكـورين تكون لـه بولادتهم ايـاه

والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته » وقال : « وكان بنو اسرائيل بيتاً من أعظم بيوت العالم ».

و « الحضارة » الأصل في معناها سكنى المدن أي ضد البداوة . . فلما تحضر العرب ، وكثر الترف في مدنهم ، صار معنى الحضارة عندهم « التفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والفرش وغيرها .

ويقال نحو ذلك في « العمران » فإن أصل معناها من عمرً الرجل في المكان سكن فيه ، ثم صارت تدل على معنى المدنية والحضارة .

وهذا ما أصاب لفظ « التمدن » فإنها من تمدن الرجل أي تخلق بأخلاق أهل المدن ، ثم دلوا بها على مثل ما تدل عليه الحضارة أو العمران أو المدنية .

وقد استعملوا « ركاب السلطان » بمعنى موكبه ، ولا تجد لهذه اللفظة هذا المعنى في القاموس ، ولكن الكتاب استعملوها له .

وكذلك « كافة » فقد نبه القاموس أنها تستعمل في مثل : « جاء الناس كافة » أي كلهم ، وأنها لا تدخل عليها أل التعريف ولا تضاف . ولكن بلغاء الكتاب قد استعملوها في الحالين مرارا :

قال ابن خلدون : « لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام ».

وقال صاحب أدب الدنيا والدين : « وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكافة ».

* * *

وقال أبو اسحق الصابي الكاتب الشهير من نسخة عهد كتبها عن

المطيع لله إلى الغضنفر بن ناصر الدولة : « أمره أن يعرف لركن الدولة أبي علي وعز الدولة أبي منصور موليي أمير المؤمنين تولاهما الله حق منزلتهما من أمير المؤمنين وغنائهما عن كافة المسلمين ».

ومن الألفاظ التي استعملها الكتاب القدماء ، واقتدى بهم كتابنا . . مع أن استعمالها يخالف قول القاموس ، تخصيص « القينة » بمعنى المغنية ، والأصل اطلاقها على الأمة مغنية كانت أو غير مغنية .

و « المقراض » و «المقص» فإن الأصل في استعمالها بالمثنى ، لأنهما مقراضان ومقصان ، أي شفرتان . فيقال : « قرضته بالمقراضين » و « قصصته بالمقصين ». وقلما نرى بين الكتاب القدماء أو المحدثين من يستعملها كذلك ، بل هم يقولون : قرضته بالمقراض ، وقصصته بالمقص .

والأصل في « المأتم » الاجتماع على العموم ، ثم خصصوه بالاجتماع في مجتمع النياحة .

و « أرق » في الأصل للسهر في مكروه ، ثم صار عاماً .

ومن الاستعمالات الجارية على أقلام الكتاب ، وهي خطأ باعتبار القواعد المدونه ، قولهم : « بدأ به أولاً » والصواب : « بدأ به أول » مثل قولهم قبل ، وحكمهما واحد .

ومن هذا القبيل ، جمع حاجة على حوائج ، وعادة على عوائد ، وهما شائعتان عند الكتاب مع مخالفتهما للقاعدة .

وكذلك جمع ريح على أرياح خطأ ، ولكن الحريري استعملها ، ومثله جمع أرض على أراضي وجمع الجواب على أجوبة .

وقولهم : « شفعه بثالث » غلط ، إذ لا يقال شفعه إلا للثاني من

الشفع والأصل في « القافلة » الرفقة الراجعة ، فصارت تطلق على الـرفقة المسافرين ذهاباً أو إياباً .

* * *

وقِس على ذلك تنوعات كثيـرة يعدهـا القامـوس خطأ ، وقـد نبه إلى خطأها جماعة من فطاحل البلغاء ، وألفوا في تصحيحها الكتب .

وأشهر ما ألفوه كتاب « درة الغـواص في أوهام الخـواص » لأبي محمد الحريري صاحب المقامات ، وقد شرحها وعلق عليهـا كثيرون ، منهم ابن بيري بن عبد الجبار النحوي المتوفي عام ٥٨٢ هـ ، وأبو عبد الله المعـروف بحجـة الدين الصقـلي المتوفي عـام ٥٥٥ هـ ، وابن المـظفـر المكي المتـوفي عـام ٥٦٨ ، وابن الخشـاب النحـوي ، وأبـو بكـر الانصـاري ، وأحمـد الخفاجي المصري ، وغيرهم . وكل من هؤلاء أضاف إلى ذلك الكتاب ألفاظاً من هذا القبيل فاتت صاحب الدرة ، ونبهوا إلى خـطأ استعمالهـا . . ومع ذلك فالطبيعة غلبت على آرائهم وأقوالهم لأن ما عدوه خـطأ ، إنما هـو من نتائج النواميس الطبيعية التي لا بد منها . . سنة الله في خلقه .

الألفاظ النصرانية واليهودية

تريد بالألفاظ النصرانية واليهودية ، ما دخل اللغة العربية من الاصطلاحات الدينية لأهل الكتاب ، وخاصة بعد أن نقلت التوراة ، والانجيل إلى اللسان العربي . فقد كانت لغة الدين المسيحي قبل الاسلام السريانية ، واليونانية ، والقبطية . . . ولغة اليهود العبرانية ، على تفاوت في استخدام الواحدة دون الأخرى ، واختلاف ذلك باختلاف العصور والأماكن .

فلما جاء الاسلام ، وانتشر المسلمون في العراق والشام ، ومصر ، وتسلطت اللغة العربية ، أخذت تلك اللغات تتقهقر ، حتى توارت . . ولم يبق منها إلا آثار قليلة في بعض الطقوس . فالمسيحيون أصبحت العربية لغتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير بها عن كل اصطلاحاتهم الدينية ، ولما ترجموا التوراة والانجيل إلى العربية ، أبقوا كثيراً من الألفاظ الدينية على لفظها ومعناها . . . على أن كثيراً من الألفاظ النصرانية دخلت اللغة العربية في العصر الجاهلي ، كالقسيس ، والدير ، والتوراة ، والانجيل ، وغيرها .

١ ـ الألفاظ الدينية والسريانية :

وإليك أشهر الألفاظ النصرانية واليهودية التي دخلت اللغة العربية

وأصلها سرياني ، أو كلداني ، مرتبة على حروف الهجاء ، وقد يشتبه بعضها بالأصل العبراني ، أو ربما كان بعضها عبرانياً . . وقد وصل العربية على يد السريان .

آب بالمد لاسم الله	بحران	تفشرة	جهنم
عز وجل	برخ	توبة	حانوت
اسطوانة	برنساء	توراة	حبر
امين	ترعة	تيمن	دين بمعنى الحكم
أنبا	تلميذ	جالوت	دير
باعوث	تنور	جبروت	رشم الطفل
زياح	صحاح	قداس	مزمور
زيق	صراط	قربان	مشحة
ساعور	صلوت	قسيس	ملكوت
تسبيح	طاغوت	قيامه	ميمر
سبط	طوبى	كاروز	ناسوت
سعانين	طور	كراس	ناطور
سفر	طوفان	كنيسة	ناقوس
سفسير	عراب	كهنوت	نياحة
سليح	عروبة	كورة	يم
سنور	عماد	لاهوت	يوناني
شبين	غفارة	مار	
شماس	فصح	مرعزا	

فضلاً عن اسماء الشهور الشمسية مثل : كانون ، وتشرين ، وايلول .

ومن الألفاظ النصرانية ، ما هو من أصل يوناني دخل العربية إما رأساً وإما بواسطة اللغة السريانية ، مثل قولهم : انجيل ، وهرطقة ، واسقف ، ومطران ، وطقس ، وطغمة ، وقِس على ذلك .

٢ ـ التراكيب أو العبارات النصرانية

نريد بهذه التراكيب ما دخل العربية من أساليب اللغة السريانية ، والعبرانية ، واليونانية ، وخاصة بعد ترجمة التوراة ، وهي كثيرة نأتي بأمثلة منها :

فمن التراكيب العبرانية قولهم :

قال في قلبه : أي افتكر

واستراح الله من جميع عمله الذي عمله .

من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . . وإذا أكلت موتاً تموت وحدث بعد أيام أن قايين قدم أثماراً . . وحدث إذ كان في الحقل أن قايين قام على أخيه . . الخ .

فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته .

صنع له خيراً وصنع له شراً : بدل أحسن إليه وأساء إليه

ورفع عينيه ونظر

وصار كلام الرب إلى ابرام قائلاً

قد وجد نعمة في عينيه

حسن ذلك في عيني الله . . وقبح ذلك في عيني الله

فتح فاه وعلمهم .

ومن التراكيب اليونانية قولهم :

هكذا مكتوب بالنبي

في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان

ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من ابليس

وفيما هو خارج من الطريق ركض واحد وجثا له

تكلم الرب بفم انبيائه

وربما كان في بعض هذه التراكيب مسحة غير يونانية لاعتماد أكثر مترجمي الأناجيل على بعض ترجماتها في اللغات الأخرى فضلاً عن الأصل اليوناني . . على أننا لا نعد هذه التراكيب مما يستحسن اقتباسه والنسج على منواله ، وإنما هو خاص في لغة الكتاب المقدس أدخله المترجمون لاضطرارهم إلى المحافظة على النص الحرفي .

الألفاظ الدخيلة والمولدة في عصر التدهور

ما برحت اللغة العربية منذ الفتح الاسلامي ، وهي تكتسب الألفاظ الأعجمية والتراكيب الاجنبية كما رأيت ، مما دخلها من الألفاظ الإدراية والعلمية في العصر العباسي وغيره حتى في العصر الجاهلي . . ولكن المراد بالألفاظ الأعجمية في هذا الفصل ، ما خالط اللغة من الألفاظ والتراكيب الأعجمية بعد انقضاء دولة العرب وافضاء الملك إلى السلاطين والأمراء من الفرس ، والديلم ، والترك ، والاكراد ، والجركس ، في العراق ، وفارس ، والشام ، ومصر وغيرها .

لأن اللغة العربية ما زالت سائدة في تلك الدول ، على اختلاف نزعاتها ولغاتها ، وكانت في أكثرها هي اللغة الرسمية التي تتخاطب بها الحكومات . ولم تكن الدول الأعجمية أقل عناية بآداب اللغة العربية من الدول العربية ، بل كانوا أكثر اهتماماً منهم في انشاء المدارس ، وتعليم الفقراء ، واستنساخ الكتب ، ولكن حال العمران على اجماله يومئذ قضى على اللغة بالانحطاط ، فدخلها التكلف والتجمل والتصنع وتكاثرت فيها ألفاظ التفخيم والتبجيل . . وشاع التسجيع في الانشاء ، وحدث في تلك الدول وظائف جديدة ، وتنوعت الوظائف القديمة ، فحدث في اللغة ألفاظ جديدة، أو تنوعت الوظائف القديمة، للتعبير عن تلك

المستحدثات .

السجع والتفخيم

فالتفخيم والتبجيل والتمليق ، اقتضت العناية في تنميق العبارات وتحشيتها ، وكان السجع قد اشتهر على أقلام الكتاب ، فبالغوا في تنميقه وتوسيعه . والتزام السجع ، يدعو إلى استخدام الألفاظ الوحشية المهجورة ، حتى يصير إلى ما تنفر منه الاسماع .

والسجع حسن إذا جاء عفواً بلا تكلف ، لا أن يتعمده المسجعون بالتعمل والتصنع حتى يمجه الذوق ، وينفر منه السمع . وأصبح التسجيع في ذلك العصر كثيراً ، يتفاخر به أكبر الكتاب ، والناس يومئذ يعدون ذلك مستحسناً ، ونحن نراه قبيحاً ولو كان قائله من أشهر الكتبة ، كالعماد الأصفهاني فإنه تعمد التسجيع في كلامه عن فتح بيت المقدس ، في كتابه المسمى الفتح القسي ، وهو من أشهر كتبه . وإليك عبارة منه تدل على باقيه ، وهي قوله في رحيل صلاح الدين للفتح ، « رحل من عسقلان للقدس طالباً . . وبالعزم غالباً . وللنصر مصاحباً ولذيل العز ساحباً . وقد أصحب ريض مناه . وأخصب روض غناه . وأصبح رائج الرجاء . أرج الارجاء . سيب العزف . طيب العرف . طاهر اليد . قاهر الأيد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملأ فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق . وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من أجحاف الجحافل . والسماء حاظية بأقساط القساطل الخ » .

فترى من نص هذه العبارة ، إنهم كانوا يستعينون بالتسجيع للاطناب على ما اقتضاه حال تلك الأيام وتلك الدول من التفخيم ، لأن في

التسجيع رنة توهم الاطناب والاطراء . . ولهذا السبب أيضاً كثرت المترادفات في نعوت التفخيم ، فمن أمثلة ذلك ما قاله المرادي في تعريب الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه « أعيان القرن الثاني عشر للهجرة » قال :

« هو استاذ الاساتذة ، وجهبذ الجهابذة الولي العارف ينبوع العوارف والمعارف ، الامام الوحيد ، والهمام الفريد ، العالم العلامة ، والحجة الفهامة ، البحر الكبير ، والحبر الشهير ، شيخ الاسلام صدر الأئمة الاعلام ، قطب الاقطاب الذي لم تنجب بمثله الاحقاب ، العارف بربه ، والفائز بقربه وحبه ، ذو الكرامات الظاهرة ، والمكاشفات الباهرة الخ . . الـخ » ولم يكن ذلك التطويل قاصراً في وصف رجال الفضل ، كالنابلسي ، بل كان شاملاً كل انسان .

وما زالت الركاكة تتوالى على الانشاء العربي ، حتى بلغت منتهاها في أول القرن الماضي ، وكثرت الألفاظ العامية والدخيلة . . فمن أمثلة ذلك ما جاء في الجبرتي في أثناء كلامه عن حرب الفرنسيين وهي قوله : « وفي الثلاثة حضر هجان وباش سراجين ، ابراهيم بك وأخبر أن الجماعة عزموا على الارتحال والرجوع وفك الجسر ، فعمل الباشا ديواناً الخ » وقوله : « وفي ذلك اليوم وصل ططري من الديار الرومية وعلى يده مرسومات ، فعملوا في صبحها ديواناً وقرئت المرسومات الخ ».

١ ـ الألفاظ المولدة في عصر التدهور

هذا ما يقال من حيث التراكيب ، وأما الألفاظ فقد كثر فيها الدخيل والمولد ، وأكثرها في الألفاظ الإدارية المتعلقة بالحكومة ونظمها وما يتعلق بها .

وإليك أمثلة من الألفاظ المولدة في عصر التدهور مما يختص بالإدارة ، وقد وضعنا بازاء كل لفظ ما صار إليه معناه في ذلك العصر :

النائب : القائم مقام السلطان

الساقي : المتولي مد السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب

المشرف : متولي أمر المطبخ

ملك الأمراء : من الألقاب التي اصطلحوا عليها لنواب السلطان

رأس النوبة : الذي يتحدث على مماليك السلطان

أمير المجلس : الذي يتولى أمر مجلس السلطان

وقس على ذلك سائر الرتب المحدثة في الدول التركية ، والكردية ، كأمير السلاح ، ومقدم المماليك ، وأمير علم ونقيب الجيش ، والعامل . . وهذا غير العامل في الدولة العربية فأنه في الدولة التركية يراد به منظم الحسابات . . ومثلها الصيرفي ، وكاتب السر ، والناظر . . وهو خاص في الاموال وصاحب الديوان ، والشاهد ، وغيرها .

ومن هذا القبيل الألفاظ أو النعوت التي تكتب في المكتبات والولايات ، واليك أمثلة منها :

الجانب : من ألقاب ولاة العهد بالخلافة ومن في معناهم ، كامام الزيدية اليمني في مكاتباته عن الأبواب السلطانية .

المقام : هو خاص بالملوك

المقر : يختص بكبار الأمراء ، وأعيان الوزراء ، وكتاب الشرف : كناظر الخاص ، وناظر الجيش ، وكاتب الدست .

الجناب : من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً . . فيما يكتب به

التسجيع رنة توهم الاطناب والاطراء . . ولهذا السبب أيضاً كثرت المترادفات في نعوت التفخيم ، فمن أمثلة ذلك ما قاله المرادي في تعريب الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه « أعيان القرن الثاني عشر للهجرة » قال :

« هو استاذ الاساتذة ، وجهبذ الجهابذة الولي العارف ينبوع العوارف والمعارف ، الامام الوحيد ، والهمام الفريد ، العالم العلامة ، والحجة الفهامة ، البحر الكبير ، والحبر الشهير ، شيخ الاسلام صدر الأئمة الاعلام ، قطب الاقطاب الذي لم تنجب بمثله الاحقاب ، العارف بربه ، والفائز بقربه وحبه ، ذو الكرامات الظاهرة ، والمكاشفات الباهرة الخ . . الخ » ولم يكن ذلك التطويل قاصراً في وصف رجال الفضل ، كالنابلسي ، بل كان شاملاً كل انسان .

وما زالت الركاكة تتوالى على الانشاء العربي ، حتى بلغت منتهاها في أول القرن الماضي ، وكثرت الألفاظ العامية والدخيلة . . فمن أمثلة ذلك ما جاء في الجبرتي في أثناء كلامه عن حرب الفرنسيين وهي قوله : « وفي الثلاثة حضر هجان وباش سراجين ، ابراهيم بك وأخبر أن الجماعة عزموا على الارتحال والرجوع وفك الجسر ، فعمل الباشا ديواناً الخ » وقوله : « وفي ذلك اليوم وصل ططري من الديار الرومية وعلى يده مرسومات ، فعملوا في صبحها ديواناً وقرئت المرسومات الخ » .

١ ـ الألفاظ المولدة في عصر التدهور

هذا ما يقال من حيث التراكيب ، وأما الألفاظ فقد كثر فيها الدخيل والمولد ، وأكثرها في الألفاظ الإدارية المتعلقة بالحكومة ونظمها وما يتعلق بها .

وإليك أمثلة من الألفاظ المولدة في عصر التدهور مما يختص بالإدارة ، وقد وضعنا بازاء كل لفظ ما صار إليه معناه في ذلك العصر :

النائب : القائم مقام السلطان

الساقي : المتولي مد السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب

المشرف : متولي أمر المطبخ

ملك الأمراء : من الألقاب التي اصطلحوا عليها لنواب السلطان

رأس النوبة : الذي يتحدث على مماليك السلطان

أمير المجلس : الذي يتولى أمر مجلس السلطان

وقس على ذلك سائر الرتب المحدثة في الدول التركية ، والكردية ، كأمير السلاح ، ومقدم المماليك ، وأمير علم ونقيب الجيش ، والعامل . . وهذا غير العامل في الدولة العربية فأنه في الدولة التركية يراد به منظم الحسابات . . ومثلها الصيرفي ، وكاتب السر ، والناظر . . وهو خاص في الاموال وصاحب الديوان ، والشاهد ، وغيرها .

ومن هذا القبيل الألفاظ أو النعوت التي تكتب في المكتبات والولايات ، واليك أمثلة منها :

الجانب : من القاب ولاة العهد بالخلافة ومن في معناهم ، كامام الزيدية اليمني في مكاتباته عن الأبواب السلطانية .

المقام : هو خاص بالملوك

المقر : يختص بكبار الأمراء ، وأعيان الوزراء ، وكتاب الشرف : كناظر الخاص ، وناظر الجيش ، وكاتب الدست .

الجناب : من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً . . فيما يكتب به

السلطان وغيره من النواب ومن في معناهم .

المجلس : هو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام ممن لم يؤهل لرتبة الجناب .

مجلس (بلا أل) : يضاف إلى ما بعده ، فإذا قيل مجلس الأمير كان لقب أرباب السيوف على اختلاف طبقاتهم ، وإذا قيل مجلس القاضي كان مختصاً بأرباب الأقلام . وإذا قيل مجلس الشيخ كان لقب الصوفية وأهل الصلاح . وإذا قيل مجلس الصدر كان للتجار وأرباب الصنائع .

الحضرة: ويراد بها حضرة صاحب اللقب ، وهي من الألقاب القديمة التي كانت تستعمل في مكاتبات الخلفاء . . وكان يقال فيها الحضرة العالية والحضرة السامية ، ثم صارت تستعمل في العصر الذي نحن فيه للمخاطبة من الأبواب السلطانية إلى بعض الملوك أو الاعيان .

هذه أمثلة قليلة مما تولد في اللغة العربية من الألفاظ التي اقتضاها عصر الدول الأعجمية ، وأكثرها كان له معنى وتنوع على ما اقتضته الأحوال عملاً بناموس الارتقاء .

٢ ـ الالفاظ الدخيلة في عصر التدهور

وأما الألفاظ الدخيلة ، ففيها الفارسي ، والتركي ، والكردي . . وكلها إدارية من اصطلاحات الحكومة ، وإليك أمثلة منها :

الاستادار : يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه ويتمثل أوامره فيه .

الجوكاندار : لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة .

الطبردار : الذي يحمل الطبر .

سنجقدار : يحمل السنجق وهو العلم .

البندقدار : وهو يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير .

الجمدار : الذي يتصدى لالباس السلطان أو الأمير ثيابه وأصله جامادار

البشمقدار : يعمل نعل السلطان

المهمندار : يهتم بالرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم الضيافة .

الزنان دار : وهو الزمام دار يتحدث مع السلطان ، وهو من الخدم أو الخصيان .

الجاشنيكر : يتصدى لذوقان المأكول خوف التسمم .

السراخور : يتحدث عن علف الدواب .

أميراخور : صاحب الاصطبل .

أمير جاندار : يستأذن على الأمير وغيره في أيام المواكب .

وقس على ذلك ما دخل اللغة في ذلك العصر من الاصطلاحات العسكرية والمالية والتجارية ، ومن هذا القبيل الاصطلاحات العسكرية والإدارية في الدولة العثمانية وبعضها تركي أو فارسي صرف وبعضها مركب من التركي ، أو الفارسي ، والعربي : كالجاويش ، واليوزباشي ، والبكباشي ، والسرعسكر ، والمابين ، والسركي ، والياور ، وأميرالاي والاوردي ، والآلاي ، والطابور ، والباشا ، والبيك ، والأغا ، ومنها ما هو عربي بصيغة تركية : كالمكتوبجي ، والمابنجي ، والمحاسبجي ، والبشكاتب ، والسلاملك ، وما ينتهي بلفظ « خانة » كالرصدخانة ،

والكتبخانة ، أو بلفظ « دار » كالدفتردار، والخزندار . . ناهيك بالألفاظ العربية المولدة التي اكتسبت معاني جديدة في الدولة العثمانية : كالناظر ، والمتصرف ، والمحتسب والتابعية والمسؤولية ، والصدر الأعظم ، والمدعي عمومي ، والقائمقام ، ونحو ذلك وهو كثير جداً ، وسيأتي ذكر بعضه مفصلاً في أثناء كلامنا على النهضة العلمية الأخيرة .

النهضة العلمية الأخيرة

لم يمر على اللغة العربية عصر أثر في ألفاظها وتراكيبها تأثير النهضة الأخيرة في أواسط القرن الماضي ، لأنها جاءتها على غرة دفعة واحدة . . فانهالت فيها العلوم انهيال السيل ، وفيها الطب ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والعقليات وفروعها ، ولم تترك للناس فرصة للبحث عما تحتاج إليه تلك العلوم من الألفاظ الاصطلاحية مما وضعه العرب أو اقتبسوه في نهضتهم الماضية ولا لوضع الأوضاع الجديدة . والسبب في ذلك أن الذين اشتغلوا في ميادين العلوم الحديثة عند أول دخولها مصر والشام في أواسط القرن الماضي ، لم يكونوا على سعة من علم اللغة . . فلما ترجموا تلك العلوم إلى اللغة العربية لم يهتدوا إلى مصطلحاتها القديمة ، أو اهتدوا إلى بعضها ووضعوا للبعض الآخر ألفاظاً لا تنطبق على المراد بها تمام الانطباق . . لكنها صقلت بتوالي الأعوام وصارت تدل على المراد ، كما أصاب أمثالها في أثناء النهضة العباسية وغيرها .

فلما انقضت تلك البغتة ، وتكاثرت المدارس ونشأ الكتاب وعلماء اللغة ، عادوا إلى النظر فيما دخل اللغة من المصطلحات العلمية ، أو الإدارية الجديدة ، وقلما استطاعوا تبديل شيء منه لتأصله وشيوعه في الكتب والجرائد والاندية وغيرها . . على أنهم لم يعدموا وسيلة في اصلاح

الانشاء والرجوع بعباراتهم إلى نحو ما كانت عليه في صدر الدولة العربية ، لأنهم تحدوا فطاحل الكتّاب في تلك العصور مع مراعاة الذوق والسهولة . . فنبغ بيننا كتاب لا يفضلهم ابن المقفع ، ولا ابن خلدون ، ولا غيرهما من صفوة الكتّاب وعمدة المنشئين في شيء . . وقد اغفلوا السجع البارد ، وقللوا من الاطناب وأبطلوا المترادف . . وهم عاملون على تنقية اللغة مما خالطها من الاجماش والادران ، وما أصابها من الضعف في عصر الانحطاط . . وإذا تدبرت لغة الكتاب والمنشئين في أول هذه النهضة ، وقابلتها بلغة كتابنا اليوم رأيت الفرق كبيراً ، وتوقعت أن تعود إلى أسمى ما بلغته من درجات الكمال في عصر زهوها وشبابها . .

على أننا لا نظنهم مع ذلك قادرين على تنقيتها مما داخلها من الألفاظ والتراكيب الأعجمية ، أو مما تولد فيها من الألفاظ العربية الجديدة على ما اقتضاه التمدن الحديث من العادات الجديدة والآداب الجديدة والعلوم الجديدة . وقد دثر من اللغة كثير من الاصطلاحات القديمة ، وقام مقامها مصطلحات جديدة . . شأن الكائنات الحية الخاضعة لناموس الارتقاء .

فالتغيير الذي أصاب اللغة العربية في النهضة الأخيرة ، قد أصاب ألفاظها وتراكيبها . . وبعضه دخلها من اللغات الاجنبية ، والبعض الآخر تولد فيها بالتنوع والتفرع . . وللاحاطة بالموضوع نقسم الكلام فيه إلى قسمين : نبحث في القسم الأول عن الدخيل ، وفي القسم الثاني عن المولد .

١ ـ الدخيل

يقسم الدخيل في اللغة العربية في أثناء هذه النهضة إلى أربعة أقسام :

(أ) الألفاظ الإدارية (ب) الألفاظ التجارية (ج) الألفاظ العلمية

(د) التراكيب الاجنبية .

الألفاظ الادارية الدخيلة

أكثر هذه الألفاظ من مصطلحات الدولـة العلية ، وأكثـرها تـركي ، وفـارسي ، وقد ذكـرنـا أمثلة منهـا في كـلامنـا عـما دخـل اللغـة في عصـر التـدهور . . وبعض تلك الألفـاظ أخذ من اللغـات الافرنجيـة وخـاصـة اللغتين الايطالية والفرنسية ، وهي :

١ ـ الألفاظ الإدارية التركية	لفظها الأصلي	معناها
سنجق	سنجاق	راية
طابور	طابور	كتيبة
بلك	بلوك	سرب
آلاي	آلاي	فرقة
اوردى	اوردو	جيش
جفلتك	جفلتك	مزرعة
اورنيك	اورنك	نموذج
اورطة	اوردى	جيش

ويلحق بالألفاظ التركية كل ماتركب تركيباً تركياً ، ولوكان عربياً أوفارسياً . والغـالـب أن يكون ذلـك التـركيب مـه « جي » للنسبـة أو « بـاش » رأس كقولهم : مكتوبجي ، ومخزنجي ، واجزاجي ، وتمرجي ، وهذه مركبة من تيمـار بالفـارسية (سيـاسة المـرضى) وجي . وباشكـاتب ، باشمهنـدس (مهندس اسم فاعل من لفظ فارسي الأصل « اندازه » معنـاه التقديـر) . وحيكمبـاشي ، وقـد يـركب من الاثنـين معـاً مثـل مخـزنجي بـاشي ،

ومكريجي باشي ، وقس عليه . .

٢ ـ الألفاظ الإدارية الفارسية	لفظها الأصلي	معناها
ياور	ياور	معاون
تمغة	تمغا	طوابع رسمية
بندر	بندر	مرفأ
بارة	باره	قطعة
سواري	سواره	فارس
سراى	سراى	بيت

ويلحق بالألفاظ الادارية الفارسية ما يركب من الألفاظ مع « دار » صاحب أو « خانة » بيت في اخر الكلمة أو « سر » رأس في أولها كقولهم : حكمدار ، وبيرقدار ، ودفتردار ، وكتبخانة وخستة خانة ، وأجزاخانة ، وسردار ، وسرعسكر ، وسرتشريفاتي وقس على ذلك . وقد تقدم ذكر بعضها في كلامنا عن عصر التدهور .

٣ ـ الألفاظ الإدارية الفرنسية	لفظها الأصلي	معناها
قومندان	Commandan	صاحب الأمر
جنرال	Général	قائد
قنصل	Consul	وكيل
بوليس	Police	ضابطة
سكرتير	Secrétaire	كاتم السر
برلمان	Parlement	مجلس الأعيان
قومسير	Commissaire	مندوب

٤ ـ الألفاظ الإدارية الايطالية	لفظها الأصلي	معناها
بوسطة	Posta	البريد
يونيفورما	Uniforma	بدلة رسمية
ورديان	Guardino	حارس
اسكله	Scala	سلم
ديكريتو	Decreto	أمر عال
باطنطة	Patenta	رخصة

٥ ـ وهناك ألفاظ إدارة مقتبسة من لغات أخرى ، كلفظ « الغرش » فأنه معرب Groschen بالالمانية و « امبراطور » من Emperator في اللاتينية وغيرها .

(ب) الألفاظ التجارية الدخيلة

أكثر هذه الاصطلاحات معربة عن الايطالية والفرنسية ، لأن الايطاليين أو أهل البندقية من أقدم تجار أوروبا اختلاطاً بالمشارقة في القرون الأخيرة . . وإليك أمثلة من الاصطلاحات الايطالية :

١ ـ الألفاظ التجارية الايطالية	لفظها الأصلي	معناها
كمبيو	Cambio	صرف
كمبيالة	Cambiale	حوالة
فاتورة	Fattura	كشف
سيكورتا	Sicurta	تأمين
قومبانية	compagna	شركة
استبالية	Ospitale	مستشفى
بروتستو	Protesto	اقامة الحجة

بورصة	Borsa	تجارة
ديبلوما	Diploma	شهادة
اجيو	Agio	. . . . .

٢ ـ الألفاظ التجارية الفرنسية	لفظها الأصلي	معناها
بنك	Banc	مقعد ثم المصرف
قومسيون	Commission	لجنة
كوبون	Coupon	القطع

وهناك ألفاظ متفرقة من لغات أخرى : كالكمرك مثلاً ، فإنه تعريب « كومركي » باليونانية ، وكذلك ناولون . . وشك مأخوذة من صك الفارسية أو أصلها صك بالعربية ، وطاقم بالتركية ، ودروباك في الانجليزية ، وقس على ذلك . .

ومثل هذا كثير في اصطلاحات نظارات الحكومة ومصالحها ، وخاصة في السكة الحديدية ، والتلغراف ، والحربية . . واصطلاحات التجار ، وأصحاب الحوانيت ، والصناع ، وغيرهم . وهي تعد بالمئات . . . وقد أغفلناها لشهرتها ، ولأن الكتّاب يعدونها من قبيل الألفاظ العامية ، فلا ذخل لها في بحثنا .

(جـ) الألفاظ العلمية الدخيلة

الألفاظ العلمية التي دخلت اللغة العربية في هذه النهضة كثيرة جداً ، ومعظمها مقتبس من الفرنسية ، والايطالية ، والانجليزية ، لأن أكثر العلوم المترجمة إلى لساننا منقولة عنها . . على أن المصطلحات العلمية متشابهة في لغات الافرنج ، لأن مصدرها عندهم إما اللاتينية ، أو

اليونانية . فلا غرو إذا اخذناها بلفظها كما أخذها الانجليز أو الفرنسيون أو غيرهم ، وعددناها من قبيل الألفاظ الوضعية بلفظها ومعناها . ويدخل في ذلك أسماء العلوم الجديدة : كالجيولوجيا ، والمترولوجيا ، والفيسيولوجيا ، والترابيوتيا ، والفرينولوجيا ، والهيستولوجيا ، والهدروستاتيك ، والميكانيكيات ، وغيرها . ويدخل في ذلك أيضاً أسماء الآلات الطبيعية أو الفلكية أو الكهربائية أو نحوها . . مما لم يكن له مثيل عند العرب ، وسيأتي ذكرها .

فالألفاظ الطبية الدخيلة كثيرة ، وفي جملتها أسماء كثير من الأمراض أو العقاقير والأدوات ، وأكثره لم يكن له مثيل في الطب العربي ، كالدسببسيا ، والبانكرياس ، والنفراجيا ، والبلورا ، والسمباتوى ، والبلهارسيا ، والدفتيريا ، والهستيريا ، والانيميا ، والبروتوبلاسم ونحوها .

ومن المصطلحات الكيمائية غير أسماء العقاقير الكثيرة ما يحدث من تراكيبها ، كالاسيد ، والكلوريد ، واليودور ، والكربونات ، والفوسفا ، والاكسموس ، والاندسموس ، والكربونيك والهدروكلوريك ، والهدروسيانيك ، والفوتوغراف ، والزنكوغراف وغيرها من الأسماء الصناعية المبنية على الكيمياء .

ومن المصطلحات الطبيعية ، البارومتر ، والكهربائية (الكهرباء لفظ فارسي مركب من « كاه » التبن و « ربا » جاذب) . والبطارية ، والكلفانومتر ، والترمومتر ، والهيدرومتر ، والالكتروتيب ، والميكروسكوب ، والتلسكوب ، والسبكتروسكوب ، والتلغراف ، والفونوغراف ، والتليفون ، والفوتوفون ، والميكروفون ، وغيرها . ولو أردنا الاتيان بكل المصطلحات العلمية لما وسعها غير المجلدات فنكتفي بما تقدم على سبيل المثال .

(د) التراكيب الأعجمية

معلوم أن أكثر المصادر التي يرجع إليها كتاب اللغة العربية في العلم الطبيعي وفروعه مكتوبة باللغات الافرنجية ، وأكثر الكتاب عندنا يحسنون لساناً أو غير لسان من اللغات الأعجمية ، وأكثر ما يقرأونه من الكتب أو الجرائد في اللغات الافرنجية . . فضلاً عن شيوع تلك اللغات بين العامة ، فحيث سار الكاتب في المدن الكبرى فإنه يسمع العبارات الافرنجية . فلا غرو إذا داخل عبارته تركيب افرنجي أو تعبير أجنبي . ولا يخفى أن لكل لغة أسلوباً في التعبير لا ينطبق بكل تفاصيله على أساليب اللغات الأخرى واللغات تتقارب وتتباعد في تلك الأساليب بتقارب أصول الشعوب وتباعدها ، والعرب بعيدون في أصولهم عن الافرنج . . فأساليب التعبير في لغاتهم متباعدة ومتباينة ، والغالب أن تمتاز كل لغة ببعض أساليبها على اللغات الأخرى وتقصر في البعض الآخر . . يعلم ذلك الذين يعانون الترجمة من لسان إلى لسان ، فاقتباس العرب بعض أساليب الافرنج في كتابتهم قد يكون من جملة مكملاتها ، وإذا عده بعض اللغويين فساداً في اللغة ، فلأن بعض كتابنا يبالغون في ذلك الاقتباس . . فيتناولون عبارات افرنجية ، في اللغة العربية ما هو أجمل منها وأمتن . .

ومن أمثلة ما حدث في اللغة العربية من التراكيب الافرنجية ، وقد جرت على أقلام كثيرين قولهم :

١ ـ فلان كلاهوتي يقدر أن يؤثر كثيراً .

٢ ـ رأيت صديقي فلان الذي اعطاني الكتاب (أي فأعطاني) .

٣ ـ رغماً من مساعيه الحميدة لم ينجح في عمله .

٤ ـ مستمداً العناية من الله أقف بينكم خطيباً .

٥ ـ لعب فلان دوراً مهماً في هذه المسألة .

٦ ـ المعاهدة المصادق عليها من الدولة الفلانية .

٧ ـ إن الأمر الفلاني مضر بقدر وشرف ومالية فلان

٨ ـ يوجد في بلاد الحجاز عدة جبال .

ونحو ذلك من التراكيب التي ترى الصيغة الافرنجية ظاهرة فيها . . على أن أهل العناية في الانشاء العربي قلما يستخدمونها . وإن كنا لا نرى بأساً من استخدام بعضها في الأحوال التي تضيق التراكيب العربية فيها .

٢ ـ المولد

ونريد بالمولد ألفاظاً عربية تنوعت دلالتها للتعبير عما حدث من المعاني التي اقتضاها التمدن الحديث في الإدارة أو السياسة أو العلم أو غير ذلك ، وهي كثيرة نذكر أمثلة منها :

١ ـ الألفاظ الادارية المولدة

وهي ما استخدمته الحكومة من الألفاظ العربية لمعان حدثت في الدولة أو تنوعت على مقتضى السياسة أو الإدارة ، وهاك أمثلة منها :

المالية	أموال غير مقررة	الارادات	مكافأة
الداخلية	المأمور	التكليف	قلم تحريرات
الخارجية	رئيس قلم	محافظة	تشريفاتي
الاشغال العمومية	مفتش	مركز	خدمة سائرة
المعية	معاون	عوائد	تعويضات
الخاصة	متصرف	رسوم	معاشات

الدائرة السنية مصلحة مصاريف نثرية مصلحة الرى والترع
المدير نظارة مساحة التوالف شورى القوانين
الناظر ميزانية علاوة معاون اول
وثاني الخ . .
كاتب أول السخرة ملاحظ النيابة
وثاني الخ . .
قواص مستشار رتبة أولى الخ ناظر النفوس
مراقب مساعد متمايز قضاء
أموال مقررة مستخدم تذكرة مرور ناحية

٢ ـ الاصطلاحات الجندية ومنها :

المشير أركان حرب بدل سكن النسافة
الفريق تجهيزات حربية الاستعراض الطرادة
اللواء ضابط الحربية الغواصة
قائمقام نفر المهمات الدارعة
خفر السواحل تعيينات الهدنة البارجة
القرعة العسكرية كساوى البلاغ النهائي غرامة الحرب
بدل سفرية

٣ ـ الاصطلاحات القضائية ومنها :

الحقانية محكمة الجزاء النيابة مدعي عمومي
العدلية المجالس الأهلية النقض والابرام مميز
محضر المجالس المختلطة معارضة
المحكمة الابتدائية مجالس الاستئناف الحكم العرفي

٤ ـ اصطلاحات سياسية :

مؤتمر	السفارة	المحافظون	مجلس الأعيان
معتمد	الاستعمار	الاحرار	مجلس العموم
مندوب	الاحتلال	الاشتراكيون	المسؤولية
السياسة	الدوائر السياسية	مجلس الشيوخ	

٥ ـ اصطلاحات الصحافة :

الصحافة	مراسل	بدل الاشتراك	الاعلانات
جريدة	مكاتب	المطبوعات الدورية	المنشورات
مجلة	محرر	وغير الدورية	الوصل

٦ ـ اصطلاحات في الطبيعة :

الثقل النوعي	السمعيات	التبلور	القوة
الزخم	الحل الكهربائي	جاذبية الالتصاق	السديم
التباعد عن المركز	التمغنط	والملاصقة والشعرية	العدسة البلورية
الجاذبية	انكسار النور	التداخل	البؤرة
السطح المائل	تشرف النور	السرعة	شفاف
المفرغة	استقطاب النور	تكهرب	مظلم
القابلة	الموشور	المادة	منير

٧ ـ اصطلاحات في الكيمياء :

حامض	كثافة	منقوع	متعادل
قاعدة	مرونة	صبغة	لفائف الحدة

تحليل	غاز	الجرم	السمات
الطيف الشمسي	جامد	الألفة الكيماوية	العبارات
عنصر	سائل	قلوي	يستحضر
الوزن الجوهري	محلول	حامض	يحضر
املاح	تحليل	كاشف	الجوهر الفرد
تركيب	البلبوس	الدقيقة	الذرة

٨ ـ اصطلاحات طبية :

حويصلة	صمامات القلب	الزهري	انسكاب
غشاء مخاطي	اللين	الصفير	تصلب
الخلايا الهوائية	تمدد	الطنين	التشخيص
الاختلاطات	تدرن	الاعراض	حؤول

٩ ـ اصطلاحات صناعية :

قطار	حروف	الباخرة	المحامي
قاطرة	أمهات	الرفاص	الطباعة
مطبعة	المعامل	السكة الحديدية	

١٠ ـ اصطلاحات تجارية :

الرهونات	الشك المسطر	الفائدة	مسك الدفاتر
عمولة	الأستاذ	حساب النمرة	الزنجير
المقاول	اليومية	حساب جاري	الجرد
الرسمية	الخرطوش	العينات	سدد الحساب
الميرى	الصندوق	المضاربة	الاستهلاك

أسهم الشركات	القسيمة	صرر النقود	مساهمة
القراطيس	الامضاء	التحصيل	المتسبب
استحقاق	الذممات	الطرود	الاطيان
التحويل	الشركات	التصدير	
المشارطة	فتح اعتماد	الاعتماد	التصفية
عميل	دين ممتاز	المصاريف الهالكة	المزايدة
العمولة	الاقتصاد	المال الاحتياطي	المناقصة
تحويل	الممارسة	الساحب	التسجيل
تسليف نقود	الرهونات	المسحوب عليه	ميعاد
سحب (السندات)	المحصول	حامل السند	استحقاق

هذه أمثلة من الألفاظ المولدة في النهضة الأخيرة في الإدارة والسياسة والتجارة ، والعلم ، والصناعة . وهي كما تراها عربية الأصل والاشتقاق ، وأكثرها كان معروفاً في اللغة ومدوناً في المعجمات من قبل لمعان قريبة ، مما استعملها له المولدون أو شبيهة بها على نحو ما حصل في العصر العباسي . . ولكل من هذه الألفاظ تاريخ يدل على ما تقلبت فيه من الدلالات المتقاربة من زمن الجاهلية ، فالعصر الاسلامي ، فعصر التدهور إلى هذا العصر .

ولا ننكر أن بعض هذه المولدات كان في الامكان الاستغناء عن توليدها باستعمال ألفاظ كانت في اللغة قبل هذه النهضة ، ولها نفس الدلالة المطلوبة ، ولكن قضت الأحوال بالتجديد المستمر . . وهو من نواميس الحياة .

وأكثر التوليد المذكور حدث تدريجاً واعتباطاً لأسباب متفرقة ومختلفة ، لا يمكن تعيينها أو حصرها . . على أن بعضها وضع عن روية وقصد وهو قليل . وأما الأغلب في هذا التوليد أن يدخل اللغة تدريجياً مثل تدرج

العادات والآداب في تولدها ودخولها في جسم الأمة. ومن أوضح الأمثلة على ما تتقلب فيه الألفاظ من المعاني أو تتدرج في ابداله، ما أصاب نعوت التفخيم من التغيير العجيب بانتقالها من عصر إلى عصر.. فالاديب، والالمعي، والفاضل، والعلامة، والفهامة، وحضرة، وجناب، يستخدمها الكتاب اليوم لغير ما كان يستخدمها له الاقدمون... وقد يكون الفرق بعيداً بين المعنيين. فالأديب مثلاً مشتقة من الأدب، وهو يشمل معظم ضروب العلم.. وقد استعملها المولدون في العصور الاسلامية الوسطى لما نستعمل له اليوم لفظ العالم الفاضل، وما زالت دلالتها تتصاغر حتى صاروا يستخدمونها لأصغر خدمة الأدب والحضرة، والجناب كانتا من نعوت الملوك والأمراء، فأصبحتا تستخدمان لأحقر العامة. وقس على ذلك سائر الألقاب.. وشأن هذه النعوت في حياتها شأن الرتب وأدوارها، فلفظ «بيك» مثلاً معناه الأمير، أو الملك.. وكانوا يسمون به كبار الأمراء والقواد، ثم جعلوه لقباً ملكياً يمنح لبعض الوجهاء ونحوهم ممن يأتون عملاً عظيماً، ثم صار إلى ما تعلم. ويقال نحو ذلك في سائر الرتب والنعوت، فهي في صعود وهبوط وتولد ودثور في دلالتها، شأن الطبيعة في كل أحوالها.

لغة الحكومة المصرية في دواوينها

لا غرو إذا أفردنا للغة الحكومة المصرية باباً خاصاً لاختصاصها بألفاظ وتعبيرات لا مثيل لها في اللغة الفصحى ، وفيها ما لا يمكن تطبيقه على قاعدة ، ولا الرجوع به إلى قياس . . ففي مخاطبات الدواوين وصور الأوامر العالية من الألفاظ الغريبة ، والتراكيب الركيكة ما هو غريب في بابه ، وقد بلغ ذروة الغرابة في أواسط القرن الماضي قبل نضج هذه النهضة .

وأصل الركاكة والغرابة في لغة الدواوين ، يرجع إلى عصر التدهور في زمن الأمراء والمماليك . . وطبيعي أن اللغة تحيا بحياة أهلها ، وتموت بموتهم ، وتزهو بزهوهم ، وتنحط بانحطاطهم . . ففي عصر أولئك الأمراء ، بلغت مصر من التدهور في السياسة والإدارة والآداب والعلوم ما لم يبق بعده غاية . . فلم ينقض القرن الثامن عشر حتى صارت لغة الكتابة أشبه شيء بلغة العامة لركاكة عبارتها مع ما فيها من الألفاظ الأعجمية ، والعامية فدخل الفرنسيون مصر في أواخر القرن المذكور . ولغة العلماء تكاد تكون عامية ، وإليك أمثلة من كتاب نشره علماء مصر ومشايخها أثناء احتلال الفرنسيين ، قالوا :

« نعرف أهل مصر من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور

بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمئين ، ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت الطاف الله الخفية ، سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ، ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الأشرار ، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب . . » .

وقد ذكرنا مثالاً من كلام الجبرتي مؤرخ تلك الحوادث في كلامنا عن اللغة العربية في عصر التدهور .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر ، كان في جملة حملتهم جماعة من التراجمة ليتوسطوا بينهم وبين الأهالي والعلماء ، ويترجموا لهم المنشورات ، والمراسلات ، ونحوها . . والظاهر أنهم كانوا من غير أبناء اللغة العربية . . فكانوا إذا ترجموا عبارة صاغوها في قالب افرنجي ، وما لم يجدوا له لفظاً عربياً تركوه بلفظه الافرنجي أو وضعوا له لفظاً عامياً .

فلما أفضت الولاية إلى محمد علي مؤسس العائلة الخديوية ، وأخذ في انشاء الدواوين لم يكن له غنى عمن يترجم بين حكومته وحكومات دول أوروبا ، فاستخدم التراجمة وفيهم جماعة من أهل المغرب وغيرهم ، واللغة لا تزال في انحطاطها وركاكتها . والذين يعرفون أساليبها ويحفظون ألفاظها قليلون جداً . . وخاصة بين الذين استخدموهم في الدواوين للكتابة أو الترجمة . وقد رأيت مثالاً من لغة المشايخ والعلماء ، وقد قضوا أعواماً طوالاً في الأزهر ، وقرأوا كتب العلم والفقه . . فكيف بكتاب الدواوين والتراجمة . .

ومما زاد أسباب الفساد في اللغة أن الحكومة بدأت في انشاء الدواوين وترتيب مصالح الحكومة والقضاء وغيرها ، قبل اهتمامها بتعليم الناس وتهذيبهم وترقية أفكارهم واصلاح شأنهم . . فدخل في العصر الأول لحكومة محمد علي كثير من الألفاظ والتراكيب العامية ، ثم تنوعت وتكيفت على أسلوب خاص وأوضاع خاصة وألفاظ خاصة . . وعرفت بلغة الدواوين .

فلما استنار الناس على أثر نشر الصحافة ، ونبغ الكتاب والمنشؤون في أواخر القرن الماضي ، انتظم جماعة منهم في مناصب الحكومة الكتابية ، ففتحوا كثيراً من تلك الغرائب ، ولا يزالون عاملين على تنقيحها .

ومع ذلك فلا يزال فيها من الألفاظ المولدة والدخيلة ، وضروب التركيب ما هو بعيد عن لغة سائر الكتاب ، حتى في معاني الألفاظ العربية المستعمل عند كليهما ، وهاك أمثلة كثيرة الشيوع . .

ألفاظ ديوانية	معناها	ألفاظ ديوانية	معناها
مطاعنة	شكوى	معروض	(عرضحال)
براءة الساحة	تبرير	ناحية	قرية
بالقضاء والقدر	عرضا	عزبة	دسكرة
اتضحت ادانته	ظهر ذنبه	ابعدية	مزرعة
صرف	دفع	نزل	ادارة تقديم المؤن
عريضة	براءة	انجرارية	ادراة المراكب
طاقم	بحرية مركب	مصروفات	نفقات
مفتعل	مزور	خوجا (سفينة)	كاتب
ظهورات	موقت	تعلق فلان	خاصه
نشاوى	جديد	أفرج عنه	أطلق سراحه
اضمحل حاله	صار فقيرا	مستند	سند

مباشرة	رأسا	جبر	كسر
دولاب	خزانة	نفق	مات
استيداع	راتب يعطي بعد الرفت	مراسلة	خادم عسكري
عجوزات	متأخرات المال		

وغير ذلك كثير من الألفاظ العربية وغير العربية . . وقس عليه التراكيب والتعبيرات الخاصة مثل ادخال « لم » على فعل المضارع كقولهم : « لم اتى » بدلا من « لم يأت » وصوغ الفعل المجهول من المصدر وفعل الصيرورة على نحو ما في اللغات الافرنجية كقولهم : « صارت كتابته » بدلاً من « كتب » .

وقد ولدوا صيغة خاصة للفعل الماضي تركب من المصدر ، ولفظ « معرفة » فيقولون : « كتب الكتاب بمعرفة فلان » بدلاً من قولنا : « فلان كتب الكتاب » وربما ركبوا هذه العبارة مع التي قبلها ، فقالوا : « صارت كتابة الكتاب بمعرفة فلان » وقس على ذلك . . ناهيك بركاكة التعبير ، وإن لم تخالف قواعد النحو أو الصرف مما يضيق عنه المقام وقد أغضينا عنه لشهرته . . على أن كتاب اللغة وعلماءها يعدون تلك الألفاظ وأمثالها من قبيل الاصطلاحات العامية واستعمالها خطأ ، وقد أخذت الحكومة في تنقيحها بالتدريج كما تقدم .

الخلاصة

يتبين للقارىء مما ذكرناه عن أحوال اللغة العربية فيما تـوالى عليها من العصور والأدوار في أثناء نموها وارتقائها من زمن الجاهلية إلى هـذا اليوم ، إنها سارت في كل ذلك سير الكـائنات الحيـة بالـدثور والتجـدد المعبر عنـه بالنمو الحيوي . . فقد تولدت في العصر الاسلامي ألفاظ وتراكيب لم تكن في العصـر الجاهـلي ، وتولـدت في العصور التـالية مـا لم يكن فيما قبلهـا . وأخيراً تولدت في نهضتنا الأخيرة من الألفاظ والتراكيب ما لم يكن معهوداً من قبـل . . فالـوقوف في سبيـل هذا النمـو مخالف للنـواميس الطبيعيـة ، فضـلاً عن أنه لا يجـدي نفعاً . . فـاللغة كـائن حي نام خـاضع لنـاموس الارتقاء ، ولا بد من توالي الدثور والتولد فيها . . إراد أصحابها ذلك أو لم يريدوا . تتولد ألفاظ جديدة وتندثر ألفاظ قـديمة عـلى مقتضيات الأحـوال لحكمة شملت سائر الموجودات .

وقد آن لنا أن نخلص أقلامنا من قيود الجاهلية ، ونخرجها من سجن البداوة . . وإلا فلا نستطيع البقـاء في هذا الـوسط الجديـد فلا ينبغي لنـا احتقار كل لفظ لم ينطق به أهـل الباديـة منذ بضعـة عشر قـرناً ، لأن لغـة البـراري والخيـام لا تصلح للمـدن والقصـور ، إلا إذا ألبسنـاهـا لبـاس المدن . . فلابـأس من استعمال الألفـاظ المولـدة التي لا يقوم مقـامها لفظ جاهلي ، لأن معنـاها لـم يكن معروفاً في الجاهليـة ، أو التي كان لهـا لفظ وتـرك فأصبـح غريبـاً مهجوراً . . فـاستعمال اللفظ المولد خـير من احياء اللفظ الميت ، واستبقـاء المولـود الجديـد أولى من احياء الميت القـديم . . وإذا عرض لنا تعبـير أجنبي لم تستعمل العـرب ما يقـوم مقامـه لابأس من اقتبـاسه . وفي اعتقـادنا أن اطـلاق سـراح الأقـلام عـلى هـذه الصـورة ، يكشف لنا عن جماعة كبيرة من أرباب القرائح . . يقعدهم عن الاشتغـال بـالأدب خوفهم من الـوقوع في خـطأ لغوي أو بيـاني يؤاخـذون عليـه . . وليست فيهم شجاعة أدبية تحملهم على عدم المبالاة بالنقد . . إذا كان فيما

يكتبـونه فـائدة . . والخـطأ اللغوي لا يقلل شيئـاً من قدر الكـاتب ، لأن الاحاطة بكل أوضاع اللغة وقواعدها وشواردها لا يتأتى إلا لقليلين .

* * *

على أننا لا نقول في هذا الاطلاق نحو ما يقولـه الافرنـج في لغاتهم ، لأن شأننا في لغتنا غير شؤونهم في لغاتهم . . فلا بد لنا مـع هذا الاطـلاق من الرجوع إلى القواعد العامة والروابط الأساسية فلا نفسـد اللغة بـألفاظ العـامة وتـراكيبهم . . ولا نكثر من الـدخيل حتى تصير لغتنا مثـل اللغـة التركية العثمانية التي أصبحت لكثـرة ما أدخلوه فيهـا من الألفاظ العـربية والفـارسيـة والافـرنجيـة ، لا مثيـل لهـا في العـالم إلا اللغـة الهنـدستـانيـة (الاورديـــة) التي يكتب بها الهنـــود جـرائـــدهم وكتبهم . . أمـا اللغـــة العثمـانية ، فـإذا عدت ألفـاظها بـاعتبار اللغـات المؤلفة هي منهـا ، كان نحو ٧٠ في المائة من الألفاظ العربية و ١٥ في المائة من الفـارسية ، و ٥ في المائة من اللغـات الافرنجيـة ، وعشرة في المـائة فقط من الألفـاظ التركيـة الأصلية ، ويقال نحو ذلك في اللغة الاوردية ، وفي اللغة المالطية .

أمـا اللغة العـربية ، فـلا بد من المحـافظة عـلى سلامتهـا والاهتمـام باستبقائهـا على بـلاغتها وفصـاحتها ، وخـاصة بعـد أن أخذت تنهض إلى أرقى مـا بلغت إليه في أبـان شبابهـا . . فلا يستحسن الاستكثـار فيها من الـدخيل والمـولد ، وإنمـا يؤخذ منهـا بقدر الحـاجة ، عـلى أن نعـد ذلـك الاقتباس نمواً وارتقاء ، لا فساداً وانحطاطاً .

على أننا نعد ما كتبناه في هذا الموضوع خواطر أبـديناهـا ، وفتحنا بهـا باب البحث . وأما استيفاء الكلام في تاريخ اللغـة وألفاظهـا وتراكيبهـا فلا يسعـه إلا المجلدات الضخمـة . . فنتقـدم إلى أئمـة اللغـــة ، وكتـابهـــا ، وعلمائها أن يزيدونا من هذا الموضوع خدمة لهذه النهضة . .

الفهرست

تاريخ اللغة العربية

هذا الكتاب

علم اللغة أو الفلسفة اللغوية ـ كما اسماه جرجي زيدان ـ علم حديث نوعاً . لقد ظهر علم اللغة الحديث في مطلع القرن التاسع عشر ، وكان مظهره في صورة نحو تاريخي مقارن . ووضحت في هذا القرن خصائص جوهرية للغات الرئيسية التي كانت تستخدمها الحضارات القديمة في العالم القديم ، وتحدد ما بينها من صلة وقرابة . وبالرغم من ذلك فقد ظل علم اللغة على حاله فترة طويلة . وحوالي سنة ١٨٧٠ تأثر علم اللغة بنظريات « داروين » والعلوم الطبيعية ، وأدخل علماء اللغة ـ نذكر منهم « شليشر » ـ على علم اللغة ، مناهج جديدة قائمة على أن طبيعة التغيرات اللغوية هي نفس طبيعة التغيرات المشاهدة في العالم الطبيعي ، بل ذهب بعض العلماء إلى أن اللغات تتغير بفعل قوانين عمياء . وأخذ العلماء في الكشف عن القوانين التي تخضع لها لغة الانسان في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها ، وقواعد تصريفها ، وما إلى ذلك .

***

دار الحداثة
[...]باعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
[...]بنان . بيروت ص . ب ١٤/٥٦٣٦